الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل

بيروت

الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد : فهذه دراسات واسعة جديدة للأدب العربي وتاريخه في عصرين من أزهى عصور الأدب وأزهاها ، وأحفلها بالبلاغات العربية في الشعر والنثر ، وشتى فنون الأدب ، وهما : عصر بني أمية ، والعصر العباسي الأول .

ولا يزال هذان العصران حتى اليوم في أمسّ الحاجة إلى الدراسة والبحث للكشف عن مختلف مقومات الأدب ، وبواعثه ، ونوازعه ، وأصوله ، فيهما .

وقد أرادت جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية في البيضاء بالمملكة الليبية ، رفعاً لمستوى الدراسات الأدبية فيها ، وحرصاً على تقديم مختلف الدراسات الجادة في شتى نواحي المعرفة لطلابها ، أن تجعل هذه الدراسات لأدب العصرين الأموي والعباسي الأول مقررة على طلبـــة الفرقة الثانية بكلية اللغة العربية إحدى كليـات هذه الجامعة الفتية الطامحة .

وبعناية الله ، واهتمام المسئولين في هذه الجامعة ، سوف تصبح الشبيبة الليبية المثقفة ، ومن ينتظم في سلكها من أبناء البلاد الإسلامية الوافدين على هذه الجامعة ، مناط الأمل ، ومدار الرجاء ، في تحقيق آمال المستقبل ،

وفى رفع مستوى الدراسات الأدبية واللغوية فى العالم العربى والإسلامى .

ولا نملك ما نقوله إلا أن نبتهل إلى الله أن يوفق هـــذه الجامعة وخطواتهـا الرائدة فى سبيل الثقافة الإسلامية والعربية ، لتكون فى المستقبل القريب من أهم مراكز العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى ، بعناية الملك المعظم إدريس الأول ، راعى الجامعة وواضع أصولها ، وموجهها إلى خير الإسلام والمسلمين ، حفظه الله ورعاه ، ذخراً لليبيا ولنهضتها .

والله يكلل جهود الجامعة وجهود الجامعات العربية والإسلامية ، فى سبيل حرية الثقافة ، بالفوز والنجاح ، إنه أجل مأمول وأكرم مسئول ؛ وما توفيقنا إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

٤ من جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ

٢٠ من أغسطس ١٩٦٦ م

القسم الأول من الكتاب

الحياة الأدبية في عصر بنى أمية

٤١ — ١٣٢ هـ

— أولا —

الحياة السياسية فى العصر الأموى

قيام دولة بنى أمية وآثاره السياسية والأدبية

— ١ —

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ — ٦٦١ م على مقاليد الحكم ، وشئون الخلافة الإسلامية ، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق فى الشام ، وظلت هى العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م .

ودمشق هى مدينة جلق القديمة التى أشار إليها حسان فى شعره :

لله در عصابة نادمتهم   يوما بجلق فى الزمان الأول

ويكاد يكون الإجماع على ذلك(١) .

وسموا دمشق : جلق الخضراء ، والغوطة ، وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء ، والفيحاء الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ستين ميلا ، وتقوم فى نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون فى التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب .. وهى مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد «بردى» الذى كان اليونانيون يسمونه «نهر الذهب» .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة

(١) ٨ دمشق ، محمد كرد على ، وقيل إن جلق هى كورة غوطة دمشق كلها .

آلاف سنة ، وقد استولى على دمشق فى القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعنة والأرمن .

واقتحمها اسكندر المقدونى ودخلت فى حكم خلفائه ضمن دولة اليونان، ثم صارت أغلى درة فى الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسى ، وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويداً رويداً ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب والشام وبلاد فارس ومصر .

وفتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة – ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها وانتصاره على بنى غسان فى يوم فصحهم ، ورفعه للعقاب راية الرسول فى أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها . فأبو سفيان ابن حرب شيخ بنى أمية وأحد زعماء قريش كان كثيراً ما يفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخارى فى صحيحه .

تولى فتح المدينة كل من أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد ابن أبى سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحاً كلها فى العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول: سلام عليك يا ديار سوريا سلاماً لا لقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بيزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات عام ٢١هـ – ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن أبى سفيان من قبل عمر بن الخطاب . وكان

من قبل يلي ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرا على دمشق عشرين عاما قبل أن يصبح خليفة وقبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بني أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة لخلافته ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاما أخرى ، بدأت بتنازل الحسن ابن علي له عن الخلافة ، وانتهت بوفاة معاوية .

— ٢ —

تولى مقاليد الخلافة في دمشق طيلة العصر الأموي ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامي كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجيء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » . . ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، ومجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر ، هم :

١ — معاوية بن أبي سفيان (٤١ – ٦٠ هـ : ٦٦١ – ٦٨٠ م)(١) .

٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ هـ : ٦٨٠ – ٦٨٣ م) .

٣ — معاوية بن يزيد (٦٤ – ٦٤ هـ : ٦٨٣ – ٦٨٤م) .

٤ — مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ : ٦٨٤ – ٦٨٥ م)(٢) .

٥ — عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ : ٦٨٥ – ٧٠٥ م)(٣) .

٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ : ٧٠٥ – ٧١٥ م) .

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩ هـ : ٧١٥ – ٧١٧ م) .

٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ : ١٠١هـ – ٧١٧ – ٧١٩م) .

---

(١) كان من أعظم ولاته زياد المتوفى عام ٥٣ هـ .

(٢) بدأت في عهده ثورة ابن الزبير السياسية عام ٦٤ هـ واستمرت حتى قضى عليها عبد الملك عام ٧٣ هـ .

(٣) أشهر ولاته هو الحجاج (٤١ – ٩٥ هـ) .

٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ : ٧٢٠ - ٧٢٤ م) .

١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ : ٧١٤ - ٧٤٠م) .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبدالملك (١٢٥-١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م) .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبدالملك (١٢٦ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤م) .

١٣ — مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ -١٣٢هـ:٧٤٤ - ٧٥٠م).

هؤلاء خلفاء بنى أمية ، شموس دمشق وملوكها وحكامها ، طيلة واحد وتسعين عاما هى مدة حكم الأمويين فى العالم الإسلامى .

— ٣ —

وقد بنى الخلفاء فى دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات، والقلاع والحصون ، فاتسع عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطنا رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين ماصارت به كعبة المسلمين فى كل مكان وأعظم مدن العالم وأجملها، ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، وأبان العرب - كما يقول جستاف لو بون - عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية ، ودخلوا فى الإسلام أفواجا ، وتعلموا العربية .

— ٤ —

وكان خلفاء بنى أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التى فتحت عام ٩٢هـ - ٧١١م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التى أقام فيها عقبة ابن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، وصارت منذ إنشائها موطنا من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب ، والشام وبلاد العراق وفارس وخراسان وداغستان

وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣هـ : ٧١٣م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون في الشام على القسطنطينية عدة مرات ، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط : صقلية ، سردانية ، مالطة ، واحتلوا قبرص وكريت ورودس ، وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحر بن عبدالرحمن عام ٩٩هـ - ٧١٧م ، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها ، وقام عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ووصل بجيشه الكبير إلى بواتييه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقي وجيشه الباسل ، في يوم الجمعة ٧من شعبان عام ١١٤ - ٢أكتوبر ٧٣٢ م ، وقتل الغافقي ، وانسحب المسلمون ، وفي هذه الهزيمة يقول أديب فرنسي مشهور هو مسيو كلودفارير : « في سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نكبت بها الإنسانية في القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربي طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هي الفاجعة التي أريد أن أمقت ذكراها ، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقي ، ففي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح السلمي » ... وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ - ٧٠٦م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسمرقند والصغد وغيرها ، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٧١٥م - ٩٦ هـ رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام ، ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك في حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة في عهد سليمان بن عبدالملك ،

ودخلت بلاد النوبة فى حكم المسلمين، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا.

هذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون ، وتركوه تراثا خالدا من تراث المسلمين الروحى والفكرى ، ولا يمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ، التى كافحت من أجل الحضارة والمدنية وتقدم الفكر والثقافة والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة التى سعدت بحكم المسلمين خلال هذه الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

— ٥ —

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تدار على أحدث نظام فى الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشئون العامة، وكان يختار ولاة ينوبون عنه فى إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ — الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة ، وكان يضاف إليه أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير .

٢ — العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان ويقيم الأمير فى الكوفة بعض السنين وفى البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تضاف إلى إمارة العراق أحيانا .

٣ — الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية .

٤ — الشام وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين .

٥ — مصر وأفريقية، وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية، وكانت أفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال لها عن مصر، ولما فتحت الأندلس كانت تابعة لأفريقية، وفي بعض الأحيان كانت تستقل بأمير.

وكان كل أمير يختار كذلك ولاة له على الأقاليم والمدن التي في إمارته، ويتمتع بالاستقلال الإداري في إمارته، يقيم الصلاة بنفسه، وإليه قيادة الجند، وجباية الخراج، والقضاء بين الناس.

ومع عسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة، بوساطة البريد الذي استعمله معاوية وخلفاؤه.

وفي هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التي لا بد منها لضبط شئون الدولة، ومن بينها: ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخـــاتم.

وكانت لغة الدواوين في الولايات المختلفة بلغاتها، إلى أن عربت الدواوين في جميع البلاد الإسلامية، وصارت اللغة العربية هي لغة جميعها، في شتى الأقاليم والإمارات في العهد الأموي.

وقد كثرت الأحزاب السياسية في عصر بني أمية، من أمويين وعلويين وشيعة وخوارج وغيرهم، كما انتشرت بواعث سياسة العصبيات القبلية بين العدنانية والقحطانية وغيرهما.. وذلك مما أدى إلى نشأة الأدب السياسي في هذا العصر..

— ٦ —

وكانت دولة بني أمية تعتز بالعرب وترفع من شأنهم، ولا تنظر إلى الموالي نظرة رعاية أو تقدير، فدولة بني أمية عربية أعرابية (١) وكانت بنو أمية

---

(١) ٢٠٦ / ٣ البيان والتبيين.

لا تستخلف بنى الإماء (١) ولا تبايع لبنى أمهات الأولاد (٢) ، وذلك كله قد نقضته الدولة العباسية التى يصفها الجاحظ بأنها أعجمية خراسانية .

وكذلك حافظ الخلفاء الأمويون على الصبغة والثقافة العربية ، فنشأوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة ، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع ، ويعقدون المجالس الأدبية ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء ، ويكافئونهم بجزيل العطاء وسنى المواهب فوق عطفهم وبرهم بالعرب ، وقصر وظائف الدولة عليهم وحدهم من ولاية وقيادة جيوش وتنظيم دواوين إلى غير ذلك من كبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة .

وهكذا شجعت دولة بنى أمية الجنس العربى وألقت فى يده زمام أمور الدولة ، بعكس بنى العباس .

وقد نمت الحواضر الإسلامية الكبرى كالكوفة والبصرة والفسطاط ومكة والمدينة وسواها من الأمصار .

الأحزاب السياسية وآثارها فى الأدب

١ — كان معاوية رأس الدولة الأموية داهية أريبا حصيفا ، وكان يعتز بأسرته الأموية اعتزازاً كبيراً لتوطيد دولته الجديدة وملكه الناشىء الفتى .

وكان أظهر أعماله أنه نقل الحكم الإسلامى من خلافة شورية إلى ملك مستبد يحرص على تثبيته ودعمه وإعلاء صرحه ، ولو فوق جثث الضحايا وأشلائهم .

واستعان معاوية فى هذا بأسرته من بنى أمية وبنى عبد شمس ، كما استعان بالقبائل العربية المقيمة فى بلاد الشام وحواليها ، والتى أغدق عليها العطاء ، وهو وال لعمر وعثمان على الشام ، ثم وهو يقارع على بن أبى طالب ويجالده

---

(١) ١٨٠ / ٤ العقد .

(٢) ١٨١ / ٤ العقد . وكان الحجاج يسم أيدى النبط بعلامة يعرفون بها (٧ : ١٦٥ الحيوان ط الحلبى) .

بالسيوف فى سبيل الملك ، ثم وهو خليفة وأمير للمسلمين بعد تنازل الحسن ابن على له عن الخلافة .

وعمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها ببعض ، وتحريض بعضها على الآخرين ، وبذلك أحيا العصبية القديمة التى حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم ، كما حاربها أبو بكر وعمر طول عهد خلافتهما رضوان الله عليهما .

لم يكن معاوية يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما إلى أهل بيت الرسول ، ولا بالعرب المقيمين فى الكوفة والبصرة لأن الكثير منهم شيعيون، ولكنه جهد فى استمالة العرب القاطنين فى بلاد الشام وعلى مشارفها، كما جهد فى استمالة القبائل اليمنية ، وتزوج من إحدى بطونها ، من قبيلة كلب ، أم ابنه يزيد ، كما جهد فى استمالة القبائل القيسية وبعض القبائل المضرية إليه .

وفى سبيل ذلك أكثر من الوعد والوعيد ، وبذل الأموال وفرق العطاء ، وأكثر من الاغداق على أهل الحجاز وبخاصة مكة والمدينة لأنهم أصحاب الرأى النافذ بين المسلمين ، وضاعف عطاء الحسن والحسين أضعافا كثيرة فجعله ألف ألف درهم وكان على عهد عمر خمسة آلاف .

وبذلك استتب الأمر لمعاوية الداهية العبقرى ، وكان يقول تصويراً لدهائه وسياسته : والله لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت إن شدوا أرخيت وإن أرخوا شددت .

٢ — ولما مات معاوية لم يخلفه أحد فى الملك يشبهه فى الدهاء والسياسة، فافترق المسلمون وشبت الثورات وكثرت الأحزاب : من شيعة أنصار بيت على فى الحجاز والعراق ، وزبيريين يشايعون آل الزبير فى الحجاز وغيرها ، وخوارج خرجوا على الاستبداد والملك العضوض ، وأمويين يدافعون عن ملكهم ونفوذهم .

ووجد ملوك بني أمية أن لاشيء يعيد إلى دولتهم هيبتها واطمئنانها إلا الاستبداد والعسف والطغيان، فوكلوا بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي يملأ الأرض رعباً وخوفاً وجوراً، ووكلوا بالبلاد الأخرى ولاة يأمرونهم باليقظة والحزم والدهاء والمكر والطغيان.

وهكذا ظلت الدولة تموج بالعصبيات إلى عهد انقضائها، بل إنها كانت السبب الأخير في القضاء عليها وتمهيد الأمر لبني العباس.

٣ — وكان الشعراء يغذون العصبيات ويلقون القصائد الجيدة مشيدة بذكر الأحزاب التي ينتمون إليها ومندددة بمثالب الأحزاب الأخرى، ومن ذلك أن الهاشميين أخذوا يحرضون الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره، جاء في مروج الذهب للمسعودي أن عبيدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال للكميت: «إني قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب» فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بني نزار من ربيعة ومضر وأطنب في وصفهم وفضلهم على بني قحطان وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم، ومن هذه القصيدة قوله:

لنا قمر السماء وكل نجم — تشير إليه أيدي المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزاراً — وأسكنهم بمكة قاطنينـــا
لنا جمل المكارم خالصات — وللناس القفا ولنا الجبينا

وقد ذاع هذا القول في النزارية واليمنية فافتخر كل قبيل بماله من مآثر.. وفي العصر العباسي قال دعبل بن علي الخزاعي ينقض على الكميت قصيدته ويذكر مناقب اليمن ويعرض بل ويصرح بنقائص غيرهم من قصيدة له:

أفيقي من ملامك ياظعينا — كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي — يشيبن الذوائب والقرونا

وما طلب الكميت طلاب وتر ولكننا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى إلى نصر النبوة فاخرينا

وهكذا قامت أحزاب سياسية فى هذا العصر كان لها كبير الأثر فى حياة الدولة ، ومن بينها حزب بنى أمية وحزب العلويين ، وحزب الزبيريين ، وحزب الخوارج ، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه وخطباؤه .

ونشأ عن إحياء العصبيات الممقوتة آثار كثيرة بعضها سياسى وبعضها اجتماعى وبعضها أدبى :

أما الآثار السياسية فقد كثرت الخلافات والثورات والحروب بين العرب بعضهم وبعض وبين العرب والموالى وبين أبناء وفروع الأمويين أنفسهم ، وكثر تبعا لذلك الاضطهاد السياسى لخصوم الدولة .

وأما الآثار الاجتماعية فإنك تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة التفكير الجاهلى على الناس والساسة ، وبذلك انحرف الأمويون بل الناس كلهم عن منهج الإسلام الذى يجعل الناس إخوة متحابين ويفرض على الحاكم العدل والمساواة والحرص على حريات الناس جميعاً .

وأما الآثار الأدبية فقد عادت الفنون الأدبية الجاهلية القديمة إلى الظهور ، من الفخر الكاذب والمنافرات والمفاخرات المرة بين العرب فى مجتمعاتهم الأدبية وعلى الأخص فى « المربد » بظاهر البصرة وفى الكناسة حوالى الكوفة .

تلخيص

وفى إيجاز شديد نستطيع أن نلمح الآثار السياسية لقيام الحكم الأموى فى استقرار السلطان فى أيدى الحزب الأموى الحاكم ، وفى تصارع القوى السياسية فى الدولة فى هذا العصر التى تتمثل فى الحزب الرئيسى وهو حزب بنى أمية وفى الأحزاب المعارضة من علويين وخوارج وزبيريين وسواهم ، وكانت سياسة الدولة عربية خالصة مما أثار حقد الموالى عليها وكراهيتهم لها ، ونجم عن هذه السياسة قيام الثورات السياسية فى عرض البلاد وطولها وعدم استقرار الأمن ، وقيام الدعاية السرية للهاشميين .

وكان لقيام الدولة آثار أدبية أخرى تتجلى فى نشأة الأدب السياسى فى هذا العصر ، وفى تعدد مواطن الثقافة والأدب ، وفى انتشار اللغة وذيوعها ، وفى تعدد مواسم الأدب وحلقاته فى هذا العهد ، وفى إقبال الخلفاء على الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، وإغداقهم الأموال الطائلة عليهم ، وفى تنافس الشعراء فى مدح الخلفاء والقرب من مصادر المال والسلطان .

وقيام الأحزاب السياسية فى هذا العصر أصل كبير تفرعت عنه آثار كثيرة من قيام الشعر السياسى والخطابة السياسية ، ومن تعدد مذاهب الشعراء الفكرية والسياسية ، وقيام الهجاء بينهم وازدهار فن المدح والحماسة ووصف المعارك ورثاء القتلى ، وقد أثمر ذلك كله نهضة الشعر وقوته فى هذا العصر الحافل .

— ثانيـــاً —

عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها

اشتدت فى هذا العصر عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب وتجلت فى مظاهر شتى :

١ — إحياء الأدب الجاهلى ، إحياء للعصبية وبعثالها أو بدافع منها ، وإرواء لغلتهم الأدبية ، وبذل الأموال لعلماء اللغة والأدب فى سبيل ذلك .

٢ — عقد المجالس الأدبية العامة التى تمس الأدب والشعر والنقد ، ويكون حظ كل ذلك من رعايتهم موفوراً .

٣ — كما بذلوا الكثير من عنايتهم فى سبيل المحافظة على اللغة وتدوين النحو ووضع النقط والشكل ونقل دواوين الخراج إلى العربية .

٤ — رعاية الكتابة واتخاذ أعلامها كتابا فى ديوان رسائل الخلفاء .

٥ — تسامحهم مع الشعراء وإطلاق الحرية لهم .

٦ — تشجيع الشعراء ورعايتهم ، جلبا لمدحهم ، ونشرا لمناقبهم ، وتوطيداً لملكهم ، وإحياء لمفاخرهم ومآثر آبائهم . وإغداق العطاء عليهم دون حساب ، واتخاذ الخلفاء شعراء مقربين لديهم .

فقد أعطى عبدالملك أعرابيا وصف ناقته مائة بعير ، وأعطى آخر وصف المطر ألف درهم . وأعطى الوليد بن عبدالملك امرأة وصفت الغيم بعد المحل مائة دينار .. وأعطى سليمان فرسه وما يحمله ويتجمل به لرجل أحسن وصف الفرس ، وأشباه ذلك كثير .

وكان للشعراء النصيب الأوفى من عناية هؤلاء الخلفاء ، لأنهم كانوا أشد

الناس إذكاء للعصبية وتأليفا لقلوب العرب وجما لهم على نصرة بنى أمية ، فكانت لهم أعطيات فى بيت المال كل حسب طبقته ومنزلته وأثره فى مدح الدولة والذود عنها . كل ذلك بينما شعراء بنى هاشم وشيعتهم يستلهمون وحى الشعر من حب أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر مما كانوا يستمدونه من أموالهم وأفعالهم .. ومن هذين المددين : المال والمودة ازدهر هذا العهد بالشعر أكثر مما ازدهر به أى عهد سواه .

كان خلفاء بنى أمية يذكون العصبية العربية بكل ما لديهم من قوة ومال، وكان من أكبر وسائل الاذكاء إحياء ماخلفه العرب من شعر وحكمة وخطب،وكان أكثر هؤلاء الخلفاء من أقطاب العلم والأدب،فكانوا يستقبلون فى كل آونة رؤساء العشائر وخطباءها وشعراءها ومن إلى هؤلاء ممن يؤيدون بهم الملك ، ويؤازرون بهم الجماعة ، ويشدون بهم الأعضاد،وكانوا يستمعون لما يلقيه هؤلاء وما ينقلونه عن أسلافهم من مأثور القول ، ويثيبون عليه ثوابا كريما .

كما كان من الأمراء والرؤساء والقادة والولاة من كانوا يغالون فى هبات الشعراء والخطباء إلى أبعد حد عرف من كرم العطاء .

ومن هؤلاء عبد الله بن العباس ، وعرابة الأوسى ، وطلحة الخزاعى ، والحجاج الثقفى ، وخالد القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وسواهم .

ولا بدع فى ذلك ، فهم عرب يهزهم البيان ، ومنهم من كان يتذوق الشعر ويفهمه وينقده كعبد الملك بن مروان ، فوق البواعث السياسية والاجتماعية والدينية ، التى كانت تدعوهم إلى العناية بالأدب والشعر واللغة .

وقد كان الخلفاء والأمراء وغيرهم يحثون الناس على طلب الأدب والشعر واللغة .

قال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم

إليه كان لكم مالا وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ، وقال شبيب بن شيبة : اطلبوا الأدب فانه مادة العقل ودليل عن المروءة ، وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (١) .

وننتقل إلى تفصيل مظاهر عناية الدولة باللغة والأدب في هذا العصر ..

(١) ذيوع اللغة وقيامها بمطالب الحضارة

— ١ —

علمت مما سبق أن الفتوحات الإسلامية كثرت في العصر الأموى حتى وصلت جيوش المسلمين إلى الهند والأندلس ، وحكم العرب هذه البلاد المفتوحة وأخضعوها لنفوذهم وسلطانهم وصاروا حكامها وأمراءها ونشروا فيها دينهم ولغتهم وآدابهم ونزح العرب إلى هذه البلاد المفتوحة فأقاموا فيها وعمروها وخالطوا أهلها ونشروا اللغة العربية في كل مكان .

وأخذ أهل هذه البلاد المفتوحة يتعلمون العربية ويدرسونها ويتخذونها لغة لهم يتفاهمون بها مع حكامهم وولاتهم من العرب ولم يقفوا عند هذا الحد من التخاطب باللغة والتفاهم بها بل أجادوا العربية ودرسوا آدابها ونظموا الشعر وتفقهوا في شتى العلوم سواء منها العلوم الإسلامية الأصلية أم علوم ومعارف أممهم القديمة المتمدينة التي أذاعوها ونشروها في البيئة العربية الإسلامية الجديدة .

يقول ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام

---

(١) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان .

وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأقطار والممالك ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ، وصارت الألسنة دخيلة فيها وغريبة » .

— ٢ —

ولقد قامت اللغة العربية فى العصر الأموى بمقتضيات الدين والملك والسياسة إلى حد بعيد مما يتجلى لك فيما يأتى :

(١) حولت دواوين الخراج إلى اللغة العربية فى شتى البلاد الاسلامية ، وكانت من قبل تكتب بلغة الاقليم التى هى فيه ، فهى فى العراق بالفارسية ؛ وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية ، فحولت دواوين العراق إلى العربية فى عهد الحجاج وعبد الملك ، كما حولت دواوين الشام من الرومية إلى العربية فى عهد عبد الملك أيضا بعد أن رأى من إدلال كاتبه سرجون ، وكان الذى حولها له فى الشام إلى العربية هو سليمان بن مسرور ، فدب الحزن إلى قلب سرجون حتى لقد قال لمن معه من كتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم ؛ ولما حول صالح بن عبد الرحمن السجستانى للحجاج دواوين العراق إلى العربية(١) ، أراد الكتاب الفرس أن يحولوا بالمال بينه وبين ذلك ، فبذلوا له مئتى ألف درهم على ألا يفعل فأبى فقالوا : قطع الله أصلك من الدنيا بعد أن قطعت أصل الفارسية . وتم منذ ذلك الحين نقل ديوان العراق ، وكان الذى يتولى الكتابة فيه بالفارسية زادان فروخ بن بيرى .

---

(١) وفى العقد الفريد : أن قحذم جد الوليد بن هشام القحذمى هو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية (١١ ج ٣ العقد) .

وأما ديوان مصر فقد حوله عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ، وكان يقوم بالكتابة فيه بالقبطية اثناسا ش القبطى فصرفه عبد الله وأقام مكانه ابن يربوع الفزارى .

(ب) كما قامت اللغة بالتعبير عن ألوان الحياة الجديدة الناشئة على العرب فى دولة بنى أمية فالقصور الباذخة والجيوش الحديدة والغلمان والعبيد والحجاب والقهارم والموسيقى والغناء والجيوش والأساطيل والقلاع والبريد وسك النقود وديوان الخاتم وديوان الرسائل وديوان الجند وغير ذلك من مظاهر الملك وألوان المدنية الجديدة ومشاهد العمران والترف ، قد راض العرب لغتهم على التعبير عنها ، وعما تتطلبه شتى ألوان الحياة ، فلم تعجز اللغة بل نهضت بكل ذلك دون ونات أوفتور ، سواء بما فيها من ألفاظ ومفردات وأساليب وثروة لغوية ضخمة أم بما عربه العرب من الألفاظ الأعجمية . فوضعوا أسماء المسميات الجديدة : بنقل بعض الألفاظ العربية عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى ، أو بالتعبير عنها بالألفاظ المعربة ، فمن ألفاظ فى تمييز الجند وأنواع أسلحتهم إلى مصطلحات الدواوين ، وما تقتضيه الحضارة والعمران والثقافة .

ومن الألفاظ المعربة : الطست والطبق والبلور واللوز والطنبور والفرسخ والبريد والمارستان ، ومنها : الدبابة ، والعَرّادة ، والمنجنيق ، والثغور، والعواصم ، والقصبة ، والولاية ، والحكومة ، والسكة ، والدفتر ، والجريدة(١) .

---

(١) الدبابة : مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن وفيها الجند ، فينقبون وهم فى جوفها . والعرادة : شىء أصغر من المنجنيق . والثغر كل عورة منفتحة والفم والأسنان وما يلى دار الحرب وموضع المخافة من فروج البلدان . والعاصمة المدينة . والقصبة : القصر والمدينة . والسكة بالكسر : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم . والدفتر بفتح الدال وكسرها جماعة الصحف المضمومة . والجريدة سعفة طويلة رطبة أو يابسة أو التى تقشر من خوصها .

(ﺟ) ونهضت اللغة بشتى ألوان العلوم والثقافات وتدوينها دون تقصير أو عجز فبدأت النهضة العلمية والفكرية وقام العلماء بتدوين آرائهم فى شتى علوم الدين والدنيا تساعدهم على ذلك لغة طيعة مرنة واسعة الجوانب .

(د) كما عبرت اللغة عن شتى نظم الملك والسياسة والقضاء والإدارة والأدب والفن حتى ورثنا ثروة ضخمة من آثار هذا العصر الأدبية الرائعة .

(٢) ظهور اللحن والعمل على مقاومته

اللحن ونشوء العامية :

١ — علمت أن العرب فتحوا كثيراً من البلاد والأمصار، ودخل أهلها فى دين الله أفواجا وتعلموا القرآن ودرسوا اللغة العربية وتكلموا بها ، فبدأت اللكنة تظهر فى كلامهم كما بدأ اللحن واضحاً فى نطقهم .

ولا شك أن العربى بمخالطته للدخلاء على العربية ولسانها قد أصابته عدواهم وانتقلت إليه آثار من لكنتهم ولحنهم .

كما أن نشأة أولاد الأمراء والخلفاء والأثرياء بين أمهات أو مربيات أعجميات كان له أثره فى إفساد طباعهم وفطرهم الأدبية الموروثة .

وفى عهد الدولة الأموية ظهر اللحن والعى وفساد الملكات واللكنة حتى كان الخلفاء والأمراء يدفعون هذه العدوى بتربية أولادهم فى البادية وتثقيفهم على يد الأساتذة والمعلمين حتى يتعودوا البلاغة والفصاحة من صغرهم .

وكان اللحن يقع فى محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم .. وقد أسرعوا بوضع اللحن ثم الشكل ثم الإعجام حفظا الألسنة من الفساد والملكات من العى .

٢ — ولم يقع فى العصر الجاهلى لأن الإعراب جزء من لهجة العربى الفصيح لا ينفصم عنها .

كما أنه لم يقع فى عصر النبوة وما بعده من العرب إلا نادراً وذلك لسلامة الملكات وقلة اختلاط العرب بغيرهم وقرب عهدهم بالبداوة . روى أن كاتب أبى موسى الأشعرى كتب عنه كتابا إلى عمر فلحن فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك صوتا ، وكان ما لحن فيه قوله فى أول الكتاب : « من أبو موسى الأشعرى » . ولحن رجل فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل .

نعم وقع لحن من الموالى المسلمين فى عهد النبوة ، كما وقع من سلمان الفارسى وكان يرتضخ لكنة فارسية ، وبلال وكان يرتضخ لكنة حبشية وصهيب وكان يرتضخ لكنة رومية ، ولكن عذر هؤلاء واضح لأنهم حديثو عهد بالإسلام واللغة ، وشتان بين هذا وبين ما وقع فى العصر الأموى .

٣ — ومن اللحانين خالد القسرى وكان متقدما فى الخطابة ومتناهيا فى البلاغة فخرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة وهو على المنبر فقال : أطعمونى ماء(١) وكانت أمه نصرانية .

ومن اللحانين أيضاً الوليد بن عبد الملك أشفق عليه أبوه فلم يرسله إلى البادية فتربى فى دمشق وتعلم العربية صناعة فعرض لكلامه اللحن فهو مع بلاغته يقول لأبيه : اقتل أبى فديك ، ويقول لغلامه : رد الفرسان الصادان ، ويقرأ : يا ليتها كانت القاضية برفع القاضية ، ويقول عبد الملك : أضرّ بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية(٢) .

ومن اللحانين أيضاً عبيد الله بن زياد وكانت فيه لكنة لأنه نشأ بالأساور مع أمه مرجانة . قال مرة : افتحوا سيوفكم فقال : يزيد بن مفرغ :

---

(١) ١٧ ح ١ الكامل للمبرد (٢) ١٥٤ ح ٢ البيان والتبيين

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

٤ — ويقول عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، وقال غيره : تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض ، ويقول غيره : تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف . وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرون منه ويعدونه عيبا كبيراً ، حتى لقد قال عبد الملك : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن وأول لحن ، سمع بالبادية : هذه عصاتى ، وأول لحن سمع بالعراق : حى على الفلاح .

وقد وقع اللحن الكثير فى هذا العصر ، يقول رؤبة وأبو عمرو بن العلاء إنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن البصرى والحجاج ، وغلط الحسن فى حرفين من القرآن ، كما نسب للحجاج لحن فى بعض المواطن .

وأمثلة اللحن واللكنة كثيرة ، ويقول المبرد فى اللكنة : هى أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية (١) وتكون من العجم ، ومن نشأ من العرب مع العجم كما يقول الجاحظ (٢) ، ويقال : فى لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول (٣) ، فهى العجز عن وضوح اللهجة وصحة مخارج الحروف .

وبعد فإن آثار اختلاط العرب بالعجم قد ظهرت فى الألسنة فى مظاهر كثيرة هى : اللحن واللكنة ، وضعف الملكة والطبع ، وقد عملوا على مقاومته ، فوضعوا النحو والشكل والإعجام .

(١) ٣٦٩ جـ ١ الكامل
(٢) ٦٩ جـ ١ البيان
(٣) ٤٨ جـ ١ البيان

(٣) الحفاظ على العربية

كان لاختلاط العرب بالعجم والموالى أثره فى الألسنة حيث ظهر اللحن واللكنة وضعفت الملكة والطبع .

وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرونه للغاية ، حتى قال عبد الملك بن مروان : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن .

وللاحتراز عنه وضعوا النحو والشكل والإعجام .

وضع النحو :

أما النحو فهو العلم الذى يرشد إلى معرفة حركة آخر الكلمة . وقد كان ذلك ضروريا للسان العربى بعد أن دب اللحن إلى الملكات والألسنة ، ولقد كان العرب فى جاهليتهم يعتمدون على سليقتهم السليمة وفطرتهم العربية الصادقة ، فلم يقع منهم لحن ، ولكن اختلاط العرب بالعجم والموالى بعد الفتوحات الإسلامية جعل وضع النحو ضرورة لابد منها للمحافظة على القرآن الكريم ولغته الشريفة .

والناس يختلفون فى الداعى الذى حفز القدماء إلى وضع النحو ، وفيمن وضعه اختلافا كثيرا ، مما سنفصل القول فيه .

أما سبب وضع النحو ففيه روايات كثيرة :

١ — قيل إن معاوية كتب إلى زياد يطلب عبد الله ابنه فلما قدم عليه وجده يلحن فرده إلى زياد وكتب إليه كتابا يلومه فيه على ذلك فبعث زياد إلى أبى الأسود وطلب منه أن يضع شيئا يصلح الناس به كلامهم ويعرفون كلام الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود فوجه زياد رجلا وقال له اقعد فى طريق أبى الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن . فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته وقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فاستعظم

ذلك أبو الأسود وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت .

ب — وقيل إن أبا الأسود كان يعلم أولاد زياد وهو والى العراقين يومئذ فجاءه يوما وقال له : أصلح الله الأمير إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم أفتأذن لى أن أضع للعرب مايعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد وقال:أصلح الله الأمير توفى أبانا وترك بنون ، فقال زياد : أدع لى أبا الأسود ، فلما حضر قال : ضع للناس الذى نهيتك عنه .

ج — وقيل إن ابنة لأبى الأسود تحدثت إليه فقالت : ياأبت ما أحسن السماء ؟ فقال نجومها . فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها قولى : ما أحسن السماء ! ثم غدا على على رضى الله عنه فحدثه حديث ابنته وقال : إنى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء ، فأملى على رضى الله عنه بعض قواعد الكلام وقال له : انح هذا النحو ، فكان ابو الأسود كلما عقد فصلا راجعه فيه أمير المؤمنين فأقره أو هذبه .

د — وقيل إن أبا الأسود دخل على على رضى الله عنه فوجد فى يده رقعة حمراء فقال له ما هذه ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ثم ألقى الرقعة إلى ابى الأسود فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف،فالاسم ما أنبأ عن المسمى،والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو واضف إليه ما وقع إليك ، واعلم ياأبا الأسود أن الأسماء كلها ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لاظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأرد بذلك المبهمات ، قال ابو الأسود ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن واخواتها فلم أذكر لكن فلما عرضتها على على عليه السلام أمرنى بضم لكن إليها ، وكنت

كلما وضعت بابا عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت .

وقيل إن أبا الأسود هو الذى ابتكر التقسيم الأول للكلام وأراه عليا عليه السلام فأقره .

هـ — ويروى أيضا أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه رجل سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى فدعاه فقال يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا أمير المسلمين إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى ؟ فاقرأنى هذا سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله فقلت له أوقد برىء الله تعالى من رسوله إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر رضى الله عنه ليس هكذا يا أعرابى فقال كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله.فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ عن برىء الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو (١)

وأما واضع النحو ، فأغلب الروايات متضافرة على أنه أبو الأسود الدؤلى العالم الخالد المتوفى عام ٦٩ هـ ، سواء كان هو الذى ابتكره من نفسه أم أن الإمام على بن أبى طالب أرشده إلى الأساس الذى يبنى عليه .

---

(١) نزهة الألبا ص ٧ وما بعدها .

ويقول عبد القادر البغدادى فيه : وهو واضع علم النحو بتعليم على رضى الله عنه (١) .

وكان أبو الأسود غاية فى الذكاء والحذق والعبقرية وكان من سادات التابعين وصحب على بن أبى طالب وشهد معه صفين ثم أقام فى البصرة واتصل بزياد فكان أثيرا لديه وتوفى عام ٦٩ هـ .

وبعد فسواء كان أبو الأسود وضع النحو بنفسه أم أن عليا وضع له الأساس فبنى هو عليه ، فإن لأبى الأسود فضلا عظيما خالدا فى هذا المجال ، وكان أبو الأسود يقيم بالبصرة ، فأخذ عنه تلاميذ كثيرون منهم : نصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل . وميمون الأقرن . وكلهم من البصرة . وعن هذه الطبقة أخذ الخليل ثم سيبويه الذى كان من أساتذته الخليل وعيسى بن عمر والأخفش الأكبر ، ولما كانت نشأة النحو فى البصرة على يد أبى الأسود وتلامذته فقد نشأ بصريا ودرس فى مساجدها ورجع علماؤه إلى اللهجات العربية حول البصرة ، ولم تنبغ الكوفة فى النحو إلا بعد العصر الأموى فظهرت فيه طبقة الكسائى والفراء ويونس ممن أخذوا عن أبى عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين ، ويعتمد البصريون اعتمادا كبيرا على القواعد المستنبطة من القرآن والحديث وفصيح الشعر وما خالف ذلك يعتبر ساقطا ، أما الكوفيون فكانوا يدونون كل ما خالف لغة قريش من لغات القبائل الأخرى ويعتبرون ذلك فرعا من اللغة وكانوا يعتبرون ما خالف الفصيح شواذ لا تقبح فى الإستعمال .

ومهما يكن من شىء فإن بدء تدوين النحو والكتابة فيه وانتشار مذهب البصريين النحويين ودراسته إنما كان فى عهد بنى أمية .

---

(١) خزانة الأدب جـ ١ صـ ٢٥٦

وضع الشكل :

ونريد بالشكل : الحركات وهي علامات الضم والفتح والكسرة ، والسكون .

ولم يكن في اللغة العربية في العصر الجاهلي ولا في صدر الإسلام شكل. فلما انتشر الإسلام واتسعت الفتوحات واختلط العرب بالعجم ، وخيف على القرآن الكريم واللسان العربي من آثار اللحن ، وضع النحو ، فكان عملا جليلا من أبي الأسود .

ولكن النحو لم يصد هذا السيل المتدفق وتلك العدوى المفسدة ، لأن فائدته اقتصرت على الدارسين والباحثين والمتعلمين فقط ، أما أكثر الناس وجمهورهم فلم يكن يعصمهم من اللحن عاصم واحتيج إلى أمر أكثر من النحو فائدة وأسرع حفظا لألسنة الناس من الخطأ في قراءة القرآن الكريم .

لذلك كلف زياد والى البصرة من قبل معاوية أبا الأسود الدؤلي أن يضع طريقة لإصلاح اللسان لأن الحمراء (١) قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، قال زياد لأبي الأسود : فلو وضعت لنا شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله ، فقال أبو الأسود أو أزيد على المصحف شيئا لم يرده السلف !! فقال زياد لقد كتب عثمان المصاحف وما كانت مكتوبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من شيء تعلمه وفيه صلاح للمسلمين إلا وهو خير كله ، فأبى أبو الأسود وقال: أولى بذلك غيري . وأحب زياد أن يحمل أبا الأسود وأن يحفزه إلى العمل فأرصد له في طريقه من يرفع صوته بالقرآن ويلحن فيه ففعل الرجل وقرأ (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله برىء من المشركين ورسوله (بكسر اللام)

(١) هم الأعجام .

فحزن لذلك أبو الأسود وعاد من فوره إلى زياد وقال له: لقد نظرت فرأيت أن من الخير أن أجيبك إلى ماتطلب فابغنى كاتبا فأرسل إليه زياد ثلاثين كاتبا اختارهم فاختار منهم أبو الأسود أفضلهم وقال له: خذ صبغاً أحمر فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه وإذا كسرت فانقط واحدة أسفله وإذا ضممت فاجعل النقط بين يدى الحرف فإذا أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين وأخذ يملى ، والكاتب يكتب وهو يتفقده حتى أتم المصحف .

ولم يضع أبو الأسود علامة للسكون مكتفيا بأن إهمال الشكل هو السكون وانتشرت طريقة أبى الأسود ، وزاد فيها الناس علامة للتنوين فوضعوا عليه نقطتين واحدة فوق واحدة ، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين ووضعوه فوق المشدد المفتوح وتحت المكسور وعن يسار المضموم ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس والكسرة تحت حدبته ، والضمة على شماله ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة .

وزاد أهل البصرة السكون فجعلوا السكون جرة أفقيه فوق الحرف منفصلة عنه هكذا (—) .

ولم تتداول طريقة أبى الأسود إلا فى المصحف الشريف ، فلم تتجاوزه إلى غيره ثم جاء الخليل بن أحمد فى عهد الدولة العباسية فغير صور الشكل وجعله على هيئة قريبة مما هو عليه الآن .

وضع النقط :

كانت الحروف العربية خالية من النقط فالصاد والضاد ، والدال والذال ، والراء والزاى كل منها تكتب على صورة واحدة من النقط والإعجام.

فاحتيج إلى تمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض فجعل بعضها

منقوطا بنقطة أو نقطتين أو ثلاث والبعض الآخر خاليا من النقط وذلك هو الإعجام ، فهو « تمييز الحروف المتشابهة بالنقط منعا للبس بينها » ، والإعجام من أعجمت الحرف إذا أزلت عجمته وبينته ولهذا تسمى حروف الهجاء العربية حروف المعجم ، وقد يخصص الإعجام بالحرف المنقوط إذا شاركه فى صورته الخطية حرف آخر مهمل فيقال خاء معجمة وحاء مهملة .

واختلف فى الزمن الذى وضع فيه الإعجام ، فالبعض يقولون إنه كان فى الجاهلية للأدلة الآتية :

١ — عثر على كتب قبل زمن عبد الملك بن مروان فيها إعجام بعض الحروف

٢ — روى عن ابن عباس أن عامر بن جدرة هو الذى وضع الإعجام .

٣ — على أنه لا يعقل أن تبقى الحروف العربية على صورة التباسها هذا إلى عهد بنى أمية فان ذلك يؤدى إلى الإفساد واللبس فى الكلام .

ويقول آخرون إنه وضع فى عهد معاوية .

ويقول سواهم إنه وضع فى عهد عبد الملك بن مروان ، ويروى أن الذى وضع الإعجام نصر بن عاصم وتبعه غيره فأتمه وانتشر بأمر الحجاج . قيل أزعج الحجاج ما كان يحدث من لبس فى تمييز حروف القرآن (١)

---

(١) كانوا يقرأون « ختار كفور » « جبار كفور » ، ويحرفون أشاء إلى اساء ، وعزة إلى غرة ، و « إياه » فيجعلونها أباه .

وفى ابن خلكان :

« ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المختلفة علامات تميزها بعضها عن بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط افرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها فعبر الناس بذلك أزمانا لا يكتبون إلا منقوطا » .

ففزع إلى كتابه ليضعوا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض ، وندب لذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود ، فنقطوا المصحف بصبغ من لون المداد الذى استعمل فى كتابة المصحف ، أما نقط الشكل فبقيت بالمداد الأحمر كما صنع أبو الأسود الدؤلى .

ويقال إن النقط كان موجودا من قديم ولكن الناس أهملوه فظهر التصحيف فى القرآن حتى فزع الحجاج إلى نصر بن عاصم فوضع الإعجام .

(٤) بدء تدوين العلوم

تمهيد :

فى العصر الجاهلى لم تدون علوم ولا ثقافات لأمية العرب وبداوتهم وبعدهم عن الحضارة والعلوم والمعرفة .

وفى عصر صدر الإسلام جمع القرآن الكريم أول مرة فى عهد أبى بكر ، فكان أول كتاب يكتب فى تاريخ العرب ، وشغلتهم الفتوحات وحرصهم على المحافظة على القرآن الكريم ودفع اللبس عنه عن التدوين كما صرفهم عنه قرب عهدهم من البداوة .

فلما جاء العصر الأموى دعا المسلمين إلى تدوين العلوم دواع كثيرة وساعدهم على ذلك :

١ — بدء تحضرهم والحضارة تستلزم العلم دائما .

٢ — قربهم من الأمم المتحضرة ذات الثقافات القديمة كالفرس والروم ووصول بعض آثار حكمتهم وفلسفتهم وتاريخهم إلى المسلمين مكتوبة .

٣ — وجود عناصر كثيرة — تعرف نظام التدوين — داخل الدولة الإسلامية ، كالسريان والفرس وسواهما من العناصر الرومانية والإغريقية .

٤ — انتشار الكتابة بينهم .

٥ — حاجتهم إلى حفظ الشريعة وكتابها وعلومها .

٦ — حاجتهم إلى المعارف القديمة سواء فى الطب أم فى الفلك أم فى غير ذلك من ألوان المعرفة .

٧ — حاجتهم إلى العلوم المختلفة فى حفظ نظام الملك وسياسته ، ورغبتهم فى الوصول بدولتهم إلى حد بعيد ، من الحضارة والرقى والثقافة ، يحفزهم على ذلك القرآن الكريم ودينهم المجيد .

وكانت مراكز الثقافة الإسلامية فى هذا العصر كثيرة ، وأهمها المدينة ومكة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط .

وكان بظاهر الكوفة « الكناسة » وبظاهر البصرة « المربد » وهما سوقان أدبيان وعلميان رائجان ، وكان المربد مألف الأشراف(١) ، وسنتكلم عليه بعد قليل .

وسنحدثك عن أهم ما دون فى العصر الأموى من العلوم :

١ — التفسير ، وقد رويت فيه روايات كثيرة عن رسول الله والصحابة رضوان الله عليهم وكانوا يتناقلون ذلك ، وأول تفسير دون هو تفسير ابن عباس رحمه الله المتوفى عام ٦٨ هـ فى الطائف وطبع فى مصر فى المطبعة الأميرية عام ١٢٩٠ فى سفر واحد ، وهو مجموع روايات دونها ابن عباس .

ويتصل بالتفسير قراءات القرآن وقد كثرت العناية بها فى العصر الأموى

---

(١) ٢١٠ / ٣ العقد ، وروى عن الجارود قال : عليكم بالمربد فانه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر ويجمع بين ربيعة ومضر (٢٢٣ / ١ البيان والتبيين للجاحظ) .

الذى عاش فيه كثير من القراء كابن كثير م ١٢٠ هـ وعاصم م ١٢٨ هـ ويزيد ابن القعقاع م ١٣٢ هـ .

هذا وللشيعة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن على بن الحسين ، ويقال: إن أول من دون فى التفسير مجاهد م ١٠٤ هـ وتفسيره غير موجود .

ولم ينضج هذا العلم إلا فى العصر العباسى .

٢ — الحديث : لم تكن تدون أحاديث رسول الله فى عهده ولا فى عهد أصحابه .

فلما كثرت الفتوحات والحروب الإسلامية وكثرت الثورات والأحزاب السياسية والفرق الدينية ووضع بعض الناس أحاديث على رسول الله ، ويقال إن المهلب بن أبى صفرة كان يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج(١) .

أخذ المسلمون فى التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، واشتهر من المحدثين فى عصر بنى أمية : عاصم بن سليمان م ١٤١ هـ بالكوفة ، وخالد الحذاء مولى قريش المتوفى عام ١٤١ هـ ، وشعبة بن الحجاج م ١٦١ وسواهم.

وأمر عمر بن عبد العزيز — بعد أن استخار الله أربعين يوما — ابن شهاب الزهرى أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فتم ذلك ، وبعث بنسخ منها إلى الأمصار .

٣ — النحو وقد سبق ذكر أمر وضعه وتدوينه وقد وضع الحضرمى كتابا فى الهمز .

٤ — الشعر الجاهلى ، أخذ الرواة والمؤدبون فى رواية الشعر الجاهلى وتدوين آثار منه ويقال إن أول من جمعه حماد الراوية ، ثم ألف فيه بعد ذلك المفضل كتابه « المفضليات » .

(١) ابن خلكان ٢ / ١٤٦

٥ — التاريخ ، ويقال إن معاوية استكتب رجلا من أهل اليمن اسمه عبيد بن شرية الجرهمى . بعض أخبار الأوائل فكتبها له . فكان هذا أول كتاب دون فى التاريخ وعنى الأمويون كذلك بعلم الأنساب .

٦ — الفقه ، وقد اشتغل به فى العصر الأموى جلة الصحابة والتابعين ، ويقال إن زيد بن على بن الحسين أملى كتابا فى الفقه وأنه أقدم كتاب فى هذا العلم فى الإسلام .

٧ — أما أصول الدين فيقال إن واصل بن عطاء ألف كتابا فى المرجئة وآخر فى التوبة وآخر فى معانى القرآن .

٨ — وألف يونس بن حبيب كتبا فى الأغانى دون فيها أصول الألحان عن معبد وابن سريج .

٩ — وترجموا فى الطب والكيمياء ، فقد رأى عبد الملك بن مروان وهو أعلم الأمويين بالأدب وأفقههم فى الدين أوراقا فى الكيمياء نقلها خالد بن يزيد (٨٩ هـ) فقال له أف لك أنسب الملوك وحمة الموالى ؟ وكان خالد قد عنى بالكيمياء والطب وقيل إنه درس كتبهما عن رجل من السريان يدعى مريانوس وأنه أمر اسطفان القديم بترجمة هذه الكتب إلى العربية .

وبعد فلم تكن العلوم المدونة فى هذا العصر إلا مجموعة روايات لاأثر للتحقيق والدرس والبحث فيها ، ولكن لاضير من ذلك ، فقد كانت النواة الأولى لتدوين العلوم فى الإسلام .

وعلى الجملة فقد كان العرب ينظرون إلى تدوين العلوم نظرتهم إلى صناعة الحضر والموالى الصغيرة التى لايصح لهم أن يحترفوها ، ويأنفون من صناعة التأليف لأنها صناعة الموالى على أيامهم وفى رأيهم .

(٥) الحياة الثقافية فى ظلال الأمويين

— ١ —

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربى والثقافة الإسلامية حيثما تسير الفتوحات الإسلامية ، فحيثما يفتح المسلمون البلاد ، تقيم فيها حاميات من جند المسلمين ، وعلى هذه الحاميات قواد من العرب ، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد ، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش ، وبجانبهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية ، وتذيع الأدب العربى ، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية فى الذيوع بين سكان البلاد الأصليين بيواعث الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة ، ويقبل من يدخلون فى الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب ، والتأدب بآدابهم ، وحفظ أشعارهم ، وتعلم علومهم ، ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب فى كثير من البلاد المفتوحة ، وقامت مواطن الأدب فى المملكة الإسلامية المترامية الأطراف التى كانت تستظل بظل الأمويين ، وتتجه إليهم فى كل مناسبة ، وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين .

— ٢ —

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة ، ولعل السبب فى ذلك كثرة أبناء الموالى فى الحجاز وكثرة الترف فى مدن الحجاز ، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقتهم ، ويروى أنه كان لمغنى مكة مذهب فى الغناء ، ولمغنى المدينة مذهب كذلك ، وكان بين الفريقين مفاخرات .

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصى والعذرى ، وقل هنا الهجاء والمدح ، وكان من شعراء مكة : عمر والعرجى وابن قيس الرقيات

وأبو العباس الأعمى ، كما اشتهر فى المدينة الأحوص وإسماعيل بن يسار وإخوته ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعبد الرحمن بن الحكم .

واشتهرت بوادى الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذرى . .

وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار ، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين ، وفيها زعماء البيت العلوى : الحسن والحسين ، وأبناء الخلفاء من أمثال : عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن أبى بكر ، وفيها أمثال عبد الله بن الزبير وسواهم من الطامعين فى الخلافة والمناوئين للأمويين ، وقد استعمل الأمويون مع المعارضة فى الحجاز سوط الرهبة والفزع ، وبذروا هناك الأموال الضخمة ، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين فى عهد عمر خمسة آلاف درهم فى العام صار عطاء كل منهما فى عهد معاوية ألف ألف درهم .

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام ٦١ هـ - ٦٨١ م ، وقتل الحسين فى كربلاء من أرض العراق ، واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها فى موقعة الحرة المشهورة .

وحكم عبد الله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودى فيها بلقب الخلافة ، وذلك من عام ٦٤ هـ - ٦٨٤ م حتى ٧٣ هـ - ٦٩٢ م ، وحاصره الحجاج فى مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصاره ، وكان له فضل كبير فى تعمير الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام ٦٥ هـ

وكانت مجامع المدينة أرق المجامع الثقافية فى العالم الإسلامى وأحفلها بالشعر الغنائى ، وكانت لها شهرة بالترف والغناء واللهو المباح .

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسى وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التى قضى عليها الأميران : زياد بن أبى سفيان المتوفى عام ٥٣ هـ - ٦٧٣ م ، والحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى عام ٩٣ هـ - ٧١٢ م ، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش .

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموى الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام .

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموى ، وتنازعها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، ولكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل .

وقد امتازت العراق بنشاط الأحزاب السياسية فيه ، وكثرة الفرق الدينية ، واشتهرت مجامع العراق بالتبريز فى علوم اللغة ، وذلك :

١ — لشدة الاحتياج إليها فى العراق، لفساد الملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالى بين ربوعه .

٢ — تعدد العناصر والثقافات والأفكار والأجناس فى العراق وامتزاجها.

٣ — كان العراق موطن السريانية . وكان للسريان قواعد فى منظمة اللغة والنحو .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة فى الأدب والعلم ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها فى العمران ، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايته .

ومن أشهر مجامع الأدب والشعر فى العراق : مربد البصرة ، وكناسة الكوفة .

— ٣ —

وكانت أهم مواطن الأدب والثقافة فى عصر بنى أمية هى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط :

١ — أما مكة : فهى البلد الحرام ، مولد رسول الله ، ومهبط الوحى ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ، وكان معاذ من

أفضل شباب الأنصار علما وحلماً ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام ١٨ هـ في الشام .

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه والفتيا « طبقات ابن سعد ، مجلد ٢ » .

ومن علماء مكة : عبد الله بن عباس ، وكان يجلس في البيت الحرام ، يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، وهو وتلامذته يرجع إليهم الفضل في شهرة مكة العلمية وتوفى عام ٦٨٨ م .

ومن علمائها : عطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبير ، وثلاثتهم من الموالى ومن التابعين .

وكذلك كان من علمائها من التابعين ومن الموالى من الطبقة الخامسة بها : سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجى وكانا من أساتذة الشافعى الذى ولد في غزة ، وحملته أمه صغيرا إلى مكة ، فتعلم الأدب في باديتها ، وحفظ الشعر ، وتعلم العربية ، ونشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها .

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء ، ولاسيما في مواسم الحج ، كما كانت تعقد في المسجد الحرام ، روى المبرد في كامله (١) أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين ، حتى دخل المجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التى فتح بها عمر صفحة جديدة في تاريخ الغزل ، ونقله من مظهره التقليدى إلى

(١) ١٤٤ و ١٤٥ جـ ٢ الكامل .

لون قصصي جديد كل الجدة عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينشد :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح متهجر ؟

حتى أتى على آخرها ، فأقبل نافع على ابن عباس ، وقال له : يا ابن عباس إنا نضرب إليك أكباد الإبل . نسأل عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   (فيخزى) ، وأما بالعشى (فيخسر)

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة كلها .

٢ ـ وأما المدينة : فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدها اللماح ، من لدن الجاهلية ـ حتى كان النابغة يقول : « دخلت المدينة وفى شعرى عهدة ، وخرجت منها وأنا أشعر الناس » وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وكان له شعراء ينافحون عن دعوته ، ويذودون عن رسالته ، وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة؟ قال: وأنا . وابن سلام الجمحى حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر فى هجاء قريش خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان،

وهو ينشد شعره فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان دعنى من هذا ياعمر ، فوالله لقد كنت أنشد فى هذا المكان من هو خير منك فلا يغير على شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائما لواء المعارضة للحاكين ، وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنابز وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه مايعيبون من رديئه ، ويستحسنون من جيده . يروى أن عمر بن أبى ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا فى ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرنى ياهذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتد فى أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر (١)

أتراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر ، إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع . ألا قلت كما قال الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لا بد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء . فأقبل كثير على

---

(١) اسبطرت : أسرعت . تشتد : تعدو .

الأحوص وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :

فإن تصلى أصلك وإن تبيني ... بهجر بـعد وصلك لا أبالى

أما الله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقل إن تملينا فما ملك القلب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرني عن قولك :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت ... فواكبدى من ذا يهيم بها بعدى ؟ (١)

أهمك ويحك من يهيم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرني عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعز من غير ريبة ... بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب (٢)
كلانا به عر فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدى وأجرب (٣)
إذا ماوردنا منهلا صاح أهله ... علينا فما ننفك نرمى ونضرب
وددت وبيت الله أنك بكرة ... هجان ، وأنى مصعب ثم نهرب (٤)
نكون بعيرى ذى غنى فيضيعنا ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ .

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة

---

(١) أنشد البيت فى مجلس عبد الملك فنقده وقال : الجيد أن يقول :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

(٢) نعزب : نبعد فى المرعى .

(٣) العر بالضم والفتح : الجرب .

(٤) البكرة الناقة الفتية ، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة . المصعب الفحل الذى يترك فلا يركب .

حاكم ولا يرهبون قوة ظالم ، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون . . ومن هنا كانت عينا ثرة بالشعر ، ومنبعا فياضا بالأدب ، لا يغيض ماؤه ، ولا يحول رواؤه .

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة ، فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام ، وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه ، وكان بها كثير من الموالي الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت (١) ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣ — ٩٤ هـ) من التابعين ، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور .

ومن علمائها : صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز بن مروان . . ومن علمائها كذلك : ابن شهاب الزهري القرشي (٥١ — ١٢٤ هـ) .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدي (٢) ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسير والمغازي ، وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة في عهد الراشدين ومجتمع الموالي الذين سبوا من مختلف البلاد الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة . وممن برعوا في النادرة والفكاهة في المدينة : الغاضري وأشعب ، وفي الغناء معبد .

---

(١) يروى أنه ما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا في القضاء والفتيا والفرائض والقراءات ، وظل كذلك في عهد علي ومعاوية وتوفي عام ٤٥ هـ ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول . هكذا يفعل بالعلماء .

(٢) توفي عام ١٠٧ هـ وله « أخبار مكة » و « فتوح الشام » .

٣ — وأما البصرة والكوفة : فهما أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهر من قديم بالحضارة ؛ تداولت عليه أمم كثيرة متمدنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غنى خصب كثرت مياهه وخيراته ، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد عمر بن الخطاب (١) ونزل بهما كثير من الصحابة واختلط فيها العرب بالموالى بالتزاوج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبي وسعيد بن جبير من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعرى ٧٠ هـ وأنس بن مالك من الصحابة م ٩٢ هـ ، ثم الحسن البصرى م ١١٠ هـ وابن سيرين م ١١٠ هـ من التابعين. واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ في علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة في ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو ابن العلاء . والخليل بن أحمد ، والأصمعى ، واشتهر من الكوفيين الكسائى ، وكان بين المدينتين تنافس في اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام ، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إيثارا للسماع ، وكان يعيش في البصرة الفرزدق وجرير ، وفي الكوفة الكميت بن زيد الأسدى وذو الرمة .

٤ — وأما الفسطاط : فكانت في مقدمة المـــدن الإسلامية التى ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لهيعة (٩٦ - ١٦٠ هـ) وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يقرنون بمالك وأبى حنيفة لولا أن تلاميذه

(١) اختطت البصرة عام ١٤ هـ ، ولم تعمر إلا عام ١٧ هـ ، واختطت الكوفة في هذا العام ١٧ هـ .

أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعى ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد. ومن علمائها كذلك نافع م ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء: جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم، وأقام فيها أبو العيال الهذلى م ٤٦ هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر فى ظلال الحكم الإسلامى عام ٢٠ – ٦٤٠ م بفضل عمرو بن العاص (٤٧ق هـ – ٤٣ هـ ٦٦٣ م) ، وقد فرغ ابنه عبدالله بن عمرو ابن العاص (٢٦ ق هـ – ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير ، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائبا عن ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان من هؤلاء من بيت بنى أمية : عبدالعزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) ، وعبدالله بن عبد الملك الذى وليها عام ٨٦ – ٧٠٥ م وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمرا باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تعلم العربية ، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجا . وفى عام ٨٦ هـ حولت دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبدالله بن عبدالملك بن مروان الذى ولى مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى قبل عام ١٠٩ هـ .

ومن علماء مصر فى هذا العهد ، أبو عبيدة المغافرى ، ونافع المتوفى عام ١٢٠ هـ ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهلها السنن ، وعبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى عام ٦٨ هـ ٦٨٨ م ، والليث بن سعد (٩٤–١٧٥ هـ) وابن لهيعة (٩٦ – ١٦٠ هـ)

ووفد على مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث وكثير وابن قيس الرقيات وأيمن بن خريم .

٥ — وأما دمشق : فهى عاصمة الأمويين ومنارة العلم والثقافة والأدب ومقصد الناس من كل حـــدب وصوب ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو حرصا على مال الخلفاء والأمراء .

وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقى .

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيى الشام وتوفى عام ٨٩ هـ . ويقول الجاحظ فيه : كان خطيبا شاعرا كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة : وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات (١) .

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو .

وكان عدى بن الرقاع يعيش فى الشام .

وكان فى الشام : معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعى ورجاء بن حيوة وسواهم .

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامى بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية . (٢) .

---

(١) ٩٣ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .
(٢) مصادر البحث :
دائرة المعارف الإسلامية فى الكلام على : مصر ، الفسطاط ، البصرة ، =

(٦) سوق المربد وأثره الأدبي

— ١ —

لمربد (١) البصرة أثر غــــير قليل في اللغة والأدب والشعر في العصر الأموي ، ولا بأس بالإطالة هنا في حديثه .

= الكوفة ، الشام ، دمشق الخ . معجم البلدان لياقوت ـ خطط المقريزي ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ـ فجر الإســـلام الجزء الأول ـ الحضارة الإسلامية لمحمد كرد علي ـ النقائض ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ قصة الأدب في مصر ، وهما للخفاجي ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الثاني للشيخ محمد الخضري ـ أخبار مكة الأزرقي ـ مروج الذهب للمسعودي ـ خطط الكوفة لماسينيون شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي بتعليق الخفاجي وعبد الله عبد الجبار ـ قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار والخفاجي .

(١) هو على وزن منبر ومقود من ربد بالمكان إذا أقام فيه ، وفي الحديث أن موضع مسجد رسول الله كان مربدا ليتيمين في حجر معاذ بن عفراء فجعله للمسلمين فبناه الرسول مسجداً ، وفي شعر الفرزدق :

عشية ســــال المربدان كلاهما   عجاجة موت بالسيوف الصوارم

ثناه مجازا لما يتصل به من مجاورة ، وقد يجوز أن يكون سمى كل واحد من جانبيه مربدا ، وقال الجوهري : عنى به سكة المربد بالبصرة ، والسكة التي تليها من ناحية بني تميم ، جعلهما المربدين ، كما يقال الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن الأحوص . هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤ .. ويلاحظ أن في العبارة خطأ مطبعيا في أول سطر من الصفحة المذكورة ، حيث وردت العبارة هكذا : سماه ، وصحتها : ثناه .

هو ضاحية من ضواحي البصرة ، في الجهة الغربية منها مما يلي البادية بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا عامة ، قال الأصمعي : « المربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . وبه سمي مربد البصرة (١) ، وإنما كان موضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه (٢) .

وفي اللسان — في مادة ب ص ر — وقال ابن شميل : البصرة أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها ، فكأن المربد كان موجوداً في الجاهلية .

وأخبار المربد في الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق ، وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » . وقد كان المربد في الإسلام — كما يقول أحمد أمين — صورة معدلة لعكاظ الذي كان سوقاً للتجارة ، وكان سوقاً للدعوات السياسية ، وكان سوقاً للآداب — جاء في كتاب « ما يعول عليه » : المربد كل موضع حبست فيه الإبل . ومنه سمي مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه — كان يجتمع العرب من

---

(١) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ومربد الإبل : محبسها ، وقال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : المربد فضاء وراء البيت يرتفق به ، ومربد التمر جرينه الذي يوضع فيه (راجع ص ٥١ ج ٤ لسان العرب) وهو الأندر بلغة أهل الشام ، والبيدر بلغة أهل العراق (١٥١ ج ٤ لسان العرب) وأهل المدينة يسمون الموضع الذي يجفف فيه التمر مربدا وهو المسطح والجرين في لغة أهل نجد (١٥١ ج ٤ اللسان ، و ٢٢٦ ج ١ صحاح الجوهري) وهو الجرن بلغة أهل مصر .

(٢) أحمد أمين — مجلة الثقافة المصرية .

الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار ، ويبيعون ويشترون وهو «كسوق عكاظ» وقال العيني : «مربد البصرة ، محلة عظيمة فيها (أى فى البصرة) من جهة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون» .

كانت أهم أخبار المربد ماكان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فإنها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير ، ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها من قبل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل على على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق المربد بمن فيه . وأصبح المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . وأصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ، ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ويعظم ماجنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان ابن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلاحق لهما فى الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله ، وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل كبير .

— ٢ —

وكان العصر الأموى أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة ، جاء فى الطبرى : «أن عمر بن الخطاب

سأل أنس بن حجة وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها ، وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية : من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية حتى فى النقائض أن « زياد بن أبى سفيان » كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل : لشد ماعقدت على دراهمك هذه ، أمان والله لو كان غالب مافعل هذا الفعل ، فحلها ثم أنهبها ، وقال : من أخذ شيئا فهو له وبلغ ذلك زياداً فبالغ فى طلبه فهرب ، فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد .

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم فى سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصبية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف المربد أجل شعر من هـــذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغانى أن جريرا

والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصا ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كل منهما ماقاله الآخر فيرد عليه قال أبو عبيدة : « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما ، وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسمعون فيما بينهما بأشعارهما ، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية (١) وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جرير أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج (٢) وجلاجله (٣)

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، جاء فى الأغانى : « كان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة » .

---

(١) هى الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع .
(٢) هو مايتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل له فى العربية .
(٣) ١٣٢ جـ ٤ الأغانى .

ومما يروى عن الفرزدق فى المربد ماحدث به الأصمعى ، قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لقيت الفرزدق فى المربد ، فقلت : ياأبا فراس ، أحدثت شيئا ؟ فقال : خذ ، ثم أنشدنى :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

فقلت : سبحان الله هذا المتلمس ، فقال : اكتمها ، فلضوال الشعر أحب إلىّ من ضوالّ الإبل .

ولا شك أن المربد كان له آثار كبيرة فى الأدب فى عصر بنى أمية .

وقد بقى المربد فى العصر العباسى ، ولكنه كان يؤدى غرضا آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى ، غرضا اقتصاديا لا غرضا أدبيا .

ثم دمره الزنج فى ثورتهم السياسية التى بدأت عام ٢٥٥ هـ .

(٧) الموالى فى خدمة الثقافة واللغة

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية ، فشملت الأندلس وشمال أفريقية والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وجزءاً من الهند ، كما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى سوى ذلك من النواحى والبلاد .

وخضعت هذه الأمم كلها للحكم العربى ، سواء منها الدول ذات الحضارة أو الدول التى لم تصطبغ بصبغتها ، فوجدوا فى الإسلام العدل والأمن والسلام ، وأخذوا يتعلمون اللغة العربية لأنها لغة الدين والقرآن ولحاجتهم إليها فى التفاهم مع الولاة والحكام والعمال ، وهى فوق ذلك اللغة الأولى فى العالم كله آنذاك ، فهى لغة الثقافة والآداب والعلوم والفنون والسياسة .

وكان لبعد الموالى عن سياسة الدولة وشئونها العامة بإقصاء الأمويين

لهم، كما كان لانحدارهم من عناصر متحضرة أخذت بقسط من الثقافة والمدنية والمعرفة، أثر كبير فى تفوقهم فى ميدان العلم والأدب .

جلسوا فى مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلومه والحديث وروايته والتاريخ وأيامه ومفاخر العرب ومآثرهم، كما جلسوا فى مجالس الأدباء والشعراء والرواة يثقفون أنفسهم بالشعر ويتأدبون بروايته وبنظمه أحيانا .

فكان من الموالى الشعراء كزياد الأعجم وإسماعيل بن سيار وأخيه موسى شهوات وبشار .

وكان منهم العلماء فى علوم الدين والشريعة كنافع وربيعة الرأى شيخ الإمام مالك وسليمان بن يسار وكان من أعلم الناس وأفقههم وكانوا بالمدينة، ومنهم مجاهد وعكرمة وعطاء بمكة .

والحسن بن يسار والحسن البصرى وابن سيرين بالبصرة، ويزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد فى مصر . ومكحول بن عبد الله فى الشام .

إلى غير هؤلاء من الأعلام فى الدين والشريعة والحديث والتفسير واللغة من الموالى فى عصر بنى أمية .

ولما كانت اللغة القبطية ولغة الروم وآدابها وثقافتهما ماتزال باقية فى مصر والشام . واللغة الفارسية ما تزال ذائعة فى بلاد فارس وبعض جهات من العراق .

فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تكتب فى مصر باللغة القبطية وفى الشام باللغة الرومية وفى العراق وفارس بالفارسية، وكان لابد من الاستعانة بالموالى فى هذه الدواوين للكتابة فيها، وظل الأمر على ذلك مدة حتى حولت دواوين (١) العراق إلى اللغة العربية بأمر

(١) الديوان الكتاب الذى يكتب فيه أهل العطية والمرتبات، ثم نقل إلى =

الحجاج ودواوين الشام فى عهد عبد الملك ودواوين مصر فى عهد الوليد ابن عبد الملك وبذلك انفسح المجال للعرب فى هذه الناحية أيضا .

وكان الذى نقل دواوين الخراج فى العراق إلى العربيـــة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج وكان صالح من الموالى . أما دواوين الشام فكانت بالرومية وكان يتولى أمورها سرجون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ثم نقلت إلى العربية على يد سليمان بن منصور . أما ديوان مصر فقدكان بالقبطية وحول فى عهد الوليد بن عبد الملك إلى العربية على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب إذ كان ديوان الجند والرسائل وجميع مرافق الدولة عربية ماعدا ديوان الخراج فلما حول صارت سائر أعمال الدولة مصطبغة بالصبغة العربية الخالصة .

وبرز الموالى فى علوم اللغة والأدب وأقبلوا على الثقافة إقبالا شديدا فى هذا العصر . .

(٨) اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية

١ — اتصل العرب فى العصر الأموى بالثقافة اليونانية والرومانية فى مصر والشام وشمال إفريقية ، وكان الأدب فى مصر والشام آنذاك متمثلا فى أدب العصر الإسكندرى الرومانى الذى بدأ باستيلاء الرومان على أثينا ثم على الإسكندرية من أيدى البطالسة ، ثم فتحهم لشواطىء الشام وتغلغلهم فى البلاد . وكانت الإسكندرية مركزا ثقافيا إغريقيا كبيرا فى حوض البحر

= المكان الذى يجتمع فيه الكتاب لذلك، وأول من وضعه عمر فهو أول من دون الدواوين فى الإسلام، وكانت مقصورة على الضرورى منها لمكان البداوة من الأمة .

الأبيض المتوسط ، منذ أسسها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق م ؛ وازدهرت الثقافة الإغريقية فيها في عصر البطالسة الإغريقيين في أصلهم ؛ وإذا كان الأدب في عهدهم صورة للأدب في العصر الإسكندرى اليونانى ، فإن الأدب في ظلال حكم الرومان في مصر والشام كان يمثل نزعة الأفلاطونية الجديدة التي ظهرت في الإسكندرية متأثرة بنزعة الوثنية اليونانية التي خالطها شيء من التوحيد الذي عرف في الاسكندرية عن طريق العبريين وكتابهم المقدس ، وقد كان في الإسكندرية جماعات كثيرة منهم مع النازحين إليها من بلاد اليونان . وكذلك كانت السيادة في الشـمال الإفريقي للآداب الرومانية التي هي شرح أو تلخيص لآداب الإغريقيين القدماء .

وفي العراق وفارس التقت اللغة العربية بالأدب الفارسي القديم الذي تأثر بنزعات كثيرة ، تأثر بالأدب الهندى ، وبالأدب الإغريقي كذلك عن طريق مدرسة جنديسابور التي أنشأها سابور بن أردشير في القرن الثالث الميلادى وصارت مركزاً كبيراً للثقافة اليونانية ، ومركزاً للنازحين من اليونان وسهول آسيا الصغرى ، وفي عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٨٧ م) هاجرت جماعات كثيرة من الإغريق من آسيا الصغرى إلى جنديسابور أيضا ، فرارا بوثنيتها من اضطهاد الأمبراطور جوستنيان الذى حاول إجبار سكان الأمبراطورية على اعتناق المسيحية ، ففروا بعقائدهم إلى إلى جنديسابور التي اختلطت فيها الآداب الفارسية بالآداب الهندية والإغريقية .

وقد وعى العرب الكثير من فنون هذه الآداب عن طريق الترجمة التي قام بها السريان أو أبناء الموالى الذين اختلطوا بالعرب في السكنى والتجارة ومختلف جوانب الحياة .

٢ — وأخذت الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة بموادها المختلفة من علوم دين وعلوم أدب ؛ من حديث وتفسير وفقه وتاريخ ونحو ولغة وأدب

وشعر وغيرها (١) تختلط بالثقافات الوافدة ، وأخذ الأدب يستفيد من هذه الثقافات والآداب كلها على أيدى الموالى الفرس وبخاصة فى العراق وخوزستان ، مما ظهر جليا . فى آخر العصر الأموى .

ويذهب البعض إلى أن أصول النحو العربى اقتبست من أصول النحو السريانى التى وضعها يعقوب الرهاوى (٤٦٠ م) ، وهو رأى واه فإن النحو العربى كان جديدا محضا لا أثر فيه لأحد ولا لأمة .

وكان التقاء الأدب العربى بالأدب الفارسى القديم عن طريق مدرسة جنديسابور حدثا كبيرا حيث بدأ الموالى الأعاجم عملية مزج كبيرة بين الأخيلة الشعرية والحكم والقصص فى الأدبين .

وكان العرب يمثلون مظهرا حضاريا متقدما ، فأنشأوا المكتبات والمدن والمتنزهات والمدارس والمنتديات العلمية والأدبية وغيرها ، وكان عبد الحكم الجمحى فى العصر الأموى قد جعل فى بيته دفاتر أباح لزواره أن يقرأوا فيها (٢) .

---

(١) فى التفسير كان ابن عباس (٦٨ هـ) ومجاهد (١٠٤ هـ) قد بدأ التأليف فيه ، وفى الحديث كان كذلك عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) والزهرى (١٢٠ هـ) ثم الإمام مالك وابن أبى مليكة (١١٩ هـ) والحسن البصرى (١١٠ هـ) والأوزاعى (١٥٩ هـ) . . وفى اللغة وضعت أصول النحو والصرف وكذلك الشكل والإعجام والنقط وغيرها . . وفى التاريخ كان أبو مخنف الأزدى وعوانة بن الحكم الكلبى ووهب بن منبه (٣٤ – ١١٤ هـ) وكعب الأحبار (٣٢ هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (٢٢ – ١٠٥ هـ) وغيرهم .

(٢) ٤ : ٥٢ الأغانى .

(٩) مجالس الأدب فى هذا العصر

تعددت مجالس الأدب والشعر فى هذا العصر ، وكثرت حلقاتهما وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة ، واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر .

فقد كان خلفاء بنى أمية عربا ، يطربهم المعنى الرائق . واللفظ الفائق ، ويعجبهم الأسلوب الناصع ، والتعبير البديع ، والتصوير الجيل ، لما فطروا عليه من ذوق حساس ، وسليقة مرهفة ، وبصيرة نافذة ، وذكاء متوقد ، وعلم غزير ، ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها ، ومفاخرها ومثالبها .

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلى من شأن الأدب ، وأن تعظم رغبتهم فى تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبى ، على نحو ما سجلته كتب الأدب ، ووعته صحائف التاريخ . ونقله الرواة .

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم ، والإبقاء على سلطانهم ، أن عمدوا إلى إثارة العصبيات ، وبعث الخصومات ، وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ، ليشغلوا الناس بذلك عن موائبتهم على الملك ، ومساورتهم على السلطان ، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة ، فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك فى أشعارهم ، وتصويره فى قصائدهم ، وشغلوا بالحديث عن أمجاد القبائل ومخازيها ، رغبة فى مدح أو شفاء لحقد ، أو طمعاً فى عطاء .

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام ، وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة . وألباء أدباء . يميزون جيد الأدب من رديئه . ويعرفون صحيحه من زائفه . ويقدرون منازل الشعراء . ويزنون الكلام بميزان صحيح . فيقبلون الجيد ويثيبون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه ، ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية ، وفطرهم الأدبية ، وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار ، مايعينهم على صدق الحكومة ، ويدفعهم إلى حسن التقدير ، وجمال المثوبة . وهل هناك أدل على صفاء الذوق ، وقوة

الملاحظة ، ودقة النقد وصادق التمييز ، مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب ، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات ، وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فمدحه بقوله :

إن الأغر الذى أبوه أبو العـا ... صى عليـــه الوقار والحجب
يعتدل التــاج فــــوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

فقال عبد الملك : يابن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنمـا مصعب شهاب من الله (م) تجلت عن وجهـــه الظلماء
ملـكه ملك عزة ليس فيــــه ... جبروت منـه ولا كبرياء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة . قال قدامة بن جعفر فى (نقد الشعر) : ووجه عتب عبد الملك ، إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة .

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن لا تأخذ فى المسلمين عطاء أبدا .

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وألمعيتهم فى النقد ، أن أبا زيد الأسلمى دخل على إبراهيم بن هشام فأنشده : « يابن هشام يا أخا الكرام » فغضب إبراهيم وقال : إنما أنا أخوهم ، وكأنى لست منهم ، ثم أمر به فضرب بالسياط .

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار ، ومتخير القصائد ، منزلة عالية ، ويثيبون عليه مثوبة طائلة ، وأنهم يتجهمون لمواطن العيب ، ويفطنون فى سرعة عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل ، وأنهم قد

يعاقبون على ذلك عقوبة أقلها حبس العطاء ، وقبض الصلة ، لما أيقن الشعراء من ذلك ، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب ، وبالغوا أعظم المبالغة فى تنقيح بنات أفكارهم ، وتهذيب قصائدهم ، لتفتح لهم القلوب المغلقة وتلين النفوس العصية ، وتستدر العطايا السنية ، وتستل ما فى النفس من حقد دفين ، وغل مقيم .

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح ، والبليغ من الثناء ، وكانوا فى نشوة هذا الطرب ، وفى غمرة تلك الأريحية ، يصفحون عن المسىء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعراء .

ولقد كان الخليفة من خلفاء بنى أمية ينشد بيتا ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه ، وينبو به مضجعه ، ويبعث فى طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ثم يخلع عليهم العطايا ، ويهب لهم الجوائز ، ويصلهم بأكرم الصلات .

وكان هذا من العوامل التى شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقى الأشعار والبحث عنها لدى عارفيها والملمين بها . وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحيت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن يغفلوه إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل ما يحظى به الشاعر .

ويؤثر عن معاوية ، أنه كان يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب ، لشد البلوى . فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك ، يقول لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا . وقال لمؤدب ولده : إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى :

يبين الجار حين يبين عنى ... ولم تأنس إلى كلاب جارى (١)
وتظعن جارتى من جنب بيتى ... ولم تستر بستر من جدارى (٢)
وتأمن أن أطالع حين آتى ... عليها وهى واضعة الخمار (٣)
كذلك هدى آبائى قديماً ... توارثه النجار عن النجار

وجلس ذات مرة فى عدة من أهل بيته وولده فقال : ليقل كل منكم أحسن شعر سمعه ، فذكروا لامرىء القيس وطرفة والأعشى وأكثروا ، فقال : أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمى عنه وهو ليس به حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى ... قطيعتها تلك السفاهة والظلم (٤)
وأسعى لكى أبنى ويهدم صالحى ... وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغمى لا يحاول غيره ... وكالموت عندى أن يحل به رغم (٥)
فما زلت فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

---

(١) يكنى بعدم أنس كلاب جاره به عن عدم دخوله بيته مراعاة لحرمة أهله .
(٢) يريد أن جارته تأمن جانبه فلا تستتر منه بالجدار عند خروجها .
(٣) واضعة الخمار أى ملقيته عن رأسها .
(٤) سمته : كلفته .
(٥) الرغم : الذل .

(١٠) صور من العناية باللغة والأدب

— ١ —

قحطت(١) البادية فى أيام هشام بن عبد الملك ، فقدمت العرب من أحياء القبائل ، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه ، وفيهم درواس بن حبيب وله أربع عشرة سنة ، عليه شملتان وله ذؤابة . فأحجم القوم وهابوا هشاما ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره ، فقال لحاجبه : مايشاء أحد أن يصل إلى إلا وصل حتى الصبيان ؟ !

فعلم درواس أنه يريده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن دخولى لم يخل بك شيئا ولقد شرفنى ، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طى ، ولا يعرف الكلام إلا بنشره ، فقال هشام : فأنشر لا أبالك ! ! وأعجبه كلامه .

فقال : أصابتنا ثلاث سنين ، سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة نقت(٢) العظم ، وفى أيديكم فضول أموال : إن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها : وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزى المتصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالى من الرعية كالروح من الجسد ، لا حياة للجسد إلا به .

فقال هشام : ماترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً : وأمر أن يقسم فى باديته مائة ألف درهم . وأمر لدرواس بمائة ألف درهم . فقال يا أمير المؤمنين أرددها إلى أعطية أهل باديتى ، فإنى أكره أن يعجز ماأمر لهم به

---

(١) لباب الآداب ص ٣٥٣

(٢) النق : مخ العظام وشحمها ، ونق العظم : استخرج نقيه .

أمير المؤمنين عن كفايتهم : قال : فما لك من حاجة تذكرها لنفسك ؟ قال : مالى من حاجة دون عامة المسلمين !!

ولما عاد درواس إلى منزله بعث إليه هشام بمائة ألف درهم ، ففرقها فى تسعة أبطن من العرب ، لكل بطن عشرة آلاف ، وأخذ هو عشرة آلاف، فقال هشام : إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع(١) .

— ٢ —

وسأل(٢) يوماً عبد الملك(٣) بن مروان: من أشجع الناس شعراً ؟ فقيل عمرو بن معد يكرب . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

جاشت(٤) إلى النفس أول مرة   فردت على مكروهها فاستقرت

قالوا : فعمرو بن الاطنابة . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

وقولى كلما جشأت(٥) وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

قالوا : فعامر بن الطفيل قال ، كيف ! وهو الذى يقول :

أقول لنفس لايجاد بمثلها   أقلى مراحاً إننى غير مدبر

قالوا : فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة ، عباس بن مرداس السلمى ، وقيس بن الخطيم الأوسى ، وعنترة بن شداد العبسى ، ورجل من بنى مزينة ، أما عباس فقوله :

(١) جمع صنيعة ، وهى المعروف والإحسان .
(٢) مجمع الأمثال ص ٢٢ ج ٢
(٣) كان عبد الملك بن مروان لبيبا عاقلا جباراً ، قوى الهيبة شديد السياسة حسن التدبير تولى الخلافة سنة ٦٥ هـ فوطد أركانها ، وقتل ابن الزبير وأخاه مصعباً ، وكافح حتى استقرت له الأمور ومات سنة ٨٦ هـ .
(٤) جاشت النفس : اضطربت من الفزع ، وأصل جاشت . غثت وفاضت
(٥) ارتفعت من حزن أو فزع .

أشد على الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله :

وإنى لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله :

إذ تتقون بى الأسنة لم أخم(١) عنها ولكن قد تضايق مقدمى(٢)

وأما المزنى فلقوله :

دعوت بنى قحافة فاستجابوا فقلت : ردوا فقد طاب الورود

— ٣ —

وقال (٣) عبد الملك بن مسلم : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : إنه لم يبق شيء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه ، ولم يبق لى إلا مناقلة (٤) الإخوان الأحاديث ، وقبلك عامر الشعبى (٥) ، فابعث به إلى يحدثنى .

فدعا الحجاج بالشعبى وجهزه ، وبعث به إليه ، وأطراه فى كتابه .

فخرج الشعبى ، حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب : استأذن لى ، فقال : ومن أنت ؟ قال : عامر الشعبى ، قال حياك الله ! ثم نهض ، وأجلسه على كرسيه ، فلم يلبث أن خرج الحاجب إليه فقال : ادخل .

قال الشعبى . فدخلت فاذا عبد الملك جالس على كرسى ، وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسى ، فسلمت فرد السلام ، ثم أومأ إلى ،

(١) أخم : أجبن .

(٢) تضايق مقدمى : تضايق الموضع الذى هو قدامى من أن يدنو أحد .

(٣) أمالى المرتضى ص ١٠١ ج ٣ ، خزانة الأدب ص ١١٨ ج ٢ ، الأغانى ص ١٦٢ ج ٩ .

(٤) المناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك .

(٥) هو عامر بن شراحيل كوفى المنشأ ، تابعى جليل القدر وافر العلم ، يقال إنه أدرك خمسمائة من الصحابة توفى سنة ١٠٣ هـ .

فقعدت عن يساره ، ثم أقبل على الذى بين يديه فقال : ويحك ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ! فأظلم على ما بينى وبين عبد الملك ، ولم أصبر أن قلت : ومن هذا ياأمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس ! فعجب عبد الملك من عجلتى قبل أن يسألنى عن حالى ، ثم قال : هذا الأخطل فقلت : ياأخطل أشعر منك الذى يقول(١) :

هذا غلام حسن وجهه   مقتبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر والحارث خير الأنام
ثم لهنـد ولهنـــد ، فقد   أسرع فى الخيرات منه إمام
خمســـة آباء هم ماهم   هم خير من يشرب صوب الغمام

فقال عبد الملك : رددها على ، فرددتها حتى حفظها ، فقال الأخطل ، من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الشعبى ، قال : صدق ، والله النابغة أشعر منى !

قال الشعبى : ثم أقبل على عبد الملك فقال : كيف أنت ياشعبى ؟ قلت : بخير لازلت به ـ ثم ذهبت لأصنع معاذيرى لما كان من خلافى على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث .

فقال : مه ! فإنا لانحتاج إلى هذا المنطق ، ولا تراه منا فى قول ولا فعل حتى تفارقنا ، ثم أقبل على فقال : ماتقول فى النابغة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين قد فضله عمر بن الخطاب فى غير موطن على جميع الشعراء ! وذاك أنه خرج يوما وببابه وفد غطفان ، فقال : يامعشر غطفـــان ، أى شعرائكم الذى يقول :

---

(١) قال النـابغة هذا الشعر حين نظر إلى النعمان بن الحـارث أخى عمرو بن الحارث الأصغر ابن الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر ابن أبى شمر (مهذب الأغانى صـ ٢٣٠ جـ ٢)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
كأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث ، أى الرجال المهذب !

قالوا : النابغة ، قال ، فأيكم الذى يقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف(١) حجن فى حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع

قالوا : النابغة ، قال : أيكم الذى يقول :

إلى ابن محرق أعملت نفسى ... وراحلتى وقد هدت العيون
أتيتك عارياً خلقا ثيابى ... على خوف تظن بى الظنون
فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة ، قال : هذا أشعر شعرائكم . ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قياضاً (٢) بشعرك شعر أحد من العرب . أو تحب أنك قلته فقال : لا والله ، إلا أنى وددت أنى كنت قلت أبياتا قالها رجل منا ، كان والله مغدف(٣) القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع ، قال وما قال؟ فأنشده :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وإن بليت وإن طالت(٤) بك الطول
ليس الجديد به تبقى بشاشته ... إلا قليلا ولا ذو خلة يصل

(١) الخطاف : حديدة حجناء تعقل بها البكرة ، والحجن : الاعوجاج (اللسان مادة خطف) .
(٢) المقايضة . المبادلة والمعارضة .
(٣) أغدف قناعه . أرسله على وجهه .
(٤) يقال : « طال طولك » أى عمرك .

والعيش لا عيش إلا ماتقر به عين ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلق خيراً قائلون له مايشتهى ولام المخطى الهبل
قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

قال الشعبي : قد قال القطامى أفضل من هـــذا ، قال : وما قال ؟ قلت : قال :

طرقت جنوب رحالنا من مطرق ما كنت أحسبه قريب المعنق

حتى أتيت على آخرها ، فقال عبد الملك : ثكلت القطامى أمه ، هذا والله الشعر ، ثم قال : ياشعبي ، أى شعراء الجاهلية كان أشعر من النساء ؟ قلت : خنساء قال : ولم فضلتها على غيرها ؟ قلت . لقولها :

وقائلة والنعش قد فات خطوها لتدركه يالهف نفسى على صخر
ألا ثكلت أم الذين غدوا به إلى القبر ، ماذا يحملون إلى القبر !

فقال عبد الملك : أشعر والله منها ليلى الأخيلية حيث تقول :

مهفهف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لايأمن الناس ممساه ومصبحه فى كل حى وإن لم يغز ينتظر

ثم قال عبد الملك : ياشعبي لعله شق عليك ماسمعته ، فقلت : إى والله يا أمير المؤمنين أشد المشقة ، إنى قد حدثتك فلم أفدك إلا أبيات النابغة فى الغلام .

ثم قال عبد الملك : ياشعبي ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق . ثم ردد على أبيات ليلى حـــتى حفظتها ، وأذن لى فانصرفت ، فكنت أول داخل وآخر خارج .

— ٤ —

وقال (١) حماد (٢) الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام يجفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد ، فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت في بيتي سنة ، لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سراً .

فلما لم أسمع أحداً يذكرني سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، ثم جلست عند باب الفيل . فإذا شرطيان قد وقفا علي فقالا لي يا حماد ، أجب الأمير يوسف(٣) بن عمر . فقلت في نفسي : من هذا كنت أحذر ، ثم قلت للشرطيين. هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان (٤) الأحمر . فسلمت عليه فرد علي السلام ، ورمى إلي كتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غيرا مروع ولا متعتع (٥) ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا مهريا (٦) يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق » .

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٨٢ ج ١ ، الأغاني ص ٧٥ ج ٦

(٢) هو حماد بن ميسرة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، كانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره ، وتستزيره ، فيسألونه ويجزلون صلته .

(٣) لم يكن يوسف بن عمر والياً على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان الوالي عليها خالد القسري حتى سنة ١٢٠ هـ ، ثم ولي يوسف بعده .

(٤) الإيوان : البيت يبنى طولا .

(٥) غير متعتع . من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .

(٦) نسبة إلى مهرة بن حيدان أو قبيلة وهم حي عظيم ، وإبل مهرية . منسوبة اليهم.

فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل مرحول[١] فوضعت رجلي في الغرز[٢]، وسرت اثنتي عشرة ليلة، حتى وافيت باب هشام، فاستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء[٣] مفروشة بالرخام، وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه، فسلمت فرد علي، واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله؛ وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما، في أذني كل واحدة منهما حلقتان من ذهب، فيها لؤلؤتان تتوقدان.

فقال لي: كيف أنت ياحماد؟ وكيف حالك؟ فقلت بخير ياأمير المؤمنين، قال أتدري فيم بعثت إليك؟ لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله. قلت: وماهو؟ فقال:

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت　　قينة في يمينها إبريق

قلت: هذا يقوله عدي بن زيد في قصيدة له. قال: فأنشدنيها، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبح　　يقولون لي: ألا تستفيق

ويلومون فيك يابنة عبد الله　　والقلب عندكم موهوق[٤]

لست أدري إذ أكثروا العذل عندي　　أعدو يلومني أم صديق

فطرب، ثم قال: أحسنت والله يا حماد، أعد، فأعدت فاستخفه الطرب

---

(١) مرحول: عليه الرحل　(٢) الغرز: ركاب الرحل من جلد، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب.

(٣) دار قوراء: واسعة.

(٤) الموهوق: المشدود بالوهق، وهو الحبل.

حتى نزل عن فرشه ، فقال : سل حوائجك ، فقلت : كائنة ما كانت ؟ قال نعم ، قلت : إحدى الجاريتين ، فقال لى : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما .

ثم قال الأولى اسقيه فسقتنى شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت فإذا بالجاريتين عند رأسى وإذا عدة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة ، فقال لى أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

— ٥ —

ودخل رجل من بنى ضنة على عبد الملك بن مروان فقال :

واقه ما ندرى إذا ما فاتنــــا　　طلب إليك من الذى نتطلب ؟
فلقد ضربنا (١) فى البلاد فلم نجد　　أحدا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعـادتنا التى عودتنـا　　أولا فأرشدنا إلى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : إلى ! إلى ! وأمر له بألف دينار ، ثم أتاه فى العام المقبل فقال :

يرب (٢) الذى يأتى من الخير إنه　　إذا فعل المعروف زاد وتمما
وليس كبان حين تم بناؤه　　تتبعه بالنقض حتى تهدما

فأعطاه ألفى دينار ، ثم أتاه فى العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مغازير (٣) فى الندى
يجودون بالمعروف عودا على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار

---

(١) ضرب فى الأرض : سافر .
(٢) رب : زاد وأصلح .
(٣) أغزر المعروف : جعله غزيرا . والمغازير لا يكون إلا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس، وفى المخصص : سحابة مغزار . غزير فيكون جمعا لمغزار حتما .

وقال عامر الشعبي : وفدت سودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند (١) وابنها بهوان
إن الامام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسنان

قالت : ياأمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ماقد نسى ، قال . هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسى . قالت صدقت والله يا أمير المؤمنين ماكان أخي خفي المقام ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته ، قال : قد فعلت ، فقولي حاجتك قالت :

يا أمير المؤمنين إنك للناس سيد ولأمورهم مقلد . والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط بسلطانك ، فيحصد نا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيسة (٢) ويسألنا الجليلة وهذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فقال معاوية : أإياي تهددين بقومك ؟ والله هممت أن أردك إليه على قتب أشرس (٣) فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

(١) هند هي أم معاوية .
(٢) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يجشمنا دنايا الأمور .
(٣) القتب : الرحل الصغير . والأشرس . الخشن الغليظ .

صلى الإله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبي طالب رحمه الله ، قال : ما أرى عليك له أثرا ، قالت : بلى ، أتيته يوما فى رجل ولاه صدقتنا فكان بيننا وبينه مابين الغث والسمين . فوجدته قائما يصلى فانفتل (١) عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك والسلام ، فعزله يا أمير المؤمنين ماخزمه بخزام ولا ختمه بختام . فقال معاوية : اكتبوا بالإنصاف لها والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة أم لقومى عامة ؟ قال: وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم، إن كان عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى . قال هيهات ، لمظكم (٢) ابن أبى طالب الجرأة وغركم قوله :

فلو كنت بوابا على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سنى فتحة الباب
كالهندوانى لم تفلل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها .

---

(١) انفتل : انصرف .
(٢) لمظه الشيء : منحه إياه .

— ٧ —

وحبس مروان وهو والي المدينة غلاما من بني ليث في جناية جناها فأتته جدة الغلام وهي أم سنان بنت جشمة المذحجية فكلمته في الغلام فأغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال لها : مرحبا بابنة جشمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تشتمييننا وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأحلاما وافرة ، لايجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ما سن آباؤه لأنت . قال : صدقت نحن كذلك . فكيف قولك :

عزب الرقاد فمقلتي لاترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لامقام فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد
هـــذا علي كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
مازال مذشهد الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه ما يعقد ؟(١)

قالت : كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو : أن تكون لنا خلفا ، فقال رجل من جلسائه : كيف ياأمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هاديا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك مادعت ... فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا
واليوم لاخلف يؤمل بعده ... هيهات تأمل بعده إنسيا

قالت : ياأمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق . ولئن تحقق ما ظننا

(١) ما مصدرية ظرفية ، تقول : إن النصر لايفارق لواءه مادام معقودا .

لحظك الأوفر ، والله ماورثك الشنآن (١) فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء فأدحض (٢) مقالتهم وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا ومن المؤمنين حبا قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله مامثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا كان والله (على) أحب إلينا منك وأنت أحب الينا من غيرك . قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاصى . قال : وبم استحققت ذلك عندك قالت : بسعة حلمك وكريم عفوك قال : فما حاجتك قالت : ياأمير المؤمنين إن مروان تبنك (٣) بالمدينة تبنك من لايريد منها البراح ، لايحكم بعدل ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابنى فأتيته فقال : كيت وكيت ، فأسمعته أخشن من الحجر وألقمته أمر من الصاب (٤) ثم رجعت إلى نفسى باللائمة وقلت : لم لاأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه فأتيتك ياأمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظرا وعليه معديا (٥) قال : صدقت لاأسألك عن ذنبه والقيام بحجته . اكتبوا لها بإطلاقه ، قالت : يا أمير المؤمنين وأنى لى بالرجعة ؟ وقد نفد زادى وكلت راحلتى ؟ فأمر لها براحلة ومنحة .

---

(١) الشنآن : العداوة .
(٢) أدحض حجته : أبطلها .
(٣) تبنك بالمكان : أقام .
(٤) الصاب : شجر مر .
(٥) أعداه عليه : نصره وأعانه .

— ٨ —

وكان لبيد (١) بن ربيعة جوادا شريفا فى الجاهلية والإسلام ، وكان آلى فى الجاهلية أن يطعم ماهبت الصبا . ثم أدام ذلك فى إسلامه ، وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح فى كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، ونزل لبيد الكوفة ، وأميرها الوليد بن عقبة ، فبينا هو يخطب الناس إذ هبت الصبا ، فقال الوليد فى خطبته على المنبر : قد علمتم حال أخيكم أبى عقيل ، وما جعل على نفسه : أن يطعم ما هبت الصبا ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت ريحها : فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم انصرف الوليد ، فبعث إليه بمائة من الجزر وبهذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد (٢) عامرى ... طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بما نواه ... على العلات (٣) والمال القليل
بنحر الكوم (٤) إذ سحبت إليه ... ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما وصلت الهدية إلى لبيد شكره ، وقال : إنى تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، ثم قال لابنته . أجيبيه ، فلعمرى لقد عشت دهراً وما أعيا بجواب شاعر .

---

(١) راجع الجمهرة ص ٣٩ ، المستطرف ص ٥٠ ج ٢ ، الأغانى ص ٩٣ ج ١٤ ، بلوغ الأرب ص ٩٢ ج ٣

ولبيد بن ربيعة العامرى هو أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات ، ولما ظهر الإسلام أسلم وحسن أسلامه ، ومات سنة ٤١ هـ .

(٢) الأصيد : رافع رأسه كبرا .

(٣) على العلات : على كل حال .

(٤) الكوم : القطعة من الإبل .

— ٩ —

وكان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكثر أهل زمانه وأشدهم عارضة ولسانا وطال عمره ونكبه دهره واختلت حاله ، فخرج عشية يتبقل (١) لأهله فمر به عميلة الفزارى فسلم عليه وقال : ياعم ما أصارك إلى ما أرى ؟ قال : بخل مثلك بماله وصون وجهى عن أموال الناس . فقال : لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة . فقالت له : لقد غرك كلام غلام جنح ظلام (٢) . فكأنما ألقمت فاه حجرا . فبات متململا بين رجاء ويأس ، فلما كان السحر سمع رغاء الإبل وثغاء الشاه وصهيل الخيل ولجب الأموال (٣) فقال : ماهذا ؟ فقالوا : هذا عميلة ساق إليك ماله ؛ فخرج ابن عنقاء له ، فقسم عميلة ماله شطرين وساهمه (٤) عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآنى على مابى عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالى أسر كما جهر

دعانى فآسانى ولو ضن لم يلم ... على حين لا بدو يرجى ولا حضر

فقلت له خيرا وأثنيت فعله ... وأوفاك ما أبليت من ذم أو شكر

ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... ترى رداء سابغ الذيل واتزر

غلام رماه الله بالخير مقبلا ... له سيمياء (٥) لا تشق على البصر

إذا قيلت العوراء (٦) أغضى كأنه ... ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر

---

(١) تبقل ، خرج يطلب البقل .

(٢) جنح الليل أو الظلام : الطائفة منه .

(٣) اللجب : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر .

(٤) ساهمه : قارعه أى ضرب القرعة .

(٥) السيماء والسيمياء والسيميا والسيمياء العلامة : يقول : يفرح به من يراه للطف محياه .

(٦) العوراء : الكلمة القبيحة .

— ١٠ —

ووفدت بكارة الهلالية على معاوية فاستأذنت فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه وكانت أسنت (١) وعشى بصرها (٢) وضعفت قوتها ترعش بين خادمين لها (٣) فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ، وقال كيف أنت يا خالة فقالت بخير يا أمير المؤمنين قال غيرك الدهر ، قالت كذلك هو ذو غير (٤) من عاش كبر ومن مات قبر . فقال عمرو بن العاص هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاحتفر (٥) من دارنا　　سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره (٦) ليوم كريهة　　فالآن أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا　　هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة　　أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاص هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى　　فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى فتطاولت　　حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لايزال خطيبهم　　بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت : يامعاوية كلامك أعشى بصرى وقصر حجتى (٧) وأنا والله قائلة ما قالوا وماخفى عليك منى أكثر فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ، اذكرى حاجتك قالت أما الآن فلا .

---

(١) طعنت فى السن .　　(٢) ضعف نظرها .
(٣) أى تمشى مستندة على خادمين وهى ترتعش لكبر السن .
(٤) أى صاحب أحوال متغيرة .
(٥) أى احفر الأرض فى دارنا لتخرج منها السيف المدفون .
(٦) فى رواية (قد كان مذخورا) .
(٧) أعشى بصرى أضعفه ، وقصر حجتى أضعفها .

ودخل حمزة (١) بن بيض على مخلد بن يزيد بن المهلب ، فوعده أن يصنع به خيراً ، ثم شغل عنه ، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه ، وأبطأت عليه عدته ، فقال ابن بيض :

أمخلد (٢) إن الله ماشاء يصنع	يجود فيعطى ما يشاء ويمنع
وإنى قد أمات منك سحابة	فجادت سراباً فوق بيداء تلمع
فأجمعت صرماً ثم قلت لعله	يثوب إلى أمر جميل ويرجع
فأياسنى من خير مخلد إنه	على كل حال ليس لى فيه مطمع
يجود لأقوام يودون أنه	من البغض والشنان أمسى يقطع
ويبخل بالمعروف عمن يوده	فوالله ما أدرى به كيف أصنع
أأصرمه ؟ فالصرم شر مغبة	ونفسى إليه بالوصال تطلع
وشتات بينى والوصال وبينه	على كل حال أستقيم ويظلع (٣)
فأعقبنى صرماً على غير إحنة	وبخلا وقدماً كان لى يتبرع
وغيره ما غير الناس قبله	فنفسى بما يأتى به ليس تقنع

ثم كتبها فى قرطاس ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه . فدفعه الغلام إليه .

---

(١) الأغانى ص ٢٣ ج ١٥

وحمزة بن بيض : شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن وكان منقطعا إلى المهلب بن أبى صفرة ووالده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبى بردة واكتسب بالشعر من هؤلاء مالا عظيما ، ولم يدرك الدولة العباسية توفى سنة ١٢٠ هـ .

(٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ، ولى إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه . ثم رحل إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ .

(٣) الظلع : العرج .

فلما قرأه سأل الغلام : من صاحب الكتاب ؟ قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : من أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدرى ، ولكن من صفته كذا وكذا ، ووصف صفة ابن بيض فأمر به فضرب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسمائة درهم وكساه ، وقال : إنما ضربناك أدبا لك ، لأنك حملت كتاباً لا تدرى ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

فقال الرجل : لا والله ، أصلحك الله لا أحمل كتاباً لمن أعرفه ولا لمن لا أعرف ، قال : احذر فليس كل أحد يصنع بك صنيعى .

وبعث إلى ابن بيض ، فقال له : أتعرف مالحق صاحبك الرجل ؟ قال : لا ، فحدثه خالد بقصته ، فقال ابن بيض : والله — أصلحك الله — لاتزال نفسه تتوق إلى العشرين سوطا مع الخمسمائة أبداً ، فضحك خالد ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لاتزال نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً ، قال أجل والله ، ولكن من لى بمثلك يعتبنى (١) إذا استعتبته ، ويفعل بى مثل فعلك ثم قال :

وأبيض بهلول إذا جئت داره كفانى وأعطانى الذى جئت أسأل
ويعتبنى يوما إذا كنت عاتبا وإن قلت زدنى قال حقا سأفعل
تراه إذا ما جئته تطلب الندى كأنك تعطيه الذى جئت تسأل

فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

---

(١) يقال : أعتبنى فلان ، إذا ترك ما كنت أجد عليه ، ورجع إلى ما أرضانى عنه ، بعد إغضاطه اياى عليه .

خلاصــــة

نستطيع أن نتبين أسباب عناية الدولة : خلفاء وأمراء وولاة وشعبا ، حكاما ومحكومين ، باللغة والأدب فى : عروبة الدولة وفى الرغبة الملحة فى الحفاظ على لغة القرآن الكريم وعلى مآثر العرب وتراثهم ، وفى ميول الحكام إلى الأدب لملكاتهم العربية الخالصة .

وقد تجلت هذه العناية بالأدب فى مظاهر مختلفة ، من سخاء على الأدب وتقريب لرجاله ورغبة فى السماع منهم ولهم ، ومن تنافس الشعراء فى التقرب إلى مجالس الخلفاء والأمراء والولاة ، ومن ظهور الأدب السياسى ، وقيام ديوان الرسائل ، وجمع الرواة للشعر ، إلى ميول الخلفاء الأدبية واحتفائهم بالأدب ، وعقدهم الندوات الأدبية التى يشاركون فيهــــا فى الحوار الأدبى وفى نقد الكلام .

كما تجلت هذه العناية باللغة فى حرص الدولة على سلامة الملكات وعلى مقاومة اللحن ، وفى جمع العلماء لمتن اللغة ، وفى انتشار اللغة وعالميتها .

وقد أثمرت هذه العناية باللغة والأدب ثمارا كثيرة منها : نهضة الأدب والشعر وتعدد فنونهما ، وقيام حركة التجــــديد فى الأدب والشعر ، والنثر الفنى ؛ وحرص الرواة على جمع آداب العرب ودواوين الشعراء ، وبدء حركة التأليف فى الأدب واللغة والعلوم وحركة الترجمة إلى العربية .

وسنفصل الحديث فى كل هذه الجوانب فيما يلى من دراسات .

— ثالثــا —

الشعر فى عصر بنى أمية

تمهـــيد :

ازدهر الأدب العربى فى عصر بنى أمية ، شعره ونثره على السواء ، وتعددت فنونه ، وشمله التجديد فى كل مظهر من مظاهره ، واسترعت النهضة التى بلغها آنذاك أنظار النقاد والدارسين .

وكانت الأسباب التى أدت إلى هذا الازدهار ، وإلى تلك النهضة ، كثيرة ومتضافرة : فالدولة عربية الصبغة وملوكها عرب ولغتها هى العربية ، ومواطن اللغة والثقافة والأدب كثيرة فى هذا العصر ، وعناية الخلفاء والأمراء والولاة والشعب بالأدب وتشجيعهم للأدباء موصولة ، وكان لإحياء الأدب الجاهلى وروايته وتدوينه أثر فى هذه النهضة ، وقد أثر القرآن الكريم والحديث النبوى وبلاغات البلغاء من الجاهلية حتى هذا العصر فى الألسنة والأذواق وفى الأساليب والألفاظ ، وفى أغراض الأدب ومعانيه وأخيلته تأثيرا كبيرا ، وتعددت مجالس الأدب ومنتدياته وأسواقه فى هذا العصر ، ومن أشهرها : سوق المربد بالبصرة ، وسوق كناسة بالكوفة .

وقد كان لازدهار الحياة الأدبية فى هذا العصر مظاهره الكثيرة : فمن ذيوع الشعر ونهضته ، إلى نهضة النثر الفنى متمثلا فى الخطابة والكتابة ، إلى ظهور الأدب السياسى والغزل العذرى والقصصى وشعر الشعوبية الذى ظهر على أيدى شعراء الموالى من مثل نصيب وعبد بنى الحسحاس وهما من أصول حبشية ـ والحيقطان وهو من أصل زنجى ، وأبى نخيلة وزياد الأعجم وموسى شهوات واسماعيل بن يسار (١١٠ هـ) ، وإخوته وهم من أصول فارسية .. ومن أغراض الأدب الجديدة كذلك : شعر الزهد والحكمة ،

والعقائد ووصف البلاد المفتوحة ، وكذلك فن القصص التاريخي الذي كتبت به السيرة النبوية .

ونهضة الأدب في هـــذا العصر ، تجلت آثارها على جميع ألوان الأدب وفنونه .

فقد نبغ الكثير من أعلام الأدباء والكتاب والشعراء ، وأدى الشعر والخطابة والكتابة وسائر ألوان الأدب رسالتها الأدبية في هذا المعترك الحافل بأسباب النشاط ، ومجامع العلم (١) والأدب قد تعددت وأثمرت ثمارها في خدمة التراث الإسلامي والأدب العربي .

ولقي الأدب عامة والشعر خاصة عناية من المجتمع العربي الذي كان في ذلك الحين يحل بالأدب والشعر منه منزلة رفيعة ، ولقي نفس العناية كذلك من المغنين ، كما لقي عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده ؛ ولقد أغدق الخلفاء على الشعراء العطاء ، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعرا ، واتخذ كل حزب له شعراء .

ولقد تأثر الأدب عند أهل الأمصار بصورة حياتهم ، فكان لكل حزب سياسي أو طائفة مذهبية من الخوارج والشيعة والزبيرية والمروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر ويخطبون في تأييد نحلتهم ، وخلف مربد البصرة وكناسة الكوفة عكاظ في اجتماع الشعراء والخطباء بهما . كما تأثر الأدب في الحجاز بحياة المترفين من شبانه ، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء ، وما زال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون ولهو .

---

(١) من أعلام هذا العصر : عبيد بن شرية الجرهمي ، محمد بن شهاب الزهري (٥٠ - ١٢٤ هـ) ، ومحمـــد بن سيرين المتوفى عام ١١٠ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى ١١٤ هـ .

وتأثر في البوادي بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز في ثوب الفخر والتباهي والتهاجي والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك .

وتأثر عند العذريين بنزعة نفوسهم فخطر في حلة الشعر العفيف الذي يعتبر من أجمل ماقيل من الشعر العربي .

نهضة الشعر في العصر الأموي :

كانت للشعر دولة عند الجاهليين ، وظلت له مكانته عند الرسول وخلفائه بعد الإسلام .

ثم عني الأمويون به ، وعملوا على ازدهاره ، وبالغوا في رعايته . ذلك لأنهم عرب يهزهم الشعر وتسحرهم بلاغته ويولونه عناية كبيرة ، من جانب ، ولأنه سجل تاريخ العرب وأيامهم ومفاخرهم ومآثرهم من جانب آخر ، ولأنه صار لسان الحياة الجديدة ، بما فيها من أحزاب متصارعة . وعصبيات متضاربة ، ورغبات قوية في إحياء ماضي العرب الأدبي ، وتجديد تاريخهم القومي والعقلي . . ولأنه صار أخيرا وسيلة إلى المال والحياة والعيش الطيب الكريم . .

اشتدت عناية الأمويين ـ خلفاء وأمراء وولاة وزعماء ، ورؤساء ـ بالشعر وعظم تقديرهم للشعراء ، وخصوهم بجزيل العطاء ، وعظيم الصلات ، وعقدوا المجالس لإنشاده وسماعه ، وجلسوا في الندوات المفتوحة لسماع المحاورات بين الأدباء والشعراء حوله . .

ولا شك أن الشعر قد ازدهر في هذا العصر ازدهارا كبيرا .

وكانت مجالس الشعر والشعراء ، فضلا عن سوق المربد ، وكناسة الكوفة ، مفتوحة ، وكان الحديث فيها يدور كثيرا حول الشعراء الجاهليين وأشعرهم ، وحول شعراء بني أمية والشاعر الأول فيهم .. هذا كله فضلا عن خصوبة الحركة الأدبية في العواصم الإسلامية الكبرى ، وخاصة

البصرة والكوفة، إلى عناية القبائل بالشعر إحياء لتاريخها ومفاخرها وأيامها وملاحمها، وكان شعراء القبائل لسانها الناطق، وقلبها الخافق، وسلاحها الرهيب، وجيشها المدافع عن أحسابها وأعراضها.

وإذا كانت مظاهر نهضة الشعر كثيرة فإن من أسبابها:

١ — تعدد الأحزاب، فمن سياسية كالشيعة والأموية والخوارج والزبيرية، إلى أحزاب دينية، ومن بينها: المرجئة والجبرية والقدرية.

٢ — تقدير الحكام للشعراء ورعايتهم لهم، واتخاذ الشعراء ناطقين باسمهم، وتجد مظهر ذلك في كعب بن جعيل الذي اتخذه يزيد شاعر الشام، حيث كان النجاشي شاعر العراق؛ وكان مسكين الدارمي من المؤيدين لبيعة يزيد.. وقد هجا الأخطل الأنصار بأمر يزيد حيث يقول فيما يقول:

ذهبت قريش بالمكارم والعلا — واللؤم تحت عمائم الأنصار

وصار الأخطل بعد ذلك شاعر عبد الملك بن مروان السياسي. كما كان عدي بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك، وقرب الوليد إليه أيضاً أعشى بني تغلب. وكان عبد الرحمن بن حسان شاعر الأنصار.

ومن شعراء زياد بن أبي سفيان: حارثة بن بدر؛ وكان من شعراء الحجاج: جرير والفرزدق؛ ومن شعراء المهلب: كعب الأشقري، وحبيب ابن عوف والطفيل بن عامر؛ ومن شعراء بشر ابن مروان: جرير والفرزدق وكثير وأعشى شيبان؛ ومن شعراء عبد العزيز بن مروان: جميل، ونصيب، وكثير، وابن الرقيات، وأيمن ابن خريم.

وكان من شعراء مكة أبو العباس الأعمى، ومن شعراء المدينة الأحوص، ومن شعراء الكوفة عبد الله الأسدي والكميت، ومن شعراء البصرة: جرير والفرزدق، ومن شعراء الجزيرة: الأخطل والقطامي وأعشى تغلب، ومن شعراء الشام: عدي بن الرقاع، والأخطل.

٣ — ازدهار الثقافة العربية فى مختلف فروع المعرفة والعلم .

٤ — ازدهار الثقافة الأدبية فى الشعر والأدب والنقد والقصص ، وإحياء التراث الأدبى القديم ، وما تبع ذلك من عقد المجالس لسماع الشعر وإنشاده ونقده وروايته ، ومن اهتمام الخلفاء بتربية أبنائهم على الشعر وتذوقه ، حتى كان معاوية يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم (١) ، وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب أبنائه : أدبهم برواية شعر الأعشى ، ويقول لأبنائه : عليكم بطلب الأدب ، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ، وكان خلف وكثير من الرواة يدربون تلاميذهم على قرض الشعر ، وكثر رواة الشعر فى هذا العصر ، ومن بينهم : الشعبى وحماد وأبو عمرو ابن العلاء ، ويونس ، وخلف .

٥ — هذا إلى خصوبة الحياة السياسية وشدة الصراع فيها بين مختلف الأحزاب والعصبيات والطوائف ، وإلى كثرة مظاهر الحضارة ومشاهدها ، وإلى التأثر بالشعر الجاهلى ومناهجه والتأثر كذلك بالقرآن وبلاغته وبالحديث النبوى الشريف وفصاحته أيما تأثر ، وإلى قيام الخصومات الأدبية بين الشعراء ، وإلى اهتمام القبائل بالشعر إحياء لمفاخرها ومآثرها ، وإلى تأثر الشعراء بآداب الأمم الأخرى وبخاصة الفرس .

وكان من آثار هذه النهضة الشعرية ارتفاع منزلة الشعر والشاعر فى عصر بنى أمية ، ونشأة علوم حول الشعر : كرواية الشعر ونقده وتأليف كتب اختيارات فيه ، ومن آثارها كذلك قيام حركات التجديد فى الشعر ، وصقل الشعراء لفنهم وتهذيبهم لأساليب الشعر وتجديدهم فى معانيه وسموهم بأخيلته .

(١) ٢ : ٤١ وفيات الأعيان .

وقد بلغ من سيرورة الشعر وذيوعه فى هذا العصر أن أصبح على كل لسان وفى كل فم ، واحتل بذلك مكانة الصحافة اليوم ؛ وكان أقوى مظهر أدبى فى هذا العصر ، بل أصبح الفن الأول من بين فنون الأدب فى عهد بنى أمية .

بيئات الشعر فى العصر الأموى :

على أن الشعر الأموى إنما كانت بيئاته هى الحجاز ونجد والعراق والشام فهى مهد الشعراء ، وفيها نهضة الشعر ؛ أما مصر وكذلك الشمال الافريقى فلم تحفل بالشعر ولا بالشعراء فى عهد بنى أمية لأنها بيئات جديدة فى الأدب والشعر ، ولم تسترع انتباه الشعراء كثيرا فى هذا العهد .

أما بيئة الحجاز ، فقد اهتم أهلها بالشعر ، وعنوا به وبنقده عناية شديدة ، فكان أن شاع التغنى به ، وظهرت فنون جديدة منه : كالغزل القصصى ، والغزل العذرى . وقد أغدق الخلفاء على شباب الحجاز المال والعطاء ، ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة ، فذاع الترف ، وانتشر النعيم ، وكثر اللهو .

وأما بيئة العراق فكانت صبغتها ثورية ، وانطبع شعرها بالطابع الثورى ، وظهر فيه تبعا لذلك لون جديد هو الشعر السياسى ، الذى كان يدور حول الخصومات السياسية بين الخليفة ومعارضيه من الأحزاب ؛ وقد اهتم ولاة العراق بالشعر وأغدقوا على الشعراء المال ، ومن أشهرهم زياد والحجاج .

وأما بيئة الشام حيث عاصمة الخلافة ومستقر بنى أمية ، وحيث المال والترف ، فقد تساقط عليها الشعراء ، طلبا للرفد ، والتماسا للعطاء ، وطمعا فى المال ؛ وكانت قصائد التهنئة والمدح والفخر تلقى بين أيدى الخلفاء والأمراء والولاة فى دمشق وفى غيرها من مدن الشام العامرة الحافلة بأسباب النشاط .

وأما مصر فلم يبلغ فيها الشعر هذه المنزلة ، مع أن الشعراء كثيرا ما كانوا يفدون على ولاتها مادحين . ومثل مصر شمال إفريقية ، وقد يكون ضياع الشعر فيهما هو سبب ذلك ، ويرى أحمد أمين أن الشعر العربى لم ينتقل من بيئته إلى بيئة أخرى ، وأن الشاعر العربى لم يشعر إلا فى بيئته ، فى الجزيرة العربية وما جاورها ، وهذا خطأ واضح ، فان مصر وفارس وشمال إفريقية كانت بعد قليل من هذا العصر من أهم مراكز الشعر ، على أن الاهتمام بالشعراء وبالشعر هو السبب الأول لنمائه دائما ، فإذا قل من يشجع الشعر ويثيب عليه كان فى ذلك ضعفه ، ولا شك أن الشام والعراق والجزيرة العربية كانت دائما موضع عناية بالشعر واهتمام بالشعراء ؛ على أن الشعر لا وطن له ، فكما ينشأ فى البادية كذلك ينشأ فى المدينة ، وإنما مدار ذلك على ما يلقى الشعراء من تشجيع ، وعلى العناية بحفظ الشعر وتدوينه ؛ وانتقال الشعر من بيئة الحجاز إلى الحواضر الكبرى تبعا لانتقال المسلمين إليها ، أكبر دليل على ما نذهب إليه ، وأقوى رد على أحمد أمين ومن يشايعه .

المؤثرات العامة فى الشعر الأموى :

١ — الدين : تأثر الشعر بالدين والقرآن تأثرا كبيرا فى هذا العصر ، مما أدى إلى التطور فى معانيه وأساليبه وبعض أغراضه .

فالشعر الدينى فى هذا العصر ، وكذلك الغزل العذرى فيهما قبسات من روح الإسلام ، وكذلك نجد لجرير مثل قوله :

صلى الملائكة الذين تخيروا — والطيبون عليك والأبرار

وابن الرقيات يقول :

إنما مصعب شهاب من الله — تجلت عن وجهه الظلماء

يتقى الله فى الأمور وقد أفـ — لح من كان همه الاتقاء

وجميل يقول :

ألا تتقين الله فيمن قتلته — فأمسى إليكم خاشعا يتضرع

والطرماح يقول :

إنما الناس مثل نابتة الزر ع متى يأن يأت محتصده

وقطرى يقول :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

والعجاج يقول فى مطلع أرجوزة له :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

وأعشى همدان يقول فى الحجاج :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا

هذه الأمثلة القليلة تمثل تأثر الشاعر الأموى فى معانيه وأساليبه بروح الدين والقرآن الكريم .

٢ — السياسة : لعبت السياسة دورها الكبير فى الشعر الأموى ، وقامت الأحزاب السياسية العديدة ، وكان الشعر السياسى صدى لها ، وتبعه كذلك شعر النقائض ، وشعر الشعوبية ، وشعر العصبيات القبلية .

٣ — الثقافة : اتسعت الثقافـــة فى عصر بنى أمية ، فشملت الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية ، وتعددت بيئات الثقافة ومواطن العلم : فى مكة والمدينة والحجاز والشام وبخاصة دمشق ومصر والقيروان وطرابلس وتونس والبصرة والكوفة وسواها ، وتصدر حلقات العلم فى الممالك الإسلامية الصحابة والتابعون ، واستفاد العرب من معارف الأمم الأخرى فبدأوا فى الترجمة منها إلى العربية ، وأفاد ذلك كله الشاعر العربى ثقافة فى أفكاره ومعانيه وأخيلته وثقافة فى فنه الشعرى .

وانظر إلى ذى الرمة وكان قدريا يقول باكتساب الإنسان لأفعال نفسه الاختيارية يقول :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان فى بالألباب ماتفعل الخمر

فقيل له : هلا قلت : فعولن ، فأنكر ذلك إنكارا شديدا ، لأنه لو قال : فعولن لكان جبريا ، وهو راغب عن الجبر إلى القول بالقدر .

واتضحت مناهج الشعر أمام الشاعر الأموى بتأثير الثقافة ، وأخذ الشباب يتعلم الشعر كما يتعلم الأدب والخطابة تعلما ، وقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا فى تطور الشعر الأموى .

٤ — الحضارة : ارتقى ذوق العربى،واتسعت نظراته لمشاهد الحضارة فى كل مكان نزل فيه .

فن حضارة فنية وحضارة سياسية وحضارة فكرية ، ومن مخالطة لأبناء الحضارات القديمة ، واتصال بعلومها وتراثها الحضارى .. إلى غير ذلك .

وهذا كله مما أفاد منه الشاعر الأموى سعة الخيال ، ورحابه أفق فى الأفكار والمعانى ، وتنوعا فى الأغراض ، وتجديدا فى الأسلوب والأداء .

وفى البيئات الحضرية أخذت لغة الشعر تميل إلى العذوبة والرقة والسماحة ، وقصد الشعراء الأوزان السهلة ، وتخيروا الرجز لقربه من العقلية الشعبية ... من حيث كان كثير من شعراء البادية يحافظون على الأنماط الشعرية القديمة من جزالة وغرابة وفحولة معان وغير ذلك .

وكان شعر الموالى يجمع بين ثقافات منوعة وعقلية ناضجة ؛ لذلك كثرت فيه المعانى الجديدة والأخيلة البديعة،وذهب بعضه فى الشعوبية ومذاهبها .

ورقى الغناء وتعدد مذاهبه رقت لغة الشعر ، وصار المجال فسيحا أمام الشعراء الغنائيين والعذريين والقصصيين .

٥ — الاقتصاد : كثرت الأموال فى أيدى الشعراء العرب فى العصر الأموى ، وكثرت منح الخلفاء والأمراء والولاة لهم ، وعاش الشاعر الأموى بذلك فى ترف كبير .. وكانت الحياة الاقتصادية فى عصرهم تكاد

تبلغ ذروتها رخاء ورفاهية وسعة فى التجارة والزراعة والصناعة حتى لم يجد الخليفة عمر بن عبد العزيز من يأخذ الزكاة .. فلا عجب أن يعيش الشعراء كما عاش الناس فى عصرهم يتمتعون بفراغ وثراء وجاه ، كان من أثره أن أثرى الشعر ، وتمتع الشاعر بالخيرات الكثيرة فى وطنه ، وبسماع الغناء ، واقتناء الجوارى ، وحسن المظهر . . وكان لذلك أثره فى حياة الشعر والشعراء فى هذا العصر العظيم .

التطور والتجديد فى الشعر الأموى

شمل التطور والتجديد فى الشعر الأموى مايلى :

أولا : الأغراض ـ حيث نشأت أغراض جديدة : كالشعر السياسى ، والغزل العذرى ، والغزل القصصى ، وشعر النقائض ، وشعر الشعوبية ، وشعر الرجز .

وكانت هناك أغراض تطورت فى هذا العصر كشعر المدح والهجاء والفخر والرثاء ، والغزل التقليدى والوصف .

ثانيا : من حيث معانى الشعر وأخيلته .

ثالثا : من حيث ألفاظه وأساليبه .

رابعا : من حيث أوزانه وقوافيه .

وسنتحدث عن كل ذلك بالتفصيل :

١ — أغراض الشعر الأموى

كانت أغراض الشعر الأموى هى أغراض الشعر الجاهلى ، من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف ونسيب وغير ذلك من الأغراض القديمة ، التى نجدها ممثلة فى الشعر الأموى أتم تمثيل .

ومن البدهي أن الشعراء في هذا العصر قد طرقوا جميع الأغراض التي تناولها الشعراء من قبل كالمدح والفخر والهجاء والرثاء والغزل ، ونحو ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر ، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من مظاهر الحضارة وألوان الترف ، وتشكلت بصورة البيئة وأحوال المجتمع وظروف السياسة .

وقد نشأت أغراض لم تكن موجودة من قبل ، كالشعر السياسي الذي كان صدى لهذه الخصومات السياسية . والعداوات القبلية ، والمنافرات الحربية ، وكأنواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل ، وهي الغزل العذري والغزل القصصي ، وألوان من وصف البلاد المفتوحة ، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية ، أو دعوة إلى زهد وتقشف ، مما استدعته مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها . وكالشعر الشعوبي الذي جد في هذا العصر . وشعر الرجز .

فالأغراض الجديدة هي :

١ — الشعر السياسي عند شعراء الأحزاب السياسية كقطري والطرماح ، والكميت وجرير والفرزدق ، والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات .

٢ — شعر الشعوبية أي الذين يسوون بين العرب وغيرهم من العناصر أو يفضلون العجم على العرب ، ومن هؤلاء اسماعيل بن يسار وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسي ، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجي ، وسواهم .

٣ — الغزل القصصي ومن شعرائه عمر بن أبي ربيعة والحارث المخزومي .

٤ — الغزل العذري ومن شعرائه جميل وكثير وقيس بن الملوح وقيس ابن ذريح ، وتوبة العامري صاحب ليلى الأخيلية ، وسواهم .

على أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتأثرت بأحوال البيئات ، ففي الحجاز كثر الترف ، وفاض الثراء ، وشغل شباب الهاشميين بما أتيح لهم من فراغ ونعيم ، عن المطالبة بالملك ، والاشتغال

بالسياسة ، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ومشاهدة الجمال ، فشاع لذلك الغزل العذرى ، والغزل القصصى .

وفى العراق كثرت الأحزاب واضطرمت العصبيات ، واستحكم الخلاف السياسى ، واشتدت المعارضة لبنى أمية ، فكان الشعر صورة واضحة لما يعتمل فى المجتمع من حياة ثائرة ، وفتنة عارمة ، وخصومات عنيفة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الفخر والهجاء ، ويصطبغ بالصبغة البدوية الجزلة ، وفى هذه البيئة ولد الشعر السياسى الذى يعد جديداً فى هذا العصر .

أما الشام فكان مهد الملك ، ومقر الخلفاء ، ومثابة الشعراء ، وكعبتهم التى يحجون إليها ، حاملين ماجادت به خواطرهم ، وفاضت مشاعرهم ، ثم يعودون وقد احتقبوا سنىّ الجوائز ، وعظيم الصلات . وفى ظلال الخلافة بالشام جرت ريح الشعر رخاء ، تطرق أبواب أغراضه الأخرى فى رفق ويسر : من وصف ومدح ونحو ذلك . وسنتكلم عن كل هذه الأغراض بتفصيل :

الشعر السياسى :

قامت خلافة الأمويين على أسنة الحراب والرماح وعاشت كذلك مدة حياتها . تجالد خصوما أقوياء ، وأعداء ألداء ، يجرحونها بالألسنة ، ويقاومونها بالأسنة ، وكان لكل حزب من خصومها شعراء يتعقبون مثالبها ، ويندوون بسياستها ، ويثيرون الحفائظ عليها .

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه ، ويدعو له ، ويؤلف القلوب حوله ، ويهجو خصومه السياسيين ، ويرثى شهداء جماعته .

١ — فهؤلاء الشيعة يقف بجوارهم شعراء كثيرون ، فهذا الكميت(١) ينافح عن بنى هاشم ويدافع عن حقهم فى الخلافة فيقول من قصيدة له مشهورة :

---

(١) الكميت بن زيد الأسدى ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بها وأخذ عن علمائها وأدبائها وروى كثيرا من شعر الأقدمين وأخبارهم . وكان عالما بلغات =

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب
ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب (١)
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب (٢)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء والخير يطلب (٣)
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب (٤)
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مجنا على أنى أذم وأقصب (٥)

= العرب وأنسابها ومفاخرها ومثالبها حتى اقدناظر حادا فى الرواية فغلبه وأفحمه. وقد برع الكميت فى الخطابة والشعر ، وتعصب فى شعره للهاشميين كأكثر أهل الكوفة ، وجاهر بذلك ودافع عن حقهم فى الخلافة وندد بحكم الأمويين ، ومجد آل البيت ومدحهم غير عابئ بغضب بنى أمية ، وقتل عام ١٢٦ هـ ، وكان هارون مولى الأزد يرد على الكميت فى افتخاره بالعدنانية ، ويفخر بقحطان (٧ : ٧٥ الحيوان ـ الخانجى) .

(١) الزجر : الاستدلال على مايتوقع من الحوادث المستقبلة بأصوات الحيوانات وحركاتها وأحوالها ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ولهم فيه قصص أشبه بالخرافات .

(٢) السانحات : الطير المتجه من اليسار إلى اليمين والعرب يتفاءلون بها ويستبشرون . والبارحات ضده ، والأعضب : المكسور القرن .

(٣) النهى جمع نهية ـ بضم النون فيهما ـ وهى العقل .

(٤) خفض جناح المودة : كناية عن كمال الطاعة والحب والامتثال، والكنف: الحمى والموئل ، وعطفاه : جانباه . ومعنى البيت أن الشاعر يميل إليهم ويصفيهم مودته ويجد فيهم أهلا له مرحبين به .

(٥) المجن : الترس يتقى به المحارب ضربات عدوه، وأقصب ـ على البناء للمجهول ـ أشتم وأعاب .

وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها   وإنى لأوذى فيهم وأؤنب

فما ساءنى قول امرىء ذى عداوة   بعوراء فيهم يجتديني فأجنب (١)

فقل للذى فى ظل عمياء جونة   يرى الجور عدلا أين لا أين تذهب (٢)

بأى كتاب أم بأية سنة   ترى حبهم عارا على وتحسب

وقالوا ترابى هواه ورأيه   بذلك أدعى فيهم وألقب (٣)

وأحمل أحقاد الأقارب فيكم   وينصب لى فى الأبعدين فأنصب (٤)

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم   فلم أر غصبا مثله يتغصب (٥)

إذا اتضعونا كارهين لبيعة   أناخوا لأخرى والأزمة تجذب (٦)

أقاربنا الأدنون منكم لعلة   وساستنا منهم ضباع وأذؤب (٧)

---

(١) العوراء : الكلمة النابية أو الفعلة القبيحة . ويجتدينى يطلب منى اتباعه. فأجنب : أمتنع عليه ، والمعنى : أن الأعداء يشتموننى بسبهم ويحاولون صرفى عنهم فلا أستجيب لهم .

(٢) العمياء : الضلالة . والجونة : السوداء . لا أين تذهب . دعاء عليه بألا يعرف قصده .

(٣) ترابى : نسبة إلى أبى تراب وهو على رضى الله عنه .

(٤) ينصب لى فيكم - بالبناء للمجهول - أعادى وأحارب .

(٥) تجوز : تنفذ وتمضى . يتغصب : يغتصب .

(٦) أتضعونا أخضعونا . أناخوا لأخرى : دبروا الأمر لبيعة أخرى . والأزمة : جمع زمام . وتجذب : تؤخذ غلابا ، والمعنى أنهم يكرهون الناس على البيعة لأمرائهم واحدا بعد آخر ويتوسلون لذلك بالحيلة والقهر .

(٧) العلة : بكسر العين - الحدث يشغل صاحبه عن رعاية شئونه: والأذؤب. جمع ذئب . والمعنى : أنهم شغلوا الهاشميين بالأحداث المتتابعة من قتل واضطهاد وتشريد ، وانطلقوا هم كالوحوش الضارية يبطشون بالناس ويخيفونهم .

لنا قائد منهم عنيف وسائق ... يقحمنا تلك الجرائم متعب (١)
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب (٢)
يرون لهم حقا على الناس واجبا ... سفاها . وحق الهاشميين أوجب (٣)

والقصيدة هذه هي إحدى هاشميات الكميت ، وهي من عيون الشعر العربي وروائعه ، وقد اكتسبت شهرة كبيرة ، وهي إحدى نماذج الشعر السياسي الذي نشأ في هذا العصر .

٢ — وهؤلاء الخوارج يقفون دائماً للدولة كالشجى في الحلوق ، والقذى في العيون ، ترصد لهم الدولة أعتى القوى ، وأنضى الأسلحة ، فلا تستطيع أن تخضد لهم شوكة ، أو تضعف لهم قوة ، أو تسكت لهم لساناً . فهم بما تغلغل في قلوبهم من عقيدة ، واستقر في نفوسهم من مذاهب ، لا يفتأون يجالدون الحاكين في عنف ، ويصارعون مخالفيهم في الرأى ، في قسوة مرة وصلابة عنيفة ، وهذا قطرى بن الفجاءة يصف موقعة دارت فيها رحى الحرب بينهم وبين أهل البصرة ، في يوم دولاب ، وهي بلدة بالأهواز ، في قصيدته التي يقول فيها :

لعمرك إني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

فهو بهذا يعتبر أعداء حزبه كفاراً ، تستباح دماؤهم ، ويعد قتلى الخوارج شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم .

---

(١) المراد بالقائد والسائق : الخلفاء والولاة . ويقحمنا : يكلفنا ويحملنا . والجرائم : جمع جرثومة وهي التراب المجتمع في أصول الشجر تسفيه الريح فيتأذى الناس منه . (٢) ورثناها : أي الخلافة .
(٣) سفاها — بفتح أوله — جهلا وخفة حلم .

وهذا عمران بن حطان (٨٩ هـ) وكان مغالياً فى التعصب على (علىّ) يمدح ابن ملجم قاتله :

لله در المرادى الذى سفكت | كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشـــاه بضربته | مما جناه من الآثام عريانا
ياضربة من كريم ما أراد بها | إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه | أوفى البرية عند الله ميزانا

٣ — وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس فى ابتداع هـذه البدعة ، واستنان هذه السنة ، وإثارة الشعراء وتحريضهم على خصومهم : أثاروا الأخطل شاعرهم على الأنصار ، فهجاهم بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها | واللؤم تحت عمائم الأنصار

مما اضطر النعمان بن بشير الأنصارى إلى الدخول على معاوية ، متألماً شاكياً ، قائلا فى قصيدة له :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة | سترقى بها يوماً إليك السلالم

وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين ، وينتقدون سياستهم ، وكان شعراء الأمويين الكثيرون ، يصدون هـذه الحملات ، ويردون على هذه الانتقادات ، ويمدحون بنى أمية ، ويهجون خصومهم ، فهذا أعشى ربيعة . يقول فى مدح عبد الملك وهجاء الزبيريين :

آل الزبير من الخلافة كالتى | عجل النتاج بحملها فأحالهـــا
أو كالضعاف من الحمولة حملت | ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تنامو عنهمو | كم للغواة أطلتمو إمهالها
إن الخلافة فيـــكمو لافيهمو | مازلتمو أركانها وثمالهـا
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا | فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وهذا الأخطل يقول :

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا	أبدى النواجذ يوماً صارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطر
فى نبعة من قريش يعصمون بها	ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف	إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
لا يستقل ذوو الأضغان حربهمو	ولا يبين فى عيدانهم خور
شمس العداوة حتى يستقاد لهم	وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
بنى أمية نعماكم مجللة	تمت فلا منة فيها ولا كدر

وهذه القصيدة تكاد تختصر فنون الأخطل الشعرية كلها ، وهى التى مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير وكان لها ولأخرى مثلها فى الأدب العربى وحياة القبائل العربية شأن عظيم ، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال فى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر فى آثارهم ويتبعهم طرفه كئيباً مولها ، فشبه نفسه فى هذه اللحظة بالسكران قد عبثت به الخمر ، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره ، وانتهز هذه الفرصة فوصف الخمر وصفاً قصيراً جيداً ، ثم انتقل إلى صاحباته اللاتى ارتحلن فشبب بهن تشبيباً قصيراً حسناً وألم بشىء من أخلاق النساء وإيثارهن للشباب وانصرافهن عن الكهول والشيوخ ، فقال :

ياقاتل الله وصل الغانيات إذا	أيقن أنك ممن قد زها الكبر
أعرضن لما حنى قوسى موترها	وابيض بعد سواد اللمة الشعر

ما يرعوين إلى داع لحاجته ... ولا لهن إلى ذى شيبة وطر

ثم يصف طريقهن ويخلص من هذا كله إلى مدح عبد الملك وتهنئته بالفوز وإثبات حقه فى الخلافة فيقول :

إلى امرىء لاتعرينا نوافله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر

ويمضى فى مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود ، وإيثار المسلمين بالخير والمهارة فى تدبير الأمور ، وقيادة الجيوش وقهر العدو ، ويقص من ذلك ماكان فى حرب عبد الملك لمصعب حتى تم له النصر ، فإذا أرضى عبد الملك انتقل إلى بنى أمية عشيرته فدحهم أحسن مدح وأجله ، وصور من أخلاقهم ما أعجب به المعاصرون جميعاً حتى عدوا الأخطل فيه أشعر العرب وذلك قوله :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير ، ولكن لها آثارا سيئة لم تزل بعد ، وما زال فى المنهزمين مكر وخداع وكيد . فالأخطل يحذر بنى أمية من هؤلاء المنهزمين ، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن بلائه حين دافع عنهم الأنصار ، فيقول :

بنى أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
أفحمت عنكم بنى النجار قد علمت ... عليا معد وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم منى على مضض ... والقول ينفذ مالا تنفذ الابر
بنى أمية إنى ناصح لكم ... فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

والأخطل شديد الحرص على أن تجنى قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر عبد الملك ببلاء تغلب فى الحرب فيقول :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

ويمضى بعد ذلك فى هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة فى المواقع المختلفة تصويراً دقيقاً فيه شدة وسخرية لاذعة ، حتى إذا فرغ من قيس التفت إلى أنصارهم من كليب رهط جرير — الذى كان يدافع عن قيس بلسانه — فيهجوهم هجاء مرا مقذعا . وبذلك تنتهى هذه القصيدة الرائعة .

ولقد كان الأخطل من تغلب ، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة وشمالى الشام ، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية من قيس ، فزاحمت فيها ربيعة كما زاحمت فيها العرب اليمانية ، وكانت هذه القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بنى أمية ، فاتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية فى الشام والجزيرة والعراق ، حتى تم النصر لعبد الملك على مصعب بن الزبير .

ومن هنا كان شعر الأخطل السياسى ذا لونين مختلفين ، فأما أحدهما فالدفاع عن حزب بنى أمية والنضال عن سلطانهم وتثبيت حقهم فى هذا السلطان ، وأما الثانى فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين فى الشام ، والإلحاح فى هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

وحياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق فى فنون من الشعر لم يكد يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه ، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك ، وكان بحكم هذا الاتصال أيضا أقدر أهل عصره على النضال السياسى ، وكان بحكم حياته الخاصة فى قبيلته واشتراكه الفعلى فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة .

والأخطل من فحول الشعراء الإسلاميين ومن رواد الشعر السياسى

فى عصر بنى أمية ، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلبى ، ولد فى خلافة عمر فى قبيلة تغلب التى كانت تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت تدين بالنصرانية ، فأقرها عمر على نصرانيتها ، وقبل منها الجزية ، وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية فى الجزيرة ، ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلا فهجا امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل ، فلما كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبنى أمية احتاج يزيد بن معاوية ولى العهد حينئذ إلى شاعر يهجو له الأنصار ، فدل على الأخطل فكلفه ذلك ، وقبله بعد أن نكل عنه غيره من الشعراء المسلمين تحرجا من هجائهم ، قبل الأخطل هذه المهمة لنصرانيته ، فهجا الأنصار وألح فى هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتى شفى نفس يزيد ، وتعرض هو لخطر عظيم ، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميراً وخليفة حتى مات ، ثم اتصل بخلفاء بنى أمية بعده ولا سيما عبد الملك بن مروان ، وفى عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه فى الشعر ، حتى هابه المضريون وحسبوا له حسابا ، وحتى آثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعاً ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، ذلك أنه ناصر بنى أميـــــة وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل ، وبينما كان نضاله للأنصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الحظوة فيه ، كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عملا صادقا مخلصا يدافع به عن مصالح قبيلته ومكانتها :

وكان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين ســــواهم من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمق فيه ، وامتاز بإجادة المديح والإبداع فى معانيه والتنويع فى ضروبه والتريث فيه ، حتى ربما لبث فى بعض مدحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يكر

عليها بالتمحيص والاختيار ، حتى يحذف منها ستين ويبق الثلاثين ، كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها . ولم يقصر فى الهجاء عن صاحبيه كثيراً وفضلهما بقلة التعرض للفحش والبذاءة ، ولكنه كان دونهما فى بقية فنون الشعر ، كالرثاء وغيره . وليس الأخطل سوى سبع مطولات أدركهما بها . ولذلك لم ير قدماء أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما فى التصرف فى سائر أبواب الشعر (١) .

٤ — وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات (٢) يمدح حزب الزبيريين، ويأسى لانقسام قريش ، ويذم الأمويين وأهل الشام ، وينعى عليهم عدوانهم على الكعبة المكرمة ، ويمدح مصعب بن الزبير ، فيقول من قصيدة له :

أيها المشتهى فنـــاء قريش ... بيـــد الله عمرها والفنـاء
إن تودع من البـلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحى بقـاء

(١) من المصادر لدراسة شعر الأخطل :
شعراء النصرانية بعد الإسلام ، الشعر والشعراء ، جمهرة أشعار العرب ، طبقات الشعراء لابن سلام ، شعر الأخطل لأنطون صالحانى ، الأخطل لفؤاد البستانى بيروت ١٩٢٦ ، الروائع عدد ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ، شعراء البلاط الأموى لعمر فروخ ، الأخطل لحنا نمر سلسلة الطرائف الأدبية ، رأس الأدب المكلل فى حياة الأخطل لعبد الرحيم محمود ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشى ولد بمكة . ثم انتقل فى أول شبابه إلى المدينة وظل بها زمنا ، ثم رحل إلى الجزيرة والعراق ، وحينما خرج عبد الله ابن الزبير على الأمويين انضم عبيد الله إليه . وحارب فى جيش مصعب . وحرض على القتال واشتد فى شعره على بنى أمية . ولما قتل مصعب وهزم الزبيريون استشفع لدى عبد الملك بن مروان حتى عفا عنه ، ثم سافر إلى مصر ومدح عبد العزيز بن مروان ، واكتسب لديه حظوة عظيمة ، وأكثر شعره فى المدح والسياسة ، وسمى بابن قيس الرقيات لأنه تغزل فى ثلاث نساء اسم كل منهن رقية ، وتوفى عام ٧٥ هـ .

لو تقفى وتترك الناس كانوا … غنم الذئب غاب عنها الرعاء(١)
هل ترى من مخلد غير أن الـ … ـله يبقى وتذهب الأشياء
يأمل الناس فى غد رغب الدهـ … ـر ، ألا فى غد يكون القضاء(٢)
عين فابكى على قريش وهل يرجـ … ـجع ما فات – إن بكيت – البكاء ؟
لو بكت هذه السماء على قو … م كرام بكت علينا السماء
معشر حتفهم سيوف بنى العلـ … ـلات يخشون أن يضيع اللواء(٣)
ترك الرأس كالثغامة منى … نكبات تسرى بها الأنباء(٤)
مثل وقع القدوم حل بنا فالـ … ـناس مما أصابنا أخــــلاء
ليس لله حرمة مثل بيت … نحن حجابه عليه الملاء(٥)
خصه الله بالكرامة فالبا … دون والعاكفون فيه سواء
حرقته رجال لخم وعك … وجذام وحــــمير وصداء(٦)
فبنيناه بعــــد ما حرقوه … فاستوى السمك واستقل البناء(٧)

(١) تقفى – بضم أوله – تدبر وتولى وتذهب ، وأصله أن المدبر يولى الناس قفاه . والرعاء : جمع راع .
(٢) رغب الدهر : رغائبه .
(٣) الحتف : الهلاك والموت . والعلات : جمع علة – بالفتح فيهما – وهى الضرة ، وبنو العلات أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى ، والمراد هنا الأقارب مطلقا . واللواء : السيادة والملك .
(٤) الثغامة – كالنعامة – شجرة بيضاء الزهر ، والمراد : أن هذه النكبات قد أشابت رأسه من شدة هولها .
(٥) الملاء : جمع ملاءة – بضم الأول فيهما – وهى الثوب اللين من قطعة واحدة . والمراد : الستر .
(٦) لخم – بفتح فسكون – وجذام – بضم أوله – ، وحمير بكسر فسكون – ، وصداء – بضم الأول – قبائل وأحياء يمنية . وعك – بفتح أوله – نزارية .
(٧) استوى : استقام . والسمك : السقف . واستقل : ارتفع .

إنما مصعب شهاب من الل ... ه تجلت عن وجهه الظلماء.(١)
ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء.(٢)
يتق الله في الأمور وقد أف ... لح من كان همه الإتقاء.
كيف نومي على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء.(٣)
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن براها العقيلة العذراء.(٤)
أنا عنكم بنى أمية ومزور ... ر وأنتم في نفسي الأعداء.
إن قتلى بالطف قد أوجعتني ... كان منكم لئن قتلتم شفاء.(٥)

والشاعر هنا كما رأيناه يذكر ذلك العهد القديم في أسف شديد، لافتراق الرأي واختلاف الهوى. وهو يفخر بملك قريش ويرى أنه قوام الدولة؛ وحياة الشعوب الإسلامية، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي في حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته، وهو إذاً إنما يمدح مصعب بن الزبير ويناصره لأنه ماض في هذه السنة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها، وعبيدالله بن قيس الرقيات مبتكر في الشعر السياسي حسن الابتكار.

وكان عبيد الله بن قيس الرقيات قرشياً من بني عامر بن لؤى وكان حريصاً قبل كل شيء على أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة، وإلى أن تكون أهواء قريش مؤتلفة، وآراؤها مجتمعة ... وابن الرقيات من ألطف الشعراء الأمويين روحا، وأعذبهم أسلوبا، وأيسرهم شعرا، وأخفهم ظلا..

---

(١) الشهاب : الكوكب. وتجلت : زالت وانكشفت.
(٢) الجبروت : القسر والطغيان.
(٣) شعواء : شديدة منتشرة.
(٤) تذهل : تشغل وتنسى. والبرى : جمع برة - بضم الأول فيهما - وهي الخلخال، وتطلق كذلك على القرط والسوار. والعقيلة : الكريمة المخدرة. والعذراء : البكر.
(٥) الطف : موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب بن الزبير وجيش عبد الملك بن مروان. وانتهت بقتل مصعب وكثير من رجاله.

وبعد فهذا اللون من الشعر بحر زاخر ، تلاطمت أمواجه ، وتدافعت أثباجه في هذا العصر المضطرم بألوان العصبيات السياسية والقبلية ، وحسبنا هذه القطرات التي تشف عن أهم عناصره ، وأوضح مناحيه ، من مدح مشوب بالتحريض ، أو هجاء توحي به الأحقاد ، أو جدل حول فكرة سياسية ، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية ، فهو بهذه الألوان المتعددة ، والمعاني المتنوعة ، والكثرة الزاخرة ، يعد غرضا جديداً في هذا العصر .

شعر الشعوبية :

ولقد كانت قسوة الدولة على الموالي في هذا العصر واعتزازها بكل ماهو عربي ، واحتقارها لكل ماهو أعجمي ، وأنفتها منه ، مما جعل الموالي يضمرون العداوة للعرب ، وإن منعتهم قوة الدولة ، وعنفوان سلطانها ، أن يظهروا بهذه العداوة وأن يعلنوا تلك الخصومة ، ولقد كان يجري على ألسنتهم أحيانا ما يعبر عما يستكن في نفوسهم من ضغينة وموجدة على العرب ، ويحاولون أن يظهروا مجد قومهم ، في عصبية لأجناسهم واعتزاز بشعوبهم . وقد سمى هؤلاء « شعوبيين » (١) . ومن هنا بدأ يظهر لون جديد من ألوان الأدب ، وغرض مستحدث من أغراض الشعر ، هو الشعر الشعوبي ، وقوامه الطعن على العرب ، والاعتزاز بالأعاجم وخاصة الفرس ، والإشادة بحضارتهم ومجدهم وما كان لهم من ملك وسلطان .

وقد اتسع هذا اللون من الشعر اتساعا شاملا في العصر العباسي حتى خلف ثروة ضخمة من الشعر العربي .

---

(١) نسبة إلى الشعوب جمع شعب ، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة ؛ أو من الشعوب في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل » ، على أن المراد بالشعوب العجم وبالقبائل العرب .

ومن شعراء الشعوبية فى العصر الأموى : إسماعيل بن يسار (١١٠ هـ) وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسى ، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجى .

دخل إسماعيل بن يسار على هشام بن عبد الملك فى خلافته ، فأنشده شعرا منه :

إنى وجدك ماعودى بذى خور عند الحفاظ، ولاحوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لايقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرم بتاج الملك معموم (١)
من مثل كسرى وسابور الجنود معا والهرمزان : لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا مــــلوك الترك والروم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائيم

فغضب هشام ، وقال : أعلىَّ تفخر ، وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه فى الماء ، فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه من وقته إلى الحجاز (٢) .

وقال إسماعيل فى قصيدة أخرى :

رب خال متوج لى وعم ماجد مجتدى كريم النصاب
إنما سمى الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر ياأمام علينا واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب

---

(١) القرم : السيد الكريم . معموم : معتم بالعمامة .
(٢) الأغانى صـ ١٢ جـ ٤

الغزل (١) :

شاع الغزل فى العصر الأموى ، وتعـــددت ألوانه ، واتسعت مظاهره : بل إنه أخذ مظهرا جديداً لم يكن له من قبل ، فقد وجد شعر الغزل مستقلا لايشركه غرض آخر ، وظهرت وحدة الغرض فى القصيدة الغزلية كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل ، لايقولون فى غيره ، ولا يطرقون باباً آخر سواه ، فكل خاطرة من خواطرهم،وكل نزعة من نزعاتهم لاتتصل إلا بالمرأة ، وكل لفظة من ألفاظهم لاتصف إلا جمالها الفاتن ، وحديثها العذب ، وحبها المبرح ، ووصالها الحلو ، وصدها المضنى ؛ وقد انقسم الغزل فى هذا العصر أقساما ثلاثة :

---

(١) الغزل والنسيب والتشبيب ليست بمعنى واحد . أما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن،وليس فيما ذكرته فى شىء ، وقد نبه على ذلك قدامة فى نقد الشعر (٧٣ نقد الشعر ، و ١١ : ٢ العمدة) ؟ فالغزل التصابى والاستهتار بمودات النساء (٧٣ نقد الشعر) ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة (١١٠ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم) ؛ والنسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن (٧٣ نقد الشعر) فهو أثر الحب وتبريح الصبابة (١١٠ محمد هاشم) ؛ والتشبيب يجوز أن يكون من ذكر الشبيبة وأصله من الارتفاع ويجوز أن يكون من الجلاء يقال شبب الخمار وجه الجارية إذا جلاها ووصف ماتحته من محاسنه (٢٢١ : ٢ العمدة) وهو مايقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ومايضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم والأطلال (١١٠ محمد هاشم) .

وفى رأيى أن الغزل والنسيب والتشبيب ثلاثتها بمعنى واحد هو وصف الجمال والحب وأثرهما فى النفوس وتصوير عواطف الشاعر أمامهما ، وآماله وآلامه التى يقاسيها فى سبيلهما ، ويسير على ذلك الرأى الأستاذ محمود مصطفى (٢٧٥ الأدب العربى فى العصر الإسلامى) .

١ — الغزل التقليدى :

وهو هذا النوع من الغزل الذى ينظمه الشاعر فى وصف المرأة أو الحنين إليها ، أو مايكون له معها من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، وإطماع وامتناع : وإن لم يبرح به هوى ، أو يستبد به حب ، أو تضنيه صبـــابة .

وهذا النوع ليس جديدا فى هذا العصر ، وإنما كان استمرارا لمذهب الشعراء القدامى من الجاهليين ، كما ظل كذلك فى جميع العصور . ومعظمه فتحت به القصائد ، وقد يكون غزلا مستقلا يعبر عن مشاعر النفس وحنينها إلى من تحب .

وشعراء هذا اللون كثيرون فى هذا العصر ، منهم جرير والفرزدق والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وذو الرمة ، وغيرهم .

ومن القصائد المشهورة فى هذا الباب قصيدة ابن الدمينة الدالية . . وفيها يقول ابن الدمينة عبد الله بن عبيد الله العامرى التيمى الشاعر الأموى المشهور [١] يحن إلى نجد :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ؟   لقد زادنى مسراك وجدا على وجد [٢]
ألأن هتفت ورقاء فى رونق الضحى   على فنن غض النبات من الرند

---

(١) شاعر من شعراء بنى أمية دقيق النسيب ، مجيد فى الغزل ، مشهور فى روائع قصائده الغزلية . والدمينة أمه .

(٢) الصبا : القبول . وهى تهب من قبل الشرق ، وهجت : ثرت . ومسراك : سيرك ، يقول : متى هبت أيتها الريح لقد زادنى سيرك شوقا وجدد لى هيوبك ما كنت أقاسيه من تباريح الغرام والوجد .

بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن … جزوعاً وأبديت الذى لم تكن تبدى(١)
وقد زعموا أن المحب إذا دنا … يمل .. وأن النأى يشفى من الوجد(٢)
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا … على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع … إذا كان من تهواه ليس بذى ود

وفى هذه الأبيات تبدو خصائص الغزل الأموى واضحة من الرقة والعذوبة والجمال وفرط الصبابة، ولوعة الهيام، وكثرة إرسال العبرات.

والغزل يتطلب الرقة والعذوبة، وقد كان ابن الدمينة هنا موفقاً فى اختيار ألفاظه وأساليبه، التى تمثل قلباً آده الحب، وصدراً انطوى على أنبل العواطف الإنسانية وأكرمها؛ وكأنما كان ابن الدمينة فى هذه الأبيات ممثلا لتأثير الإسلام والقرآن فى الأدب، فإن هذه الروحية الصادقة، وتلك العاطفة المشتعلة، وهذه المشاعر المؤثرة كل ذلك أثر من آثار روحية الإسلام وتأثيره الشديد فى نفوس الشعراء.

---

(١) يخاطب نفسه لائما لها ومنكراً عليها فيقول: أتبكين بكاء الصبى وتظهرين الجزع، لأن حمامة سجعت على غصن ضحى وعهد الناس بك أنك جلد دائم الصبر. وهتفت: صاحت. وورقاء: حمامة فى بياضها سواد، ورونق الضحى: حسنه. والفنن: الغصن الغض الناضر الطرى، والرند: ضرب من الشجر. ومعنى البيتين: أتبكى كما يبكى الحزين أو الطفل الوليد لأنك سمعت ورقاء تهتف فى الضحى على أليفها الحبيب، وقد كنت ليس من عادتك البكاء أو الحزن.

(٢) أى زعم الناس أن الدنو من المحبوب وطول الإقامة معه يورث المحب ملالا وأن النأى عنه يحدث فى النفس سلوا، وقد تداوينا بكل واحد من ذلك فلم ينجع الدواء وتفاقم الداء إلا أنى وجدت القرب خيراً من البعد لأن فيه إحياء الأمل، على أن تقارب الدار لايجدى شيئا إذا كان المحبوب لايرعى ودا ولا يحفظ عهداً.

يحن الشاعر إلى نجد ، ويبكى لفراق أحبابه ، ويصبو إليهن فيه ، ومن ثم استقبل صبا نجد ، وسألها عن وقت هبوبها من هذا الوطن الحبيب ، وبثها ما حملته نفسه من وجد على وجد ؛ ومن شأن المحب المفارق أن يقف على السبيل يتنسم الريح ، ويستنشى بها عند ماتهب عليه قادمة من ديار أحبابه ، يؤثر مسراها فى نفسه وأعماق وجدانه ، ولولا سذاجة الخيال فى شعر ابن الدمينة لظننا أنه شاعر مترف متحضر ؛ ومن مظاهر هذه السذاجة قوله : « بكيت كما يبكى الوليد » . ومن مظاهر الترف والجمال فى الألفاظ قوله : هتفت ورقاء — رونق الضحى — فنن غض النبات ؛ إلى غير ذلك كله ، ومن مظاهر هذه السذاجة كذلك وصفه لحيرته ، حيرة هذا المحب المحروم من يحب ، على البعد والقرب على السواء ، وذلك فى بيته . « وقد زعموا » والبيت الذى يليه .

ومن مشهورات قصائد هذا الغزل التقليدى كذلك قصيدة الصمة بن عبد الله القشيرى .

والصمة بن عبد الله القشيرى شاعر غزل عفيف مقل نشأ بالبادية فتربى على الشجاعة والمروءة وعزة النفس ودرج فى معاهد الصبا مع ابنة عمه ريا فأحبها وكلف بها ، ثم خطبها إلى أبيها فاشتط فى المهر ، وركب أبوه رأسه فأبى أن يدفع المهر كاملا ، وتمادى الشيخان فيما ذهبا إليه ، فرأى الشاعر المتيم أن الإقامة بينهما لؤم ، وعزم أن يرحل إلى الشام لعل النأى عن دار الأحبة يسليه عنهم ويشفيه من جوى الحب ، فلما كان فى بعض الطريق ووجد دارها قد غابت واعترضت الجبال بينهما وتحركت بنات الشوق وهتفت دواعى الصبابة كاد قلبه يطير وكبده من شدة الوجد تذوب ، وقال هذه الأبيات التى تعبر عن الحزن العميق والداء الدفين . قال الصمة :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت   مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا … وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا (١)
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى … وقل لنجد عندنا أن يودعا (٢)
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا … وما أحسن المصطاف والمتربعا
ولست عشيات الحمى برواجع … عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا … وجالت بنات الشوق يحنن نزعا (٣)
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها … عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى … وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا (٤)

---

(١) الحنين : ألم الشوق . المزار مكان الزيارة . والشعب القبيلة . وحسن مبتدأ، وأن تأتى فاعل سد مسد الخبر، ويجوز أن يكون مبتدأ وحسن خبره . وقوله أن داعى الصبابة : أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وداعى الصبابة أسمع خبره . ومعنى البيتين : حننت إلى ريا وأنت آثرت البعد عنها وليس بجميل أن تختار الفراق طائعا ثم تجزع لأن داعى الشوق أسمعك وحرك منك مشاعرك .

(٢) يخاطب رفيقيه فى السفر ويسألها أن يقفا لتوديع نجـــد وساكنى الحمى منه ، ثم قال : قليل لنجد وساكنيه التوديع لأن حقهما أعظم من ذلك . والحمى : موضع فيه ماء وكلأ يمنع منه الناس . والمعنى : « وليست عشيات الحمى برواجع عليك ، إنك وإن أفرطت فى الجزع فان أيام وصلك لاتكاد تعود ، فتوجع لها وابك فى آثارها تجد فى البكاء راحة مما تعانى من الوجد ومن حرقة الحب » .

(٣) البشر جبل . وأعرض : أبدى عرضه . وجالت تحركت ، وبنات الشوق مسبباته ، والمعنى لما تباعدنا عن نجد وحجز بيننا وبينه هذا الجبل وتحركت بنات الشوق نوازع كثيرة الحنين ، بكت عينى الصحيحة وهى اليسرى ، فلما سألتها أن تكف شاركتها أختها فى البكاء ، وأشار بهذا إلى عصيان نفسه عليه وأن اللوم يزيدها تماديا .

(٤) الليت صفحة العنق . والأخـــدع عرق فيها . يقول مازلت ألتفت نحوهم حتى وجدتنى وجع العنق ، وانتصب ليتا على التمييز ، ثم قال : وأتذكر أوقاتى بالحمى ، حين كان الدهر مسعدا والحبيب مسعفا مقاربا ثم انثنى على كبدى واضعا يدى عليها مخافة تصدعها ، شوقا إلى وصالها وحسرة على مافاتنى منها .

وأذكر أيام الحي ثم أنثني　　على كبدى من خشية أن تصدعا

وهذه القصيدة من اختيارات أبي تمام ، صدر بها باب النسيب ، وهي جديرة بذلك ، فهي على قلة أبياتها تصور لك الحنين إلى الإلف ، وحيرة نفوس المحبين وتمثل العادات العربية التي تطوى القلوب على الصبابة ، وتتحكم فيها الخيلاء الكاذبة وتعبر عن شعور المرء بالكرامة وتحمله في سبيلها مالا يطيق من الآلام .

إن الشاعر في هذه الأبيات لايلجأ إلى الخيال ليؤثر عليك بل يندر أن تجد فيها صورة خيالية . إنما اتخذ الحقيقة وسيلة للتعبير عن معانيه ، وهي مع ذلك تؤثر فينا تأثيراً قوياً لصدقها في التعبير عن شعور صاحبها وقرب معانيها من نفوسنا وعذوبة ألفاظها على ألسنتنا وحسن نغمها وجمال جرسها في مسامعنا .

وتصور هذه الأبيات نفوساً كريمة حكم عليها القضاء ولعبت بها الأهواء فخرجت من ديارها ونزحت عن أوطانها وغلبها حنين لايدفع ولوعة من أثر الفراق لاتغالب ، وأصحابها لايملكون إلا أن يرسلوا عبرات تخفف عن نفوسهم ألم الحب وتطفىء ما يتقد بين جوانحهم من نار الفراق .

ومن هذا الغزل قول أبي صخر الهذلي :

أما والذى أبكى وأضحك والذى　　أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى　　أليفين منها لايروعهما الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة　　ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها　　فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ومن الغزل الذى كانت تفتتح به القصائد قول ابن قيس الرقيات يمدح عبد العزيز بن مروان حيث قال في مطلع قصيدته :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه　　وميله في الهوى وفي لعبه

وهذا ذو الرمة يمدح بلال بن أبى بردة الأشعرى ، فيقول فى المطلع :

أراح فريق جيرتك الجمالا ... كأنهمو يريدون احتمالا

وهذا جرير يجيد الغزل مع دينه وعفته فيقول :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا ... وقطعوا من حبال الوصل أقرانا
حى المنازل إذ لانبتغى بدلا ... بالدار دارا ولا الجيران جيرانا
إن العيون التى فى طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا
يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية ... تأتيك من قبل الريان أحيانا

٢ — الغزل القصصى :

جرى بعض من شعراء هذا العصر فى ميادين اللهو والمجون ، مستجيبين لما يتردد فى نفوسهم من شهوات عارمة ، ونزوات طارئة ، فراحوا يتتبعون الحسن فى كل مكان ، ويترصدون الجمال فى كل موطن ، ويطاردون النساء فى كل واد . لايحجزهم قيد من دين ، ولا فرق من سلطان . وأخذوا يقصون ما قارفوا ، ويصفون ما شاهدوا ، أو يتخيلون ما يشتهون من متع تنزع إليها غرائزهم : ويصورون ذلك قصائد رائعة تفيض بالعبث والمجون ، وتزخر باللذات العارمة ، وتثير الفتنة النائمة ، وتوقظ الشهوة الغافية .

وقد شاع هذا اللون الماجن من الشعر فى الحجاز ، ولعل السبب فى ذلك أن خلفاء بنى أمية قد احتجزوا هناك شباب الهاشميين ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وأغرقوهم بالخيرات الكثيرة ، وسلطوا عليهم الفراغ والغنى . ليصرفوهم عن شئون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شرقوا بالنعيم ،

وأتخموا بالترف، وضاقوا بالفراغ، انصرفوا إلى مجالس الغناء، وتتبع النساء، ومغازلة الحسان، والتعرض لهن في كل مكان.

وهكذا شاع هذا اللون وذاع، حتى شغل الناس به، وفتن النساء بروعته وسحره، وحتى كانت كل امرأة محجبة محصنة، تتمنى أن يقال فيها شعر، تتباهى به على أترابها، وتفخر على لداتها.

والشاعر القصصي، لا يتعلق قلبه بامرأة واحدة ولا يقف حياته على محبوبة بعينها، وإنما يقطف من كل بستان زهرة يانعة متأرجة، فهو يهيم بامرأة يعجبه حسنها ويستهويه جمالها، حتى إذا رأى أخرى أعجبه منها معنى آخر، طار إليها، وتعلق بها، وهكذا لا تشبع نفسه، ولا يقنع حسه.

وقد شاع في هذا النوع الإباحي من الغزل الفن القصصي، وهو وإن اتكأ على دعامة جاهلية من شعر امرىء القيس، فقد استكمل عناصر القصة، وحبك أطرافها، واستوفى شخوصها، ورسم لها الألوان والظلال، التي تستثير المشاعر، وتهيج العواطف. وزعيم هذه الطائفة عمر ابن أبي ربيعة.

ومن شعراء الغزل القصصي أيضاً الحارث بن خالد المخزومي، ومن أشهر قصائد الغزل القصصي قصيدة عمر بن أبي ربيعة العينية.

يقول عمر بن أبي ربيعة فيها من غزله القصصي حيث تغزل وقص حديثاً طريفاً له مع بعض النسوة:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعا(١)

(١) الطلل: ما بقي من آثار الديار ويجمع على طلول وأطلال. والمتربع منزل القوم في وقت الربيع. وحليات ـ بضم الحاء وفتح اللام وتشديد الياء ـ اسم موضع، ودوارس: جمع دارس وهو الذي عفا وتغيرت معالمه. والبلقع: القفر.

إلى السفح من وادي المغمس بدلت　　معالمه وبلا ونكباء زعزعا (١)
فيخلن أو يخبرن بالعلم بعدما　　نكأن فؤادا كان قدما مفجعا (٢)
بهند وأتراب لهند إذ الهوى　　جميع وإذ لم نخش أن يتصدعا (٣)
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه　　كما صفق الساقي الرحيق المشعشعا (٤)
وإذ لانطيع العاذلين ولا نرى　　لواش لدينا يطلب الصرم مطمعا (٥)
تنوعتن حتى عاود القلب سقمه　　وحتى تذكرت الحديث المودعا (٦)
فقلت لمطريهن بالحسن إنما　　ضررت فهل تسطيع نفعا فتنفعا
وأشريت فاستشرى وإن كان قد صحا
فؤاد بأمثال المها كان موزعا (٧)
وهيجت قلبا كان قد ودع الصبا　　وأشياعه فاشفع عسى أن تشفعا (٨)
فقال تعالى انظر فقلت وكيف بي　　أخاف مقاما أن يشيع فيشنعا (٩)

---

(١) المغمس ـ بفتح الميم وكسرها مشددة ـ موضع معروف ، والوبل المطر الشديد العظيم القطر . والنكباء : الريح المنحرفة عن مهبها ، والزعزع الشديد .

(٢) نكأ الجرح : قشره قبل تمام برئه .

(٣) جميع : مجتمع .

(٤) صفق الشراب : قلبه ونقله من إناء إلى آخر ليرق ويصفو . والرحيق : الخالص من الخمر . والمشعشع . الممزوج بالماء .

(٥) الواشي : الساعي بين الناس بالسعاية والنميمة . والصرم : الهجر والقطيعة .

(٦) تنوعتن : وصفن . والحديث المودع : الذي جرى عند الوداع .

(٧) أشريت : أغريت . واستشرى الفؤاد : عظم وجـــده واشتد لهيبه . والمها : جمع مهاة وهي البقرة الوحشية . وموزعا : مغرى مولعا .

(٨) الصبا ـ بكسر أوله ـ جهله الشباب والفتوة . وأشياع الصبا : نوازعه وملذاته .

(٩) يشنع : يقبح ويفظع .

فقال اكتفل ثم التثم فأت باغيا ... فسلم ولا تكثر بأن تتورعا (١)
فإني سأخفي العين عنك فلا ترى ... مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا
فأقبلت أهوي مثل ما قال صاحبي ... لموعده أزجي قعوداً موقعا (٢)
فلما توافقنا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا (٣)
تبالهن بالعرفان لما عرفتني ... وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا (٤)
وقربن أسباب الصبا لمتيم ... يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا (٥)
فلما تنازعنا الأحاديث قلن لي ... أخفت علينا أن نغر ونخدعا (٦)
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وبينا له الشأن أجمعا (٧)

---

(١) اكتفل البعير وتكفله إذا أخذ كساء فعقد طرفيه ثم ألقى مقدمه على كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، وركب بين العقدة والسنام ، وهذا الكساء يسمى بالكفل . والتثم : شد اللثام على وجهك لتستتر به عن عيون الناس . ولا تكثر بأن تتورعا : ولا تتهيب وكن جريئا .

(٢) أهوى : يقال هوت العقاب على الصيد إذا انقضت عليه ، وهوى الرجل إذا أسعد في سيره وجد فيه ، وهذا المعنى الأخير هو المناسب هنا . وأزجى القعود : أسوقه وأدفعه . والبعير الموقع : الذى تنتشر فيه آثار الدبر لكثرة أسفاره .

(٣) زهاها : أخذها الزهو والتيه والإعجاب بحسنها وجمالها ، وتتقنع تلبس القناع ، والمعنى : أن الزهو بجمالهن والتيه بحسن وجوههن منعهن من التقنع والتستر .

(٤) تبالهن : تصنعن البلاهة والغفلة عن معرفتي ، أكل وأوضع يقال : أكل الرجل بعيره إذا أعياه وأجهده ، وأوضعه : حمله على السير السريع .

(٥) معنى البيت : أنهن قد بادلنه الغرام وسهلن له سبله : وكلما أقبلن عليه قليلا أقبل هو كثيراً .

(٦) تنازعنا الأحاديث : تبادلناها .

(٧) هو خالد الخريت . وكان عمر يتخذه رسولا بينه وبين النساء .

فما جئتنا إلا على وفق موعد   على ملأ منا خرجنا له معا (١)
رأينا خلاء من عيون ومجلسا   دميث الربا سهل المحلة ممرعا (٢)
وقلن : كريم نال وصل كرائم   فحق له فى اليوم أن يتمتعا

والدارس لغزل ابن أبى ربيعة يرى فيه عذوبة وخلابة ، وهو يشبه من بعض الوجوه غزل امرىء القيس ، وينحو نحوه فى قص ما يدور بين المحبين من أحاديث الهوى ، وما ينعمون به من وصال وملذات وإن كان شعر امرىء القيس أجزل وأفخم وأقوى أسلوبا وأحكم نسجا ، وشعر عمر أكثر تصرفا وابتداعا وافتنانا ، فهو بحق زعيم شعراء الغزل ، وباعث هذا الفن كغرض مستقل فى الأدب العربى .

والناقد يرى ألفاظ هذه القصيدة عذبة سائغة ، ومعانيها بينة واضحة لاتحتاج إلى شرح وبيان ، وحسب الأديب أن يقرأها فيجد لهـا لذة وحلاوة ، وروعة وطلاوة ، وتنفذ معانيها إلى قلبه لبساطتها وروعة تأثيرها وسلاسة تصويرها ، وجمال قصصها . .

رائية عمر فى الغزل القصصى :

ورائية عمر أشهر قصائد فى الغزل القصصى، فهذه القصيدة للشاعر الأموى ابن أبى ربيعة الذائع الصيت (٢٣ — ٩٣ هـ) مشهورة بين الأدباء والنقاد والدارسين . يتخذونها عنوانا لشعر عمر بن أبى ربيعة ، وإن كان فى شعره الكثير مما هو أجمل منها وألطف موقعا فى النفس ، وفى هذه القصيدة يتمثل روح عمر وما فيه من خفة وظرف ، كما يتمثل حظه الغريب من تيسير

(١) الملأ كجبل : التشاور والاتفاق .

(٢) الرمث ـ بكسر أوله وسكون ثانيه ـ نبت ترعاه الإبل وتقبل عليه . ودميث الربا : رباه مكسوة بالرمث ، وممرع : خصيب كثير الكلأ .

الشعر وتسهيله واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التي لا تبلغ بها السهولة إلى الإسفاف ولا تصل بها القوة إلى الغلظة والغرابة ، والتي تمثل أحسن تمثيل لغة قريش في هذا العصر ، وهي قصيدة صغيرة ممتعة مؤثرة مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر ؟

والقصيدة نظمها عمر على طريقته المبتكرة القصصية ، ولما سمعها جرير قال : مازال يهذي هذا القرشي حتى قال الشعر .

بدأها الشاعر بذكر صاحبته « نعم » وسؤال نفسه أهو منصرف عنها في يوم من الأيام ، ثم يذكر حاجته إليها وكلفه بها ، وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سلوه عنها ، وعجزه عن الصبر عن لقائها :

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يسلي ولا أنت تصبر

ثم يذكر الشاعر أن هناك عقبة دون ما يريد من حب « نعم » لو عرضت لغيره لانتهى عن هذا الحب إلى يأس مريح ، ولكنه لا يرعوي ولا يزدجر ، ولا يفكر فيما يعترض حبه من صعاب ، وهذه العقبة هي أنه لا يستطيع أن يزور نعما أو يدنو منها حتى يحس من ذي قرابة لها بغضا له وحقداً عليه ومكرا به وتهيؤا لإيذائه ، وهو مع ذلك يتجنب أو يحاول أن يتجنب زيارتها رفقا بها وإشفاقاً عليها ، فقد عرف حبه إياها وتبعه الرقباء لا يفارقونه ، فهم يشهرون به إن زارها ويشهرون به في شيء من النكر لا يحبه :

ألكني إليها بالسلام فإنه يشهر إلمامي بها وينكر

فانظر إليه كيف يتجنب زيارة نعم مخافة التشهير والتنكير ، ثم لا يلبث هو أن يشهر بها نفسه فيقول :

بآية ماقالت غداة لقيتها　　بمدفع أكنان : أهذا المشهر ؟

ثم انظر إليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حوار إذا عرض لهن رجل كن يعرفنه فأنكرنه لما تغير من شأنه :

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه　　أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن　　وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
فقالت : نعم ، لاشك غير لونه　　سرى الليـل يحيى نصه والتهجر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا　　عن العهد والإنسان قد يتغير

فنعم تنكره ، وأسماء تعرفه ، وتعلل ماكان من تغيره بكثرة ماهو فيه من سرى الليل وسفر النهار ، ثم يدفع هو عن نفسه ويصدق ما ذهبت إليه أسماء من تعليل ، فيقول إن نعما إنما رأت رجلا لايستقر ، فهو متعرض لحر الشمس ، متعرض لبرد الليل ، أخو سفر ، جواب أرض ، تتقاذفه الفلوات ، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل ، لولا أن عليه بقية من نعمة ، ثم يستلذ هذا التشهير لما فيه من ذكرى محببة إليه فيمضى فيه ، ويستأنف قصة حلوة كثر أمثالها فى شعره حتى عرف بها ، وحتى ذكر كلما قرىء مثلها فى شعر شاعر آخر . ومجمل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبته ليلة وهى نازلة مع أهلها بذى دوران فتجشم سرى الليل ، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار بينهما من حوار فى أسلوب قصصى رائع إلى أن يقول :

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى　　ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً　　أما تستحى أو ترعوى أو تفكر
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا　　لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وعلى هذا النحو من الغزل القصصى أو القصص الغزلى ، يمضى عمر بن أبى ربيعة فى كل شعره ، وسواء أكان قصصه هذا تصويراً لما وقع أم خيالا صرفا أم مزاجا من الحق والخيال ، فهو يصور على كل حال حياة المترفين

فى الحجاز وميولهم وأهواءهم ومذاهبهم فى التعبير عن هذه الميول والأهواء ، كما أنه يصور حيـــاة بعض نساء العرب وميولهن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن .

وعمر بن أبى ربيعة زعيم الغزل القصصى فى عصر بنى أمية بل فى الشعر العربى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وقد ولد فى اليوم الذى مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ، ونشأ فى أسرة غنية من بنى مخزوم فى مكة نشأة حسنة ، فيها ترف ونعمة ، وكان أخوه الحارث بن أبى ربيعة رجلا صالحاً تقياً ، وكان من ولاة عبد الله بن الزبير على البصرة ، ولما شب عمر بن أبى ربيعة انصرف إلى الشعر عن كل شىء إلا حياة المترفين ، وكان فيما يقول الرواة يقضى عامه بمكة فى لهو وقول للشعر ، حتى إذا كان موسم الحج خرج من مكة فى زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة ، وتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ولم يكن يتحرج أن يرقبهن أثناء الطواف بالكعبة حتى إذا انصرف عن مكة قال فيهن الشعر ، وظل كذلك إلى أن مات .

ولقد ابتدع عمر فى الشعر فناً جديداً كل الجدة ، إذ جعل الغزل غرضاً يقصد لنفسه لا لشىء آخر كما جعله الشعراء الغزلون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرقاً ولكنها كلها طريفة ، وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنها كانت قصصية ، فـــلم يكن عمر يتحدث عن النساء كما تعود الشعراء أن يتحدثوا عنهن ، وإنما كان يتحدث عن نفسه ، ويقص ما وقع له معهن ، أو ما تخيل أنه قد وقع له معهن ، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية قصيرة ، ولكنها من العذوبة والرقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحس والقلب بحيث تملؤك إعجاباً بها واطمئناناً إليها ، ولم يكن فى أكثر حالاته يقص كما يقص غيره من الشعر ، وإنما كان يبعث فى قصصه حياة قوية ، فينطق

الأشخاص ويحدث بينهم من الحوار الدقيق ما يلذ ويسحر ، ولو أتيح له أن يطيل ويتوسع لوصل إلى اختراع الشعر التمثيلي من بعض النواحي . وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك في أنه لا يجمع كل ما قال عمر .

ولقد كانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا في الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضاً ، وكان أكثر الشعراء الإسلاميين يحجمون عن التشبيب بالنساء امتثالا لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الإسلامية ، وكان أكثر تشبيبهم في بكاء الأطلال ومنازل الأحباب .

فلما ظهر عمر سلك في الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء في منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهن لبعض وتلاومهن وما يعتدن قوله من الكلام والعبارات في أسلوب يغلب عليه القصص ، وحكاية ما شاهـــده في شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق ؛ وبهر الشعراء بهذه الطريقة ، حتى قال فيه جرير : وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره في قلوب الخلعاء وأهل اللهو أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالي إنشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعي الأنصار : ما عصي الله بشيء كما عصي بشعر ابن أبي ربيعة (١) .

---

(١) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مررت بجدك عبد الله وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر فقال : ما هذا معك ، ودعاني فجئته وقلت شعر ابن أبي ربيعة ، فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، إن لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به ، ففعلت .

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الكبير في القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية في الأدب العربي القديم ، وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية في بيئة الحجاز في أزهى عصوره الإسلامية ، وما أجمل الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصي ، وزعيم مدرسة الغزليين في هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذي عاش لا يهجو ولا يمدح ، وإنما ينظم في فنه الشعري الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقا في الشعر العربي ، الذي كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين في القديم والحديث اهتماما لم ينله الكثير من الشعراء الأقدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضـــع عناية الأدباء واهتمام القراء ، فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازي معاصر يجعل لبحثه أهمية فوق أهمية الموضوع نفسه .

وإني لأضع بحث الشاعر الحجازي ابراهيم الفلالي عن شاعر الحجاز الخالد في صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش في هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

== ومن المصادر لدراسة عمر بن أبي ربيعة وشعره :

الأغاني ١ : ٣٠ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ابن خلكان ١ ٠ ٣٧٨ ، عمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ، وهل يخفى القمر لرئيف خوري ، شاعر الغزل للعقاد ، حب ابن أبي ربيعة لزكي مبارك ، التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف ، حديث الأربعاء ١ : ٣٧٢ ، الشعر الغنائي في مكة – شوقي ضيف ، الأدب القصصي لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالي الشاعر في صدر كتابه يصور منهجه في كتابه للقراء : « ستجد(١) أيها القارىء العربي المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك في محاضرة ألقيت في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ، وسوف تجد في تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازي تطورات المجتمع في فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذي قام بنشر الدعوة الإسلامية ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازي ، ولعلك تجد شبها بين تطوره في ذلك العهد وتطوره في العهد الحاضر ، ولعلك أيضا تلمس كيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور ، فتسهم في بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى في اللغة والغناء والموسيقى وابتكارهم في هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثرا خالداً مازال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور » .

ويلتفت الفلالي الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر ، فيقول بعد قليل من كلامه الأول : « ولعلك واجد في محاضرتي شيئا لم تجده فيما قرأته عن عمر في كل ما كتب عنه(٢) » .

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التي أدت لذيوع موجة الغناء والمرح في الحجاز في عصر عمر ، من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازاً شديداً في حديثه عن نشأة عمر ، وماكان أحراه بأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة التي لاتترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالي في جلده على البحث وفي ذكائه وألمعيته .

(١) ص ٨ وما بعدها
(٢) ص ١٢

ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه، وانتقاله إلى مكة، ويدفع عن عمر مايلصقه به الجاهلون من الكتاب، فيذكر لنا أن عمر «قد عرف لنفسه مكانتها، فلم يتبـــذل فى شعره، ولم يرنا لحشا فى الكثرة الكاثرة عـا نظم(١)».

وينتهى المؤلف الشاعر الفلالى من هذه الجوانب كلها، ليبتدىء حديثا عذبا جميلا عن شعر عمر، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان «مذكرات يومية يسجل فيها حياته (٢) الخاصة»، وما أطرف الجوانب الغامضة التى كشف عنها الفلالى فى كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه، القدامى والمحدثين منهم، ومكانته فى الشعر الحجازى، وحكمه الكثيرة فى شعره، ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات.

ومع ذلك فإن حديث الفلالى عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الموقف والظروف التى كتب فيها، ولكنى مع هذا الإيجاز الشديد الذى لجأ إليه المؤلف، أعتقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم، يخرج بصورة عن شخصية عمر لايخرج بها حينما يقرأ ماكتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته.

وهناك آراء متعددة فى الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير. ومع ذلك فإنى أزعم أن الفلالى لم يفرغ بعد من عمر، وأن عليه واجبا أدبيا كبيراً، وهو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره مرة أخرى، وهذه هى رائية عمر، يقول:

---

(١) ص ٤٨

(٢) ص ٥٢

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر
نهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ... ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر
إذا زرت نعما لم تزل ذو قرابة ... لهـــا كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه أن ألم ببيتها ... يسر لى الشحناء والبغض مظهر
بآية ماقلت غداة لقيتها ... بمدفع أكنان : أهذا المشهر (١)
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى، (٢) الذى كان يذكر
فقالت نعم لا شك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه والتهجر (٣)
لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحـــدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخر الليل تسهر

ثم يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور (٤)
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمر (٥)

---

(١) المشهر : الذى شهر أمره ، مدفع أكنان : موضع .
(٢) نسبة الى جده المغيرة .
(٣) التهجر : السير فى الهاجرة .
(٤) أنؤر : جمع نار ، ويقال أنور أيضا .
(٥) رعيان : جمع راع ـ سمر : جمع سامر ـ روح رعيان : أى روحوا ابلهم عشاء .

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ... حباب وركنى خيفة القوم أزور (١)
فحييت إذ لاقيتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان : فضحتنى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولى من عدوك حضر
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى ... إليك وما عين من الناس تنظر
فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكادت توالى نجمه تتغور
أشارت بأن الحى قد حان منهمو ... هبوب ولكن موعدلك عزور (٢)
فما راعنى إلا مناد برحلة ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تنور منهمو ... وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر (٣)
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثر (٤)
فإن كان ما لابد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختى بدء حديثنا ... ومالى من أن تعلما متأخر
لعلهما أن تبغيا لك مخرجا
وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصر (٥)
فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر

---

(١) الحباب بضم الحاء : الثعبان . أزور : مائل .
(٢) عزور : موضع بمكة .
(٣) أباديهم : أظهر عليهم .
(٤) يؤثر : يحكى .
(٥) السرب ، بالفتح الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر ، كفرح : ضاق ذرعا .

فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتــا · أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكراً · فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون من كنت أتقى · ثلاث شخوص كاعبان ومعصر (١)
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى : · ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً · أما تستحى أو ترعوى أو تفكر (٢)

وقال يزيد بن الطثرية :

بنفسى من لو مر برد بنانه · على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبته · فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

٣ — الغزل العذرى :

الغزل العذرى هو الذى يصدر عن عاطفة صادقة ، وحب عميق ، وصبابة متأججة ، وهوى مشتعل ، ملك على المرء قلبه ، وسلب لبه ، وطغى على جميع مشاعره ، وصرفه عن الحياة وشهواتها ، وسلط كل ما فيه من عاطفة وإحساس إلى المعبودة التى لا يرى فى الحياة أجمل منها ، وإن لم تكن من أجمل النساء ، فلها يعيش ، وعليها يقف حياته وقته ، وحبه وشعره . وعماد هذا اللون الصدق فى العاطفة ، والعفة فى القول ، والتفانى فى المحبوب والضراعة فى الحب ، فلا يتناول الشاعر الوامق مفاتن الجسم ، ولا محاسن الأعضاء ، ولا ما يثير الشهوة ، أو يناقض العفة . وإنما يعتمد على المعانى الروحية والنوازع القلبية ، ويشكو ما يكابد من آلام البعد ، وقسوة الحرمان والصد ، وتجهم الأيام ، ومعاكسة الزمان ، وقد تقنعه النظرة العاجلة ، أو الوعد المكذوب كما يقول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى · لو ابصره الواشى لقرت بلابله

(١) المجن : الترس ، المعصر : المرأة راهقت العشرين .
(٢) السادر : الذى لا يبالى ما يصنع .

بلا وبالا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

فهو لون حزين باك ، يستثير الشفقة ، ويبعث الرحمة ، ويدعو إلى الرثاء بزهد صاحبه فى الحياة ، حتى يسترخص كل غال فى سبيل من يحب ، ويستعذب كل ألم من أجله ، ويتمنى لنفسه أسوأ الأمانى ، وأنكد الحالات وشر ألوان الضرر ، مادام ذلك من أجل المحبوبة :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى ... بثينة لا يخـــفى على كلامها

وهذا اللون الذى يقف فيه الشاعر حياته وحبه وشعره على محبوبة واحدة ، هو الذى يعرف بالحب العذرى ، نسبة إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة بدوية من بنى قضاعة ، اشتهر شبابها بالحب البرىء الصادق ، والهوى العفيف المضنى ، والموت فى سبيل المحبوب . حتى قيل لرجل منهم : مابال العشق يقتلكم يا بنى عذرة ؟ فقال : لأن فينا جمالا وعفة ! . وهذا النوع لم يكن له وجود قبل هذا العصر ، فهو بهذا يعد جديداً كل الجدة . ومن أظهر شعرائه : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية ، وقيس ابن ذريح صاحب لبنى ، وكثير عزة على المشهور . ومن أمثلته قول جميل (٨٢ هـ) :

وما زلتمو يا بثن حتى لو اننى ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم ... سلوا ولا طول التلاق تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تمـــاديا
وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى
وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عدى ... يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفى النفس حاجات إليك كماهيا

وهذه دالية جميل فى الغزل :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ... ودهرا تولى يابثين يعود (١)
فنغنى كما كنا نكون وأنتم ... صديق وإذ ماتبذلين زهيد (٢)
وما أنسىِ مِ الأشياء لا أنسى قولها ... وقد قربت نضوى : أمصر تريد (٣)
ولاقولها : لولا العيون التى ترى ... أتيتك فاعذرنى فدتك جدود (٤)
خليلى ماأخفى من الوجد ظاهر ... ودمعى بما أخفى الغداة شهيد (٥)
ألا قد أرى والله أن رب عبرة ... إذا الدار شطت بيننا ستزيد (٦)
إذا قلت : مابى يابثينة قاتلى ... من الحب ، قالت : ثابت ويزيد (٧)

(١ ، ٢) جديد : تعود جديدة ، ونغنى : نقيم ، وتكون : توجد ، وما تبذلين : أى ما تنيلين من الوصل . يقول : ليت عهود الصفاء والسعادة التى ارتضعنا أفاويقها تعود فنرفل فى حلل السعادة ونحتسى كئوس الرفاهية ونصبح كما كنا بالأمس وقد قرت منا العيون وأثلجت الصدور .

(٣) مِ الأشياء : من الأشياء ، والنضو : المهزول من الحيوان ، يريد ناقته ، المعنى : مهما أنسى من شىء فلست أنسى قولها لى وقد قربت ناقتى : أتريد مصر ؟

(٤) الجدود : جمع جد بالفتح ، وهو أبو الأب . المعنى : ولا أنسى أيضا قولها : لولا خشية العيون والرقباء لحظيت بلقائك أما وإنى لاأستطيع ذلك فإنى أدعو لك بالسلامة وأفتديك بالأهل .

(٥) الوجد : الحب الشديد ، والغداة مابين الفجر وطلوع الشمس . يريد أن مايعتلج فى نفسى من الجوى والحب عنيف عارم يكاد يذيب حشاشتى،وينبىء عن ذلك ما يفيض أحيانا من شجونى .

(٦) العبرة : الدمعة أو الحزن من غير بكاء ، وشطت : بعدت،وستزيد: خبر عبرة ، والجملة خبر أن المخففة . والمعنى : إننا إذا افترقنا وضرب النوى بيننا بجرانه فسيكثر بكائى وتشتد لوعتى .

(٧) ثابت : باق . والمعنى : إذا قلت لها إن الحب سيقتلنى قالت : إنه باق وسيزيد أيضا .

وإن قلت : ردى بعض عقـــلى أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد (١)
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيـــد يبيد (٢)
جزتك الجوازى يابثين ملامة ... إذا ما خليل بان وهو حميد (٣)
وقلت لها : بينى وبينك فاعلمى ... من الله ميثاق له وعهـــود (٤)
وقد كان حبيكم طريفا وتالدا ... وما الحب إلا طارف وتليد (٥)
وإن عروض الوصل بينى وبينها ... وإن سهلته بالمنى لصعود (٦)
فأفنيت عيشى بانتظارى نوالها ... وأبليت ذاك الدهر وهو جديد (٧)
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذن لسعيد (٨)

---

(١) ردى بعض عقلى : كناية عن طلب وصالها . والمعنى : تتدلل عليه ، وتشمخ بحبها ، فإذا نشد وصالها خيبت أمله .

(٢) يبيد . يبلى ويزول . والمعنى : لم أنل ماطلبت من وصالها ، ولا الحب يفنى لأستريح .

(٣) الجوازى جمع جازية ، وهى المكافأة والبيت دعاء . والمعنى : إذا جوزى الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك فى نفسى سوى العتب واللوم .

(٤ ، ٥) الطارف : الجديد ، والتليد : القديم . والمعنى : قلت لها على رسلك يابثينة كيف تعرضين عنى وتصعرين خدك لى وقد تعاهدنا من قبل على الحب منذ أمد طويل ولا زلت أهيم بك وجدا .

(٦) العروض : الطريق فى عرض الجبل ، وصعود مرتفع . والمعنى : إن الوصل صعب المنال مهما تسهله بالوعود .

(٧) النوال : الوصال وأبليت الدهر : كناية عن كثرة مصابرته وذبول شبابه . والمعنى : لقد طال انتظارى وصالها وقضيت شبابى فى سبيل حبها والظفر بها .

(٨) ليت شعرى : ليت علمى أى ليتنى أعرف ، ووادى القرى : بالحجاز شمال المدينة . المعنى : يتمنى المبيت بهذا الوادى حيث كان الأحبة يقيمون .

وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها لهــــا بالثنايا القاويات وئيد (١)
وهل ألقين سعدى من الدهر مرة وما رث من حبل الصفاء جديد (٢)
وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة وقد تطلب الحاجات وهي بعيد (٣)
سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب وصدر كفاثور اللجين وجيد (٤)
فمن يعط في الدنيا قريناً كمثلها فذلك في عيش الحياة رشيد (٥)
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعــــود (٦)
يقولون: جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد؟ (٧)
لكل حديث بينهن بشاشــــة وكل قتيــــل بينهن شهيد (٨)

---

(١) الثنايا: جمع ثنية وهي طريق في الجبل أو الجبل نفسه، والقاويات: الخاليات، وئيد صوت شديد. والمعنى: هل أحيا ثانية في تلك الأرض الخالية التي تعزف فيها الرياح حيث كنت أعيش ناعماً بالهوى العذري.

(٢، ٣) رث: بلي، و «ما» مبتدأ خبرها: جديد. والمعنى: هل أحظى بلقاء سعدى مرة ويعود وصلنا ويتجدد حبنا بعد أن رث حبــــله ربما يسمح الدهر بذلك.

(٤) سبتني أسرتني، والجؤذر: ولد البقرة الوحشية، والربرب القطيع من بقر الوحش، والفاثور: الطست والجفنة، واللجين: الفضة، والجيد: العنق وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره: لها. يقول: تبلت فؤادي وملكت علي أقطار نهاي بجمالها الأخاذ ولحظ عيونها النفاذ وجسدها الرعبوب الربرب البض.

(٥) القرين: الصاحب والزوج، ورشيد: موفق. والمعنى أنها رائعة حقاً فمن يوفق إلى مثلها جمالاً وفتنة يتمتع بالعيش وتهنأ له الحياة.

(٦) يموت الهوى: يفتر الحب، ويحيا: يشتد. والمعنى: انني اذا حظيت بوصالها نقعت غلتي وشفيت أوامي وجفت حدة الوجد، فإذا افترقنا يعتلج الجوى عارماً بين أضالعي.

(٧ و ٨) جاهد بغزوة: يريد به نسيان حبه بالجهاد، والبشاشة: السرور والبهجة. والمعنى: يطلب اليه أصحابه أن يقطع حبل وصاله وينسى حبه بالجهاد =

تائية كثير المشهورة فى الغزل العذرى :

وكثير عزة شاعر أموى مشهور فى الغزل والنسيب ، ويعد من فحول الشعراء ومقدميهم فى العصر الأموى ، وتائيته مشهورة شهد لها النقاد ، وهى فى الغزل . وقد توفى عام ١٠٥ هـ . . . قال كثير عزة :

خليلى هـذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت (١)
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت (٢)
فقد حلفت جهداً بما نحرت له قريش غداة المأزمين وصلت (٣)

= والانشغال بالغزو فيجيبهم أنه لا يجاهد سوى هذا الحب ، على أنه كيف يتسنى له السلو وهو يشمل بسلاف حديث الأحبة العذب ، بل لا تثريب على من قضى نحبه فى حبهن .

وهذه مصادر لدراسة جميل وشعره :

الأغانى - طبقات الشعراء لابن سلام ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، جميل بثينة للعقاد سلسلة اقرأ عدد ١٣ ، الحب العذرى لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، أعلام الأدب فى عصر بنى أمية .

(١) الربع : الدار ، والقلوص : الناقة الشابة . وعقل البعير قيده - يسأل رفيقيه أن يقفا معه ساعة فى منزل حبيبته وفاء لها وقياما بحقه من الدعاء والبكاء فيه لخلوه من ساكنته ، ولأن له فى نفس الشاعر ذكريات ماضية .

(٢) ما كنت أعرف آلام الحب قبل الاتصال بها ولا تباريح الغرام حتى شقيت بفراقها والبعد عنها .

(٣) الجهد : الطاقة والمراد المبالغة ، والنحر الذبح . والمأزمان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة ومنى ، يقول : حلفت عزة بالذى تنحر له الذبائح وتقدم له القرابين لتقطعنى .

أناديك ماجج الحجيج وكبرت   بفيفا غزال رفقة وأهلت (١)
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها   كناذرة نذراً فأوفت وحلت (٢)
فقلت لها يا عز كل مصيبة   إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت (٣)
ولم يلق إنسان من الحب ميعة   تعم ولا غماء إلا تجلت (٤)
كأني أنادي صخرة حين أعرضت   من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٥)

---

(١) أناديك أجالسك وهو جواب القسم حذف منه لا ، مثل قوله تعالى : « تالله تفتأ تذكر يوسف » ، والحجيج جمع حاج ، وفيفا غزال : مكان بمكة . والرفقة الأصحاب . وأهلت : رفعت صوتها بالتلبية والدعاء .

أي لا أجالسك أبداً ما قصد الناس مكة للعبادة وتوجهوا إلى بيت الله زائرين معتمرين .

(٢) الحبل الوصل والعهد والنذر : ما أوجبه المرء على نفسه . وحلت . خرجت من العهد فيه . والمعنى أن عزة في قطيعته كأنها تقوم بواجب عليها فهي تفعل ذلك مبادرة إليه حريصة عليه .

(٣) وطنت النفس لكذا : مهدتها له وأعددتها لاحتماله . وذلت : سهلت ولانت . والمعنى : « ان المصائب وان عظمت اذا تلقاها المرء بالصبر عليها هان أمرها واحتمل عبؤها » .

(٤) الميعة : الشدة الغماء الكرب ، تجلت : زالت وانكشفت ، والبيت مكمل لسابقه ـ يقول كل غمرات الحب تنكشف وكل آلام الغرام تزول فالتأي يسلي واليأس يريح .

(٥) الصم : جمع أصم وهو الصلب ، والعصم الوعول جمع وعل وهو التيس الجبلي ـ يقول : قد أعرضت عني لا تجيب ندائي كأني أدعو صخرة صلبة ملساء لا تستقر عليها الوعول ، يصف اعراض عزة وعدم اصغائها وعطفها عليه فيشبهها بالصخرة في أنها لا تسمع نداء ولا تجيب دعاء .

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت (١)
أباحت حمى لم ترعه الناس قبلها ... وحلت تلاعا لم تكن قبل حلت (٢)
فليت قلوصى عند عزة قيدت ... بحبل ضعيف غر منها فضلت (٣)
وغودر فى الحى المقيمين رحلها ... وكان لها باغ سواى فبلت (٤)
وكنت كذى رجلين رجل صحيحة
ورجل رمى فيهــــا الزمان فشلت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت ... على ظلعها بعد العثار استقلت (٥)

---

(١) الصفوح : المعرضة الهاجرة يعنى أنها بخيلة بوصلها .
المعنى : أن عزة امرأة هاجرة نافرة لأن طبعها البخل فمن سئم منها هذا الخلق قاطعته ، وهذا البيت يصور لك طبع المرأة المعشوقة ودلالها .

(٢) الحمى : ما يحمى ويدافع عنه : والمراد قلب الشاعر الذى احتلته ، ويرعاه الناس : يدخلون إليه ، والتلاع : جمع تلعة وهى الأرض المرتفعة . والمعنى : أنها غزت قلبا ممتنعا عن النساء لم تستطع امرأة قبلها غزوه ، والبيت استعارة تمثيلية .

(٣) غر : قطع . والمعنى : يتمنى كثير أن تغل ناقته حتى يطول مقامه عند عزة .

(٤) رحل الناقة : ما يوضع على ظهرها كالسرج ، باغ : طالب . بلت : ذهبت ، وهو من تمام البيت الأول .

(٥) شلت يبست . والظلع عيب فى المشى . تحاملت على ظلعها : تكلفت الناقة السير على رغمها . استقلت : استقام مشيها . يقول : كنت فى إقبالها تارة وإدبارها أخرى وفى طمعى فيها ويأسى منها كرجل صحت منه رجل ومرضت أخرى فإن أراد الحركة بالصحيحة جذبته المريضة وهو تصوير لحاله فى حبه وأنه صار الى حال لا يمر ولا يحلو . ومعنى البيت الثانى أن الأمل واليأس ظلا يختصمان الى أن غلب اليأس منها فانصرف عنها فهو كظالعة حاولت مرارا أن تسهر مع ظلعها حتى ==

أريد الثواء عندها وأظنها ... إذا ما أطلنا عندها المكث ملت (١)
فما أنصفت أما النساء فبغضت ... إلى وأما بالنوال فضنت (٢)
فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا ... منادح لو سارت بها العيس كلت (٣)
خليلي إن الحاجبية طلحت ... قلوصيكما وناقتي قد أكلت (٤)
فوالله ثم الله ما حل قبلها ... ولا بعدها من خلة حيث حلت (٥)
وما مر من يوم علي كيومها ... وإن عظمت أيام أخرى وجلت

= استقام لها السير . وهناك معنى آخر وهو: أنه كان في بقائه عندها كرجل أشل عاجز عن الحركة أو كناقة عرجاء تنهض بعسر ومشقة ، يتمنى ما يعطل سفره فيبقى عند محبوبته عزة .

(١) الثواء الإقامة . يقول : إنها امرأة ملول وظني أنها لا تحتمل طول المقام عندها .

(٢) لقد بغضت بجمالها النساء إلى فلم يكن لغيرها موضع من قلبي ولا نصيب من حبي وقد بخلت بوصلها .

(٣) العتبى : الاسم من الإعتاب . المنادح: الأماكن الواسعة البعيدة . والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة ، كلت أعيت عن السير ــ والمعنى : إن كانت تشكر مني أمرا وتريد أن أنزع عنه فذلك لها وهو علينا يسير وإن كانت تريد القطيعة فالأرض واسعة والنساء غيرها كثير ، وكل غانية عزة .

(٤) طلحت : أكلت وأتعبت . والحاجبية لقب عزة يخاطب رفيقين فيقول : إن عزة أنهكت ناقتيكما كما أتعبت ناقتي ــ يصور مبلغ ما يعانيه في حب عزة وطلبها .

(٥) انه لم يمر عليه في حياته يوم هنيء كيوم وصالها . وإن كانت هناك أيام أخرى حافلة بالسرور . ولك أن تقول : لم يمر يوم في الآلام والأهوال كيوم عرفها فيه .

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده … فلا القلب يسلاها ولا العين ملت (١)
فيا عجبا للقلب كيف اعترافه … وللنفس لما وطنت كيف ذلت (٢)
وإنى وتهيامى بعزة بعد ما … تخليت عما بيننا وتخلت (٣)
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما … تبوأ منها للمقيل اضمحلت
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها … كناذرة نذرا فأوفت وحلت

والشاعر هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعى ، وقد أكثر الشعر فى محبوبته عزة بنت حميد فنسب إليها وعرف بها . كان يتشيع ، يعتقد أن علياً وبنيه أحق الناس بالخلافة . وكان مع تشيعه يفد إلى بنى أمية يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، والرواة يحدثوننا أنه كان قصيراً دميماً ناقص العقل ويقرنونه إلى جميل والمجنون وأضرابهما من شعراء الغزل المقدمين فيه . والقصيدة فى النسيب وهو باب له مكانة فى الأدب العربى ومنزلة سامية فى النفوس ، لأنه يتعلق بأسمى عاطفة إنسانية هى الحب . ورواة الأدب يتحدثون عن هذه القصيدة فيرفعون من شأنها ويشيدون بكثير من أجلها ، ويعدونها من عيون الشعر الغزلى ، فيقولون تائية كثير كما يقولون رائية عمر وعينية قيس ، وأنا أقرأ هذه القصيدة فلا تقع فى نفسى ولا أجد لها ما وجد هؤلاء الرواة ، بل أجد فيها صورة صادقة لكثير القصير الذى يطاول الطوال ، الضعيف الذى يباطش الأقوياء ، المدعى فى عشقه وتشيعه ومذهبه وكل ما يتصل به حتى أبيه الذى ينسب إليه وعشيرته التى يعتز بها .

(١) الشاهق : المرتفع . أى أصبحت عزة فى أعلى مكان من قلبه ، فلا القلب يستطيع السلو ، ولا العين تمل النظر إليها .

(٢) اعترافه : صبره على آلام الحب — يتعجب الشاعر من صبره على ما يقاسيه من آلام ومن نفسه كيف استعذبت المذلة فى الغرام .

(٣) التهيام : الهيام وهو جنون العشق . تخلى من الشىء : تركه . الغمامة : السحابة أو البيضاء خاصة ، تبوأ المكان نزل فيه . المقيل : النوم نصف النهار .

قد يكون عذر هؤلاء أن مقاييس الجودة عندهم هي أن اللفظ مستعمل فيما وضع له وأن الأسلوب عربي جار على ماألفته العرب في طرائق تعبيرها وأن القافية لاعيب فيها ووزن الشعر صحيح مستقيم ، لكن ذلك لايكفي في الحكم لها بالخلود والصدارة في ديوان الشعر .

إنها لاتصور شعوراً بالحب صادقا ولانفساً بنار العشق محترقة ولا إنسانا صافي الطبع مرهف الحس قوى العاطفة ينقلك إلى الجو الذى يعيش فيه ، فترثى له وتشفق عليه إن لم تشاركه في آلامه التي يقاسيها .

إنها لا تصور نفس شاعر متيم قد استعبده الحب وأضناه الغرام ، إنما تدل على إنسان مدع للعشق ، يظهر لك حينا أنه متهالك في هواه ، ويتراءى حينا آخر أنه جلد قوى لايبالى بقطع أواصر المودة ، فهو مكافىء لمن يحب وصلا بوصل وهجرانا بهجران .

وقد يخدعك فتظن أنك أمام شاعر متبول ، يهذى في إثر صاحبته ، فهو يرسل أنات محزونة ويخرج زفرات مكلومة وليس كذلك ، إنها الصيغة المحكمة والنسج المتين ، فيلتبس عليك صدق الشاعرية بصدق الشعور ، إن مايبدو في هذه القصيدة من سيما الحب لايرجع إلى عاطفة مشبوبة ، ولا إلى نار بين الجوانح مضطرمة ، ولا إلى موجدة تثور حينا وتختفى حينا ، إنما يرجع إلى تقليد لبعض الشعراء العذريين أمثال جميل والمجنون ، فإن شعر الغزل في هذا العصر قد صار صناعة يتعاطاها من لم يعرف الهوى ولم يذق ظلم حبيب ولم يكتو بنار الحب . وأقف بك على بعض هنات ترجع إلى المعنى وأخرى إلى اللفظ . يقول كثير :

فقلت لها ياعز كل مصيبة   إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

نعم إن المصائب تهون إذا هيئت النفوس لقبولها ، فلو أنه قال هذا المعنى في الاستهانة بنكبات الدهر أو توطين النفس على الموت في الحروب أو الاستخفاف بكل مايعترض الإنسان في هذه الحياة من صعاب لكان

معنى رائعاً ولكان قد وضعه فى موضعه اللائق به ، وبعبارة أخرى لو كان ذكره فى باب الشجاعة لكان شاعراً خليقاً بالتقدير ، ولكنه ذكره فى باب الغزل فى مقام يحمل فيه التذلل فى الهوى ويستعذب فيه الأنين والشكوى وإظهار أن كل مافى الحياة من خطوب يمكن احتمالها والصبر عليها إلا مفارقة الأحباب فتلك النائبة العظمى التى لا تطاق .

وكل مصيبات الزمان وجدتها   سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

ومما يؤخذ عليه أيضاً فى هذه القصيدة قوله :

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا   منادح لو سارت بها العيس كلت

ونحوه مما يدل على عدم المبالاة بالهجر وقلة الاحتفال بإعراض الحبيب ، فإنه لو كان محبا صادق الصبابة عاشقا قوى العاطفة لكان حديث الفراق يروعه مخافة أن يكون فراق الأحبة مقرونا به ، يروى أن كثيرا اتى الأحوص فقال له : لقد قلت فأحسنت فى كثير من شعرك ولكن خبرنى عن قولك :

فإن تصلى أصلك وإن تعودى   لهجر بعد وصل لا أبالى

أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ولو كسر أنفك ، هلا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب   وقل إن تملينا فما ملك القلب

والذى عابه على الأحوص وقع هو فى أسوأ منه ، فأين هو من فحول الشعراء الذين يصورون المرأة بأنها مطلوبة ممتنعة وأنهم لايستطيعون هجرها والبعد عنها ولايتصورون الحياة بدونها وإذا وجدوا فى نفوسهم شيئا من عوامل السلو أعانوا عليها وخاصموها حتى تنزل على حكم الهوى :

وإذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

بل ربما حدثتهم أنفسهم التى برح بها الشوق أنهم قادرون على السلو عنها والتسلى بأخرى سواها فإذا بداما يحبون وهت عزائمهم ونقضوا ما أبرموه :

لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها ... بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها بجاءة ... فأبهت لا عرف لدى ولا نكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تنسى لب شاربها الخمر
ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذر
مخافة أنى قد علمت لأن بدا ... لى الهجر منها ما على هجرها صبر
وأنى لا أدرى إذا النفس اشرفت ... على هجرها ما يبلغن بى الهجر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وأحب أن أقف بك عند تلك الأمنية البدوية الساذجة :

فليت قلوصى عند عزة قيدت ... بحبل ضعيف غر منها فضلت

يود أن يقيم بجوار عزة فيشتهى أن تضل ناقته فى الصحراء ضلالا بعيدا ويكون فى إقامته عندها كرجل أشل يعجز عن الحركة والنهوض أو كناقة عرجاء لا يستقيم لها المسير إلا بعد عناء . وهى على سذاجتها وبداوتها خير من أمنية تصورها هذه الأبيات التى قالها كثير :

وددت وبيت الله أنك بكرة ... هجان وأنى مصعب ثم نهرب
كلانا به عر فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدى وأجرب
تكون لذى مال كثير مغفل ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله ... علينا فما ننفك نرمى ونضرب

قد تمنى كثير من الشعراء مثل هذه الأمانى وكلها تغلب عليها بداوة المعنى وسذاجته ، وتطبع بطابع الأنانية وحب الذات ، فمن أسوئها قول الشاعر :

من اجلها أتمنى أن يلاقينى ... من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول افتراق لا اجتماع له ... وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها

ومن أحسنها :

تمنيت من حبى علية أننا ... على رمث فى البحر ليس لنا وفر

على دائم لا يعبر الفلك موجه ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر
فنقضى هموم النفس فى غير رقبة ويغرق من نخشى نميمته البحر

ثم انظر إلى هذا البيت :

خليـــلى إن الحاجبية طلحت قلوصيكما وناقتى قـــد أكلت

ألست ترى اضطرابا فى الوزن منشؤه أنه أدخل القبض فى حشو الطويل فاختل النظم ونباعنه السمع وهو فى الوقت نفسه سخيف المعنى ، أليس محصوله أننا تعبنا فى طلب هذه المرأة ، فأكل السامعين والقارئين بذكر القلوص والناقة وأكلت وطلحت، مع مافى إسناد هذين الفعلين إليها من فساد الذوق ورداءة الطبع .

والقصيدة فيها محاسن استمالت المتقدمين فقدموه بها ، فهى تصور لك الغزل فى عهد بنى أمية وأنه صار فناً مستقلا يقصد إليه الشعراء، وتقدم لك صورة حسية رائعة تصور منازل الأحباب مر بها عشاق معاميد فوقفوا يبكون زمانا موليا قضوه فيها ثم ولى بآمالهم وأحلامهم ولم تبق إلا ذكريات هذا الماضى تصور لك حبيباً ظالما مسرفا فى ظلمه هاجراً قاسيا فى هجره لا يسمع لشكاة ولا يرق لأنين ، تمثل الظن الكاذب والرجاء الخائب والحبيب الميؤوس منه، فتراه بعينك وتلمسه بيديك فيخرج من حيز المعقول إلى دائرة المحسوس واضحا لا لبس فيه ولا غموض . ففى هذه القصيدة صور بيانية رائعة فقد أكثر فيها من التشبيه والتمثيل حتى ندّ البيت الخالى منها . إنك حين تقرأ هذه القصيدة وتتعرف الوجوه الفنية فيها تميل إلى رأى القائلين بأن الشعراء فى عصر بنى أمية كان فيهم من يتوخى ضروبا من البديع ويتعمد أن يجتمع له فى شعره فنون من البيان .

ولم تمنعه شاعريته من الوقوع فيما يشبه أن يكون خطأ قد يرجع إلى الضرورة الشعرية كالتعبير بثم فى موضع الفاء فى قوله ثم أبكيا حيث حلت ،

وكالحشو فى قوله لو تمشى بها العصم زلت ، وفى قوله : غداة الأرمين وقوله بقيفا غزال ، وكالتهافت فى قوله : فوالله ثم الله ، والقصيدة على كل حال تعتبر من القصائد المشهورة فى اللغة العربية وشعر العرب .

وهذا مجنون ليلى : يقول فيما يقول من غزله العذرى :

ألا أيها البيت الذى لاأزوره وإن حله تخص إلى حبيب
هجرتك إشفاقاً وزرتك خائفاً وفيك على الدهر منك رقيب
سأستعتب الأيام فيك لعلها بيوم سرور فى الزمان تثوب

ويقول أيضا مجنون ليلى قيس بن الملوح العامرى (٦٧ هـ) :

أعد الليالى ليلة بعد ليـــلة وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
أرانى إذا صليت يممت نحوها بوجهى وإن كان المصلى ورائيا
تمر الليالى والشهور وتنقضى وحبك مايزداد إلا تماديا
خليلى لاوالله لاأملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ماقضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا ؟
أمضروبة ليلى على أن أزورها ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟
ولو كان واش باليمامة داره ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وإنى لأخشى أن أموت فجاءة وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى ليثنينى لقـــاؤك كلما لقيتك يوما أن أبثك مابيا
وقالوا به داء عياء أصابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا

ويقول قيس بن ذريح :

تمنيت أن تلقى لبيناك والمنى تعاصيك أحيانا وحينا تطاوع
ومامن حبيب وامق لحبيبه ولاذى هوى إلا له الدهر فاجع
فيا قلب خبرنى إذا شطت النوى بلبنى وصدت عنك ماأنت صانع ؟

فواكبدى من شدة الشوق والأسى ... وواكبدى إنى إلى الله راجع
نهارى نهار الواهمين صبابة ... وليلى تنبو فيه عنى المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى بالليل والهم جامع
كأن بلاد الله مالم تكن بها ... وإن كان فيها الناس قفر بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقع ... وهل جزع من وشك بينك نافع
لقد ثبتت فى القلوب منك محبة ... كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

وفى هذه الأبيات تجد مسحة حزينة باكية ، ودموعا غزاراً يسكبها الشاعر على حبه ، وهياما شديداً بلبناه وذكرياته معها . وتجد عاطفة صادقة ، ومشاعر متأججة ، ووجدانا متوقد الإحساس ، ملتهب الألم . وهذه هى عناصر الغزل العذرى الذى نبغ فى القرن الأول الهجرى ، وكان من أعلامه : مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح(١) ، وجميل ، وكثير ، وسواهم .

وقيس فى البيت الأول يخاطب نفسه مولها حزينا فيقول : تمنيت لقاء محبوبتك لبنى ، والحظ يعاصيك حينا ويطاوعك حينا آخر ، وفى البيت الثانى يقول فى حكمة عالية : أنه مامن حبيب وفى لحبيبته ، ولا صاحب هوى غالب على قلبه ، إلا الدهر فاجع له ، مفرق لوصـــله ، مشتت لحبه وأحبابه . وفى البيت الثالث يزداد قيس تولها فى حبه ، وتفجعا فى تهيامه فيسائل قلبه : خبرنى ياقلب ماذا أنت فاعل إذا فرق الدهر بينك وبين أحبابك وشطت النوى بلبنى ، وطال الفراق بها ، ولم يعدلك أمل فى وصالها ولقائها ؟ وفى البيت الرابع يصف متوجعا حزينا ولهه وحزنه وحيرته وماداخل قلبه من حبها وكبده من شدة الشوق والأسى ، وما أروع مايقول : « وواكبدى إنى إلى الله راجع » يريد أن يقول : إنه ميت لامحالة من شدة الحزن

---

(١) كان قيس من حاضرة المدينة وكان ينزل فى ظاهرها (١٨ ؛ ٤ الفرج بعد الشدة للتنوخى ط الخانجى) .

والشوق ، وإن مصيره إلى الله لاريب ،وأمره بيده ـ تعالى ـ يصرفه كما يشاء .
وفى البيت الخامس يتحدث عن نهاره فى الحب وليله ، نهاره المملوء بالحزن لفراق لبناه ، وليله المملوء بالآلام حتى لايكاد يستقر به المضجع ، فهو فى سهاد وقلق وهموم موصولة لانهاية لها .

وفى البيت الذى بعده يصف كيف يقضى نهاره بالحديث عن لبنى والمنى فى لقائها . وكيف يخلو بالليل إلى همومه وأحزانه حتى ليمسى فيه وليس معه إلا الهم والأسى وكأنما جمعه بالهم جامع لايغالب وقدر لاينازع . وما أروع مايصور فى البيت السابع من شدة حبه للبنى فالدنيا كلها صحراء جرداء إذا خلت من محبوبتـه وقفر موحش إذا لم تكن لبنى فيها . . وفى البيت الثامن ، يقول : إن بكائى وحزنى للفراق الذى حدث والهجر الذى كان ، ولكن لاينفع الجزع والبكاء ، لأنه لايرد مامضى ، فقد وقع الفراق ولاحيلة له فى ما وقع ، ولقد كان قيس جزعا حزينا وهو ولبنى فى وصال ، فماذا ينفع الجزع والفراق اليوم سريع ، والوصال غير متوقع ، والنوى قد باعدت بينه وبينها .

وقيس فى القصيدة كلها حزين دامع العينين استبد به الألم والأسى والحيرة والجزع ، لفراق لبنى ، الدنيا كلها تبـكى معه ، والبلاد كلها موحشة إذا لم تكن لبنى فيها ، وليس له من راحم إلا الأمل والمنى فى أن يعيد الدهر ما بينهما من وصل مقطوع .

وماأروع مايصور الشاعر من همومه وأحزانه فى ليله ونهاره،ومااعترى كبده من شدة الشوق وقلبه من شدة الوله ، ونفسه من كثرة الحنين . هذاهو الشاعر فى حـكمته فى البيت الثانى وفلسفته فى البيت الأخير ، وفى حيرته وألمه وأحزانه فى أبيات القصيدة كلها .

ولقد نشأ فى عصر بنى أمية ، وبتأثير البيئة والإسلام والروح العربية

الأصيلة فن جديد من الغزل هو الغزل العذرى ، نسبة إلى قبيلة عذرة المشهورة بالهيام والجمال والتصوف الروحي في الحب ،وهذا الغزل يقف عليه الشاعر قصيدته ، ويملؤها وجدا وحنينا ، وبكاء وأنينا وأحزانا وأشجانا وعفة ، وطهرا ووصفاً لآلام الروح وتباريح الفؤاد وعذاب النفس في الحب ، وهكذا كانت هذه القصيدة(١)

أغراض أخرى :

وهناك أغراض متعددة ، قال فيها الشعراء فأكثروا ، وصوروا فأجادوا ، لم يتخلفوا عن أقرانهم ، ولم يضعفوا فى ميدانهم ، وإنما نهضوا سباقين ، وجالوا فى كل فن منها مبرزين ، ومن هذه الأغراض :

الوصـــف :

ومن نماذجه الكثيرة قول أبى النجم يصف فهود عبد الملك بن مروان:

فهى ضوار من مضرّيات
تريك آماقاً مخططات
سوداً على الأشداق شائلات
تلوى بأذناب موقّفات

وقال الفرزدق يصف ذئباً :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهنا فأتانى(٢)

---

(١) راجـع عن قيس : ٨ : ١١٢ الأغانى ، ٣٩٩ الشعر والشعراء ، ٢٠٧ الموشح ١:٣٤ - ٤٧ حديث الأربعاء ، ١٢٠ المؤتلف ، ٣٨٩ و ٧١٠ اللآلىء ، الأمالى ، ١ : ٢٣٦ جورجى زيدان ، ١٩٤ و ٢٠٠ و ٢٠١ ج٢ بروكلمان .

(٢) أطلس : أغبر اللون . عسال : مضطرب فى مشيته ، موهن : نحو من نصف الليل .

فلما أتى قلت : ادن ، دونك ، إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان(١)
وقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش ، فإن عاهدتنى لاتخوننى ... نكن مثل من ـ ياذئب ـ يصطحبان
وأنت امرؤ ـ ياذئب ـ والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى ... رماك بسهم أو شباة سنان(٢)
وكل رفيق كل رحل ، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان

ويقول الأخطل فى وصف الخمر :

وتظل تتحفنا بها قروية ... إبريقها برقاعه ملثوم
فإذا تعاورت الأكف زجاجها ... نفحت فشم رياحها المزكوم

ويقول الوليد بن يزيد :

من قهوة زانها تقادمها ... فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها ... حتى تبدت فى منظر عجيب
فهى بغير المزاج من شرر ... وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنها فى زجاجها قبس ... تذكو ضياء فى عين مرتقب

ويقول الأخطل كذلك فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لاشك فيها ... وأرخى من مآزره الفضولا

---

(١) أقد : أقطع .
(٢) الشبا : الطرف .

وقال يصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحياناً وحيناً تجره ... وما كان إلا بالحشاشة يعقل
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره ... وآخر مما نال منها محمل

والشاعر يصف مدينة همذان :

وكيف أجيب داعيكم ودونى ... جبال الثلج مشرفة الرعان
بلاد شكلها من غير شكلى ... وألسنها مخالفة لسانى (١)

وقال حندج بن حندج المرى :

فى ليل صول تناهى العرض والطول ... كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به ... وإن بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال فى صول تململه ... كأنه حية بالسوط مقتول (٢)
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله ... والليل قد مزقت عنه السرابيل (٣)

---

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى ـ طبع ليدن سنة ١٣٠٢ ، صفحة ٢٣١ .

(٢) صول : بلد فى الخزر من بلاد الترك ، والغرة : بياض فى جبهة الفرس ، والتحجيل بياض فى قوائمه وقوله : لساهر الجار والمجرور متعلق بقوله : بدت ، ويعنى به نفسه ، والتململ القلق ـ ومعنى الأبيات : يصف ليل تلك البلد يتناهى الطول وأنه إن ظفر بالصبح أو بدت له غرته فلا يفارقه لأنه بات فيه قلقا منزعجا كأنه حية مضروبة بالسياط .

(٣) المخايل الطلائع والعلامات والسرابيل أراد بها الظلام ، وجملة متى أرى الصبح استفهام فى موقع التمنى والمشكول المشدود ، والراكد الساكن ـ ومعنى الأبيات : يتمنى ظهور علامات الصبح وانه لطوله كالمربوط لا يتحرك وأن نجومه ثابتة لا تزول كأنها قناديل معلقة .

ليل تحسير ماينحط في جهة　　　كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركد ليست بزائلة　　　كأنما هن في الجو القناديل
ماأقدر الله أن يدني على شحط　　　من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوى بساط الأرض بينهما　　　حتى يرى الربع منه وهو مأهول(١)

وقال ذو الرمة (٤٥ — ١١٧ هـ) يصف الصحراء بالليل :

ودوية مثل السماء اعتسفتها　　　وقد صبغ الليل الحصا بسواد
بها من حسيس القفر صوت كأنه　　　غناء أناسي بها وتنــادى

ويقول في وصف الفلاة بالليل كذلك :

للجن بالليل في حافاتها زجل　　　كما تجاوب يوم الريح عيشوم(٢)
هنا وهنا ومن هنا لهن بها　　　ذات الشمائل والأيمان هينوم
دوية ودجى ليـل كأنهما　　　يم تراطن في حافاته الروم

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها، وهو عمر بن أبي ربيعة ؛ وهــذه الأبيات في حماسة أبي تمام وهي في ديوان عمر :

خبروها بأنني قد تزوجـ　　　ـت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى　　　جزعاً : ليتــه تزوج عشراً

---

(١) ماأقدر الله : لفظه تعجب ومعناه الطلب والتمنى ، والشحط : البعد ، والحزن : اسم موضع والبساط : الأرض الواسعة والربع الدار — ومعنى البيتين : انه يتمنى أن يجمع الله بينه وبين من يحب على بعد مابينهما من الدار حيث لاتدانى بين من داره الحزن ومن داره صول ، وأن يطوى شقة البعد بينهما ليرى الدار ومن فيها .

(٢) صوت هينمة تسمع ولا تفهم .

وأشارت إلى نساء لديها   لاترى دونهن للسر ستراً
ما لقلبي كأنه ليس مني   وعظامي كأن فيهن فتراً
من حديث نما إلى فظيع   خلت في القلب من تلظيه جمراً

وقال حطان بن المعلى يصف حاله وحال بناته :

أنزلني الدهر على حكمه   من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى   فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما   أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات كزغب القطا   رددن من بعض إلى بعض(١)
لكان لي مضطرب واسع   في الأرض ذات الطول والعرض(٢)
وإنما أولادنا بيننا   أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم   لامتنعت عيني من الغمض(٣)

شعر الحماسة :

قال قطري بن الفجاءة الخارجي :

أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو طلبت بقاء يوم   على الأجل الذي لك لن تطاعي

---

(١) الزغب : الشعر اللين الصغير، وكنى بهذا عن الضعف والصغر . رددن الخ، أي تتابعن وكثرن كل واحدة جنب الأخرى .

(٢) المضطرب : الاضطراب والحركة . المعنى . لولا خوفي من ضياعهم لكان لي مجال واسع في الأرض وانما لزمت مكاني بسببهن .

(٣) المعنى : أنه لايطمئن الا اذا كانوا سالمين بأجمعهم :

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع (١)
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع (٢)
وما للمرء خير في حيـــاة ... إذا ماعد من سقط المتاع

وقال سعد بن ناشب :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً ... علىّ قضاء الله ما كان جالباً
وأذهل عن دارى وأجعل هدمها ... لعرضى عن باقى المذمة حاجباً
ويصغر فى عينى تلادى إذا انثنت ... يمينى بادراك الذى كنت طالباً
فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها ... تراث كريم لا يبالى العواقبا
إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا

والشاعر هنا فى هذه القصيدة غاضب ساخط وثائر أبى، ماشت نفسه غضبا وسخطا لهدم داره والاعتداء على كرامته وعدم الحفاظ على شرفه ، فهو مصمم على مقابلة قوة الوالى بقوته وبسيفه لايفكر فى الأمر ولا يتدبر فيه لايهمه النتائج ولا يبالى بها يريد أن يفتدى عرضه بأى ثمن وبأية تضحية لايهمه من الأمر شىء إلا أن يسترد شرفه المهان وكرامته المسلوبة وعرضه المستذل ، وهو يتمادى فى السخط والغضب فيعلن أن داره تراث لرجل كريم لايبالى العواقب يخوض الحروب ويقتحم المخاطر ولا يثنى عن اقتحامها ولا يريد له صاحبا إلا سيفه فى المعارك التى يرمى نفسه فيها ، انه إذا عزم على الأمر لم تقف فى سبيله عقبة ولم تثنه عنه الشدائد والخطوب بل إنه نخر رزام وقائدها فى الحروب يعزم على الأمر فينفذ ماعزم عليه دون تردد أو احجام أو تفكير فى النتائج مشيره نفسه وصاحبه سيفه . وما أروع

(١) الخنع . الذل والضيم ، واليراع : الجبان المستطار .
(٢) يعتبط : يمت شابا .

ما مثل لتصميمه وعزمه وتنفيذه لمـــا هم به فى قوله «.إذا هم ألقى بين عينيه عزمه».

والشاعر هنا منقاد لطبيعته البدوية فهو ميال للانتقام كاره للنظام خارج على القانون ذاهل عن ماله وداره فى سبيل المحافظة على عرضه ، ذو عزيمة ماضية لا تعتريها حيرة ولا تثنيها عقبة ، شجاع يخوض الجيوش ويقتحم العقبات،واثق بنفسه معتمد على بأسه،يركب الهول وحيداً لا يصحبه إلا سيف صارم ، يرعى وده ويحفظ عهده فلا يخون فى شدة ولا ينبو عن ضريبة . مستبد برأيه ، يمضيه منفرداً ،فلا يحتاج إلى مشير يبصره بالصواب ويرشده إلى قصد السبيل ، لأن ذلك فى رأيه عجز تأباه كرامته وتنفر منه سجيته ، متوعد لأميره الذى هدم داره مصمم على أخذ ثأره ، مهما ركب فى طريقه من أهوال ، فهو يمهل أمره ولا يهمله ، يتربص به الأيام على فرصة تمر فيتنهزها وخصاصة تظهر فيهجم عليه منها . ولئن عجز الآن عن الانتقام فطالب الثأر لا ينام .

ومعانى الشاعر هنا ترجع فى جملتها إلى الوصف بالشجاعة وقلة المبالاة وإمضاء العزم والاستبداد بالرأى وانتهاز الفرص للأخذ بالثأر ، وهى معان تلائم أشد الملاءمة باب الحماسة من أبواب الشعر العربى ، وألفاظها جزلة قوية ، وأسلوبها متين رصين خال من التكلف برىء من التعقيد .

ويؤخذ على الشاعر هنا أنه ترك الفكر فى العواقب فترك عظيما مما يتحلى به الرجال وهو الحزم ، والعرب تقول : روّ تحزم فإذا تبينت فاعزم . ومن كلامهم : قبل الرماء تملأ الكنائن . فلاشك فيه أن الإقدام على الضرر وركوب الأمر على الخطر مما لا يحمده عاقل ومما ينكر الدين .

ونحن هنا لا نذم شعره ، إنما نذم فكره ورأيه ، ولكنه عبر عن رأيه

بأسلوب قوى ، وخيال خصب وعاطفة ثائرة ، وانفعال شديد . . أما رأيه فيناقضه قول الشاعر :

وأوقف عند الأمر لم يتضح له وأمضى إذا ما شك من كان ماضيا

وكان سعد بن ناشب من شعراء العصر الإسلامى ، عاش فى دولة بنى أمية ، ونسبه يرجع إلى بنى مازن بن مالك بن عمرو من تميم ، وهو غير مشهور الذكر بين شعراء عصره ، لقلة آثاره الأدبية ، وندرة المروى عنه ، وشعره فى المرتبة الثانية ، ولعل سبب اختيار قصيدته هذه ، ماتضمنته من معانى الاعتزاز بالنفس ، وإباء الضيم .

وقد نظمها هذه القصيدة حين اتهم فى قتل وهرب ، فأمر قاضى البصرة بهدم داره ، تنكيلا وإرهابا ، وكان من عادة الأمراء يومئذ ، هدم دار من يتهم هو أو أحد قبيلته فى قتل ، أو يأتى بحدث يستنكره الحكام الطغاة .

وقد روى أن سعدا ، دخل يوماً على الحجاج فقال : أيها الأمير ، عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق(١) على اسمى ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائى ، قال الحجاج : هيهات ، أماسمعت قول الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وربما تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف(٢) صاحب الذنب

قال : ولكنى سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنه يقول :

(يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون) .

---

(١) وضعت عليه دائرة لمنع عطائه . (٢) المذنب . (٣) اكتب له ورقة .

فطلب الحجاج كاتبه فأتى به ، فقال له : افكك لهذا عن اسمه، واصكك(٢) له بعطائه ، وابن له منزله . ومر منادياً ينادى فى الناس، صدق الله، وكذب الشاعر.

وقد بدأ الشاعر قصيدته بعزمه على غسل العار الذى لحقه ، بهدم داره ، وذكر أنه لاتهمه الديار ولا الأوطان فى سبيل احتفاظه بعزته وإبائه ، وأن نجاحه فى مطالبه ووصوله إلى أغراضه ـ ومن هذه الأغراض الثأر لنفسه ـ لا يعادله شىء مهما غلت قيمته ، ثم أرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وذكر ما اتصف به من جسارة وشجاعة ، وما عرف به من شدة المراس . وقوة الشكيمة ، والقصيدة توشك أن تكون صيحة من الصيحات البدوية ، وصدى لنغمة من نغمات الجاهلية إذ أن صاحبها قريب المكان من الصحراء ، حديث العهد من الحية الجاهلية .

ومعانيها صورة منقولة عما تغنى به الشعراء من قبله ، وترديد ردده من سبقوه ، من الفخر بحماية الأعراض ، والغض من شأن المال ، واقتحام ميادين الهلكة من غير خوف ولا وجل . وقد كرر الشاعر معنى عدم (المبالاة بالعواقب) ثلاث مرات فى قصيدته ، فقد ذكر ذلك فى البيت الأول والرابع والأخير .

ويبدو على ألفاظ القصيدة خشونة البداوة ، ويمتاز أسلوبها بما عرفت به التراكيب فى هذا العصر ، من المتانة والقوة .

وأما قطرى فى قصيدته السابقة فهو يقف فى المعركة ، ويشترك فى القتال ويناوش الأبطال ، وتبدأ نفس الشاعر البطل تفزع من هول الحرب وشدة النضال ، ولكن الشاعر يعيدها إلى طمأنينتها وإلى ثباتها وصلابتها ، حتى يطالبها بالصمود والاستهتار بالموت ، والنضال من أجل العقيدة والدفاع عن المذهب والرأى ، وقطرى يصور كل ذلك تصويراً رائعاً .

فنى البيت الأول يقول الشاعر أنه حدث نفسه فى المعركة لتثبت وتقدم

على القتال بعزيمة قوية وقلب رابط الجأش فلا تفزع ولا تجبن . . كل ذلك والهول شديد ، والفزع محيط بالناس من كل جانب والأبطال تتصارع والنفوس تطير من الهول شعاعا .

وفى البيت الثانى يسلى الشاعر نفسه ويسرى عنها بأن الأجل مكتوب وأن العمر مقدور وأن الإنسان مهما تمنى أن يزيد عمره وتطول حياته فإن يغنيه هذا التمنى شيئا ولن يعدله فى عمره دقيقة ولا يوم ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وفى البيت الثالث يسأل نفسه الصبر فى مجال الموت ويحثها عليه لأن الخلود فى الحياة محال مادام لابد من الموت .

وفى البيت الرابع يقول الشاعر لنفسه إن الحياة وطول العمر ليس مما ينعم به ويعز به الإنسان ولا يستحقه إلا الجبناء والأذلاء .

وفى البيت الخامس يقول : إن الموت نهاية كل الأحياء وإن المنادى به سوف ينادى به على كل الناس ـ جميعا ـ إذا أن سببه لابد أن ينال كل الناس .

وفى البيت السادس يقول الشاعر : إن من لم يدركه الموت شابا يسأم من الحياة وينأله طول الأوصاب ولابد أن يسلمه ـ فى يوم من الأيام ـ الموت إلى أجله المقدور .

والبيت السابع يقول فيه : إن الحياة لاقيمة لها ولا فائدة منها إذا ماهرم الإنسان وصار جسما عليلا وعد حينئذ من الأشياء التى لا يحسب لها حساب .

والأبيات كلها نغم واحـــد وفكرة موصولة ، ودعوة إلى الشجاعة والدفاع عن الرأى والاستهانة بالموت ، والشاعر متأثر فيها بالعاطفة الدينية وبالحكمة الإسلامية وبروح القرآن الكريم .

وكان قطرى أحد أعلام الشعراء الأمويين وهو قطرى بن الفجاءة المازنى أحد رؤس الخوارج ـ وزعمائهم الأشداء وقادتهم الأكفاء وأحد

الأبطال الفرسان كان شاعرا متحمسا لرأيه ومذهبه ، وخطيبا بليغا مؤثرا .

فى شعره عاطفة التضحية ونغمة الإخلاص والفناء فى العقيدة وحب الجهاد والتفانى فى الدفاع عن الشرف والعرض ، مع حماس شديد ، ورقة نفس وإباء . . .

وأسلوبه قوى جزل بليغ ، وكان قطرى من أفصح العرب بيانا وأبلغهم لسانا نشأ متأدبا بآداب الإسلام منطوية جوانحه على الإخلاص له وحب تعاليه .

واشتهر بالورع والتقوى ، ولما رأى مظالم بنى أمية خرج عليهم أيام عبد الله بن الزبير وقاتل جيوشهم ، ونكل بجيوش الخلافة الأموية وسلم عليه أتباعه بالخلافة حتى قتل بطبرستان عام ٧٩ هـ .

الهجاء :

ومن هجاء الفرزدق لجرير :

ولو ترى بلؤم بنى كليب ... نجوم الليل ماوضحت لسارى
ولو لبس النهار بنو كليب ... لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عدى بنى كليب ... ليطلب حاجة إلا بجار

وقوله كذلك فى هجاء جرير :

فإن تك كلباً من كليب فإننى ... من الدارميين الطوال الشقاشق
هم الداخلون البيت لاتدخلونه ... على الملك ، والحامون عند الحقائق
ونحن إذا عدت معد قديمها ... مكان النواصى من وجوه السوابق

ومن قصائد الهجاء المشهورة قول جرير يهجو الراعي النميري في قصيدته التي مطلعها :

أقلي اللوم عاذل والعتابا — وقولي إن أصبت لقد أصابا

ومنها :

إذا غضبت عليك بنو تميم — حسبت الناس كلهم غضابا
فغض الطرف إنك من نمير — فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن نماذج الهجاء قول قعنب بن ضمرة :

أن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً — مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به — وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم — لبئست الخلتان : الجهل والجبن

وقال عبد الرحمن بن الحكم .

لحا الله قيساً قيس عيلان إنها — أضاعت ثغور المسلمين وولت
فشاول بقيس في الطعان ولا تكن — أخاها إذا ما المشرفية سلت

وقال مالك بن أسماء في الهجاء :

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكمو — لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يفغمني — وعنبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني — وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال الطرماح يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا — ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو أن برغوثا على ظهر نملة — يكر على صفي تميم لولت

وقد انتشر الهجاء في هذا العصر انتشاراً كثيراً ، لكثرة أسبابه ، وتعدد دواعيه ، فقد كان هناك هجاء سياسي بين شعراء الأحزاب كما أسلفنا ، وهجاء

شخصي بين الشعراء أنفسهم ، دعت إليه المنافسة على أبواب الخلفاء والولاة أو العصبية للقبيلة .

ولقد أفحش الشعراء في هذا الباب ، وألحوا على ذكر المثالب والعيوب، ونبشوا ما حرص الإسلام على دفنه ، من إثارة الخصومات، وبعث العداوات وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل ، فقد قذفوا كل عرض ، وانتهكوا كل حرمة . وشجعهم على ذلك حرص الخلفاء على أن ينصرف الناس باستماع هذا الشعر ، والخلاف فيه ، عن معارضتهم في السياسة ، ومنازعتهم على السلطان .

والدارس لما فاضت به قرائح الشعراء في هذا العصر يرى أنهم لم يتورعوا ولم يحجزهم تقى ولادين ، عن رمي المحصنات . وقذف الأعراض حتى كان الناس يستجيرون بقبر غالب أبي الفرزدق من هجائه فيجيرهم . وكان جرير كذلك مولعا أشد الولع بالوقوع في الأعراض ، ويعد النساء شطر الهجاء ومادة الإقذاع ، حتى ليقال إنه دعا رجلا من شعراء بني كلاب إلى مهاجاته. فقال الكلابي : إن نسائي بأمتعتهن ولم تدع الشعراء في نسائك مترفقا .

ولكثرة ما أثم الشعراء ، وماخاضوا فيه من إفك وإثم ، أحس بعضهم بشاعة ما أجرم ، وشناعة ماقذف من عرض ، وهتك من ستر ، وخرق من حرمة ، حتى إن الفرزدق نسك في آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكذب في شعره ، ولا يشتم مسلما .

ومن الهجاء هذه القصيدة الدالية للفرزدق ، وهو أحد الشعراء الثلاثة ، الذين حملوا لواء الشعر في العصر الأموي ، والفرزدق بخاصة أحيا ثلث اللغة العربية في شعره ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال من بني مجاشع بن دارم التميمي وكنيته أبو فراس ، ويقال إن الأبيات للبرج التميمي وكان الحجاج قد وجهه لقتال الأزارقة فهرب إلى الشام وقال هذه الأبيات ، ونسبت إلى مالك بن الريب في كتاب الكامل للمبرد :

إن تنصفونا يال مروان نقترب　　منكم وإلا فاذنوا ببعاد (١)
فإن لنا عنكم مراحا ومذهبا　　بعيس إلى ريح الفلاة صوادى
مخيسة بزل تخايل فى البرى　　سوار على طول الفلاة غوادى (٢)
وفى الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب
وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

(١) تنصفونا تعاملونا بالعدل . واذنوا اعلموا من أذن بالشىء يأذن إذنا وأذنه بالفتح فيهما علم به — يقول : إن عدلتم فى معاملتنا أقنامعكم وفى ولايتكم وعلى ولاء لكم ، وإن جرتم فاعلموا أنا قادرون على الخروج عليكم والبعد عنكم .

(٢) مراحا : مصدر ميمى من راح الرجل يروح ويريح روحا وريحا ذهب وتباعد. والعيس الإبل البيض يخالط بياضها شقرة والذكر أعيس والأنثى عيساء. والصوادى العطاش من صدى كتعب عطش . ومخيسة مروضة مذللة اسم مفعول من خيس الدابة راضها وذللها . وبزل بضمتين سكن للضرورة جمع بزول كصبور وصبر من بزل البعير طلع نابه فهو وهى بازل وبزول وذلك إذا بلغ التاسعة . والبرى جمع برة حلقة تجعل فى أنف البعير . والتخايل والاختيال المرح والنشاط. والسوارى السائرة بالليل من سرى يسرى . والغوادى السائرة بالنهار . والمعنى: إن خرجتم فى معاملتنا عن العدل ابتعدنا عنكم وخرجنا من ولايتكم إلى فلاة لم تنلها قدرتكم ، لم يبلغها سلطانكم بإبل نجيبة تحن إلى الصحراء منقادة لأمرنا موقوفة على إرادتنا قادرة قوية على قطع المسافات البعيدة ، مطيقة ، تواصل سرى الليل بسير النهار .

(٣) المنأى مكان النأى وهو البعد والمذهب مكان الذهاب ، وأوطنت مبنى للمجهول يقال أوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها إذا اتخذتها وطنا تقيم فيه . يقول : فى الأرض أماكن فسيحة تنجيك من احتمال الضيم وكل بلاد أقمت بها وطاب لك العيش فيها هى كمسقط رأسك ومحل ولادتك :

تلق بكل بلاد إن أقمت بها　　أهلا بأهل وجيرانا بجيران

كشف لك فى هذا البيت أن نفسه تطيب بالسفر وتسلو عن الأهل والبلد إذا لم تجد عدالة تعيش فى ظلها ولم الإقامة فى دار يسودها الظلم ؟

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده ... إذا نحن خلفنا حفير زياد (١)
فباست أبي الحجاج واست عجوزه ... عتيد بهم ترتعى بوهاد (٢)
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله ... يراوح صبيان القرى ويغادى (٣)

النقائض فى عصر بنى أمية (٤)

فن جديد من الشعر فى العصر الأموى ، استلزمه الجدل السياسى والقبلى والاجتماعى والأدبى، ونبغ فيه كثير من الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل

---

(١) الجهد الطاقة وخلفنا تركنا وراءنا . وحفير زياد نهر حفره زياد بن أبيه . يقول : إذا فارقت مملكته وتباعدت عن سلطانه وجاوزت حدود عمله فلا قدرة له على .

(٢) عتيد مصغر عتود وهو ما رعى وقوى من أولاد المعز وأتى عليه حول . والبهم أولاد المعز الصغار الواحد بهمة للذكر والأنثى . وباسته متعلق بفعل محذوف وهى من شتائم العرب المفحشة وعتيد منصوب على الذم . والمعنى : أنه فى خسته ودناءته ورياسته لأمثاله أشبه بعتود مع بهم .

(٣) يقول : لولا عبد الملك بن مروان وبنوه لظل الحجاج معلم كتاب وهم يذكرون أن الحجاج كان معلما بالطائف وكان لقبه كليبا وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

والعرب تحط من أقدار المعلمين وتضرب بهم المثل فى الضعف وتنهى عن مشاورتهم ، وروى الجاحظ أنهم كانوا يقولون : لاينبغى لعاقل أن يشاور أحداً من خمسة : الغزال والقطان والمعلم وراعى الضأن والرجل الكثير المحادثة للنساء، وتلك بقية من أميتهم .

(٤) هى جمع نقيضة من نقض البناء أى هدمه ، ونقض الحبل أى حله ، قال تعالى : ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وناقضته مناقضة أبطلت كلامه وأتيت بما يغايره .

يقول أحدهم قصيدة في موضوع وغالبا مايكون الفخر أو الهجاء، فيهب الآخر للرد على الشاعر والأخذ بالثأر منه ، فينظم قصيدة على نمط القصيدة الأولى وزنا وقافية غالبا ، يبطل فيها معانى الشاعر الأول وكل أفكاره ، بعكس المعارض ، والمعارضة التى هى تأييد لكل أفكار القصيدة المعارضة ، وتخالف المنافرة أيضا ، التى هى أن يفتخر الرجلان بشعرهما ويحتكمان إلى آخر ليفصل بينهما فى القضية .

وإذا كانت النقائض القبلية قد وجدت فى العصر الجاهلى فيما قيل فى يومى الكلاب الأول ، والكلاب الثانى ، والنقائض الدينية قد وجدت فى عصر النبوة بين حسان وابن الزبعرى وضرار بن الخطاب مثلا ، فإن النقائض الأموية فن سياسى وأدبى جديد نشأ بتأثير الحاجة إليه فى شئون السياسة والعصبية والأدب ، فالجانب السياسى والأدبى منه جديد كل الجدة ، أما الجانب القبلى الاجتماعى فهو تطور للجدل القبلى الجاهلى القديم .

وقد اشتدت معركة الهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل ودخل فيها الكثير من الشعراء الأمويين ، وفى هذه المعركة قيلت أكثر النقائض المأثورة التى جمعها أبو عبيدة (٢١٣ هـ : ٨٢٨ م) ، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق ونشرها أنطونى بيفان فى ثلاثة أجزاء ، ونشر الأب أنطون صالحانى نقائض جرير والأخطل .

والنقائض تصور الشعر الأموى تصويرا قويا واضحا ، وتمتاز هذه النقائض بما سادها من روح الإسفاف والمبالغة ، ونهش الأعراض والتعرض للحرمات والكرامات : مما تمثله نقائض هؤلاء الشعراء ، ومما لا داعى لتسجيل صورة لها فهى معروضة فى جميع كتب الأدب الأموى ، وبخاصة فى كتاب النقائض لأبى عبيدة .

ومن طريف صور شعر الهجاء قول شاعر يهجو امرأته وقد طلقها :

رحلت أنيسة بالطلاق وعتقت من رق الوثاق (١)
بانت فلم يألم لها قلبي ولم تبك المآقي (٢)
ودواء مالا تشتهيه النفس تعجيل الفراق (٣)
لو لم أرح بفراقها لأرحت نفسي بالإباق (٤)
وخصيت نفسي لا أريد حليلة حتى التلاقي (٥)

الفخر :

ومن نماذجه هذه الصورة الشعرية للطرماح وهي تجمع بين الفخر والحكمة ، قال شاعرنا الطرماح يصور شقاءه باللئام :

لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرىء غير طائل (٦)

(١) قوله « بالطلاق » موضع الباء نصب على الحال : أي رحلت ومعها طلاقها ، يقول : كنت كالأسير الموثق ففككت وثاقي .

(٢) جعل البكاء للآقي مجازاً ، وهو جمع موق ، وهو طرف العين الذي يلي الأنف ، وهو مخرج الدمع ، ولذلك جعل الفعل لها .

(٣) يريد تعجيل فراقه ، فجعل اللفظ عاما والمراد الخاص ، وعلى هذا قوله « من رق الوثاق » يريد وثاقها .

(٤) « الإباق » الهرب ، والراحة وجدانك الروح بعد مشقة ، و « مالك رواح » أي راحة ، والتراويح في رمضان منه ، وكذلك تراوحته الأمطار ، وأصل ذلك في سراح ورواح .

(٥) الحليلة : الزوج ، سميت بذلك لأنها تحاله : أي تنازله . حتى التلاقي : إلى وقت تلاقي الخلق في يوم القيامة .

(٦) غير طائل : أي لاقيمة له ولا وزن له ، والمعنى زادني بغضا إلى كل رجل لاخير فيه حبا لنفسي .

وأنى شقى بالشام ولا ترى   شقيا بهم إلا كريم الشمائل (١)
إذا ما رآنى قطع الطرف بينه   وبينى فعل العارف المتجاهل (٢)
ملأت عليه الأرض حتى كأنها   من الضيق فى عينيه كفة حابل (٣)
أكل امرىء الفى أباه مقصرا   معاد لأهل المكرمات الأوائل (٤)
إذا ذكرت مسعاة والده اضطنى   ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل (٥)
وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل (٦)

والطرماح من طى نشأ بالشام واتبع آراء الأزارقة من الخوارج وكان صديق الكميت الشاعر مع شيعية الكميت، وأنشد للكميت يوما للطرماح قول الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة

---

(١) أى وزادنى حبا لنفسى شقائى بالشام ينتقصوننى ويزدروننى ، ولا يشقى بالشام إلا كرام الناس وأفاضلهم .

(٢) رآنى أى أبصرنى . قطع الطرف أى رد طرفه عنى وقطع نظره إلى . المتجاهل الذى يدعى الجهل وليس بجاهل ، والمعنى . اذا رآنى قطع نظرى عنى وتكلف الجهل .

(٣) ملأت عليه الأرض أى ضيقتها عليه . كفة الحابل الحفيرة التى تنصب الحبال فيها لأنها تجعل كالطوق . الحابل صاحب الحبالة ، والمعنى: ضاقت على العدو الأرض بما رحبت وصارت فى نظره أضيق من كفة الحابل

(٤) أكل امرىء وجد أباه عاجزا عن نيل ما يكسبه من الفضائل وينبه يعادى أهل المجد والشرف والسابقين .

(٥) المسعاة : السعى . اضطنى بوزن افتعل من الضنى أى أنه يضنى اذا ذكر صنيع والده لقبحه ومع هذا يشتم أهل الفضائل .

(٦) القنا الرماح . القنابل : جماعات الخيل . والمعنى : العز بالقوة والغلبة على الأعداء .

وكان شاعرا مجيدا من فحول الشعراء الإسلاميين عاش فى عصر بنى أمية وحارب الأمويين بسيفه ولسانه حتى لقى ربه .

وفى هذه الأبيات السبعة يصور الطرماح شخصيته ونفسه وفضائله ويذكر كيف حقد عليه اللئام وعاداه كل إنسان لم يستطع الوصول إلى منازله فى الفضل والعزة .

ففى البيت الأول يقول: إنى أزداد حبا لنفسى حين أرانى بغيضا مكروها من كل امرىء خامل عاجز عن السعى عن درك المجد الذى أدركته .

وفى البيت الثانى يقول: ومما زادنى حبا فى نفسى أننى أرانى أشقى باللئام من الناس وبأخلاقهم ولا يشقى بهم إلا كرام الناس .

وفى البيت الثالث يصور تجاهل اللئيم لشخصية الطرماح فيقول : إنه يعرف الشاعر ولكنه يتجاهل وجوده حقداً يملأ قلبه وبغضاء تشتعل نارها فى نفسه وجوانحه لخوله مع ذيوع ذكر الشاعر ومجده . وكما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وفى البيت الرابع يقول الطرماح: إن شخصيته أحاطت بهذا اللئيم المتجاهل من كل مكان وسدت عليه رحاب الأرض بما وسعت فهو يملأ عليه الأرض كلها حتى إنها لتضيق بهذا اللئيم وكأنها من الضيق حفرة صغيرة .

وفى البيت الخامس يتعجب الشاعر من حقد هؤلاء اللئام ويقول : إن كل إنسان وضيع ليس له مجد ولا حسب يصبح معاديا لأولى الفضائل والأدب والحسب من الناس .

وفى البيت السادس يقول : إن هذا اللئيم إن ذكرت سيرة أبيه ناله الألم والضنى والفزع لسوء أصله وقبح فعله ، ولكنه لا يناله هذا الألم وهو يشتم الناس ويسب أهل الفضل والفضائل منهم .

وفى البيت السابع يقول الشاعر : إن المنعة والعزة لا تكتسب إلا بالرماح والقتال فالعز بالقوة والغلبة على الأعداء ، وهو معنى واحد تناوله هذا الشاعر الأموى فصوره أحسن تصوير ووضحه أكمل توضيح وأبان عنه إبانة كاملة .

وصف الانفعالات النفسية :

قال رجل من شذاذ بنى تميم يدعى أبا النشناش (١) :

وسائلة أين الرحيل وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه (٢)
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالنوال أقاربه
وللموت خير للفتى من قعوده ... عديما ومن مولى تعاف مشاربه
ليدرك ثارا أو ليكسب مغنما ... ألا إن هذا الدهر ترى عجائبه
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعش معذرا أو مت كريما فإننى ... أرى الموت لا يبقى على من يطالبه

المدح :

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أتصحو ، أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح (٣)
تقول العاذلات : علاك شيب ... أهذا الشيب : يمنعنى مراحى ؟ (٤)
تعزت أم حزرة ثم قالت : ... رأيت الواردين ذوى امتناح (٥)

---

(١) كان أبو النشناش من ذؤبان تميم وفتيانهم ، وكان يعترض القوافل بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها .

(٢) الصعلوك الفقير الذى لا مال له .

(٣) تصحو : تترك الباطل . الرواح : الذهاب عشية . ويصح أن تكون أم بمعنى بل .

(٤) المراح : الاختيال والتبختر .

(٥) أم حزرة : زوج جرير . امتناح : عطاء .

تعلل وهى ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح (١)
سأمتاح البحور فجنبينى ... أذاة اللوم وانتظرى امتياحى (٢)
ثقى بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى — يافداك أبى وأمى — ... بسيب منك إنك ذو ارتياح (٣)
فإنى قـــد رأيت على حقاً ... زيارتى الخليفـــة وامتداحى
سأشكر إن رددت على ريشى ... وأنبت القوادم فى جناحى (٤)
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح (٥)
وقوم قد سموت لهم فدانوا ... بدهم فى ململة رداح (٦)
أبحت حمى تهامة بعد نجد ... وما شىء حميت بمستباح (٧)

ومن شعراء المدح جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، ومنهم أبو دهبل الجمحى القرشى ، وأمه من هذيل ، مدح معاوية وعبد الله بن الزبير ، وكان ابن الزبير ولاه بعض أعمال اليمن ، ورثى الحسين بن على وابن الأزرق ، ووفد على سليمان بن عبد الملك (٨) .

(١) تعلل : تشغل وتلهى ساغبة جائعة الشبم البارد من الماء القراح الصافى .
(٢) متح الماء استقاه واستخرجه من البئر والمراد العطاء الذى يناله من عبد الملك بن مروان المشبه بالبحر عطاء .
(٣) السيب العطاء ذو ارتياح أى إلى الكرم .
(٤) القوادم جمع قادمة الريش فى مقدم الجناح وهى كبار الريش وضدها الخوافى والمراد إن أعززتنى .
(٥) المطايا جمع مطية ، الراح جمع راحة بطن الكف .
(٦) سموت لهم : خرجت إليهم محاربا . دانوا خضعوا . دهم خيل سود ، الواحد أدهم . الململة الكثيرة المجتمعة ورداح كتيبة ثقيلة .
(٧) أبحت حللت . الحمى ما يحميه الإنسان ويمنعه ـ اشارة الى حروبه فى بلاد العرب
(٨) ١١٤ - ١٤٥ : ٧ الأغانى .

الرثاء :

ونماذجه كثيرة فى الشعر الأموى : قال جرير يرثى زوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ... ومع الجمال سكينة ووقار
والريح طيبة إذا استقبلتها ... والعرض لادنس ولا خوار
وإذا سريت رأيت نارك نورت ... وجها أغر يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والأبرار

وقال كعب الغنوى يرثى أخاه :

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً ... كأنك يحميك الشراب طبيب
فقلت تحول من خطوب تتابعت ... على كبار والزمان يريب
لعمرى لئن كانت أصابت منية ... أخى فالمنايا للرجال شعوب
فإنى لباكيه وإنى لصادق ... عليه وبعض القائلين كذوب
أخ كان يكفينى وكان يعيننى ... على نائبات الدهر حين تنوب
هو العسل الماذى ليناً وشيمة ... وليث إذا لاقى الرجال قطوب
كعالية الرمح الردينى لم يكن ... إذا ابتدر الخيل الرجال يخيب
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقالت أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس أمير اليمن للخليفة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فى رثاء طفليها ، وكان معاوية قد بعث قائده بسر بن أرطاة إلى اليمن ، ففر من وجهه عبيد الله ، فعمد بسر إلى طفليه الصغيرين فذبحهما بمدية ، فقالت أمهما ترثيهما :

يا من أحس بابنى اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بابنى اللذين هما ... سمعى وقلبى ، فقلبى اليوم مزدهف

يامن أحس بابنى اللذين هما   مخ العظام ، فمخى اليوم مختطف
نبئت بسراً ، وما صـــدقت مازعموا
من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنحى على ودجى ابنى مرهفة   مشحوذة ، وكذاك الإثم يقترف
حتى لقيت رجالا من أرومته   شم الأنوف لهم فى قومهم شرف
فالآن ألعن بسراً حق لعنته   هذا لعمر أبى بسر هو السرف
من دل والهة حـــيرى مدلهة   على صبيين حلا ، إذ غدا السلف

وقال عبدالله بن عمر الأموى (١) يرثى بنى أمية حين نكبهم العباسيون وهى من روائع الرثاء للدول :

تقول أمامة لما رأت   نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى   لدى هجمة الأعين النعس
أبى : ماعراك ؟ فقلت الهموم   منعن أباك فلا تبلسى(٢)
عرون أباك فحبسنه   من الذل فى شر ما محبس
لفقد العشيرة إذ نالها   سهام من الحرب لم تبأس
رمتها المنون بلا أنصل   ولا طائشات ولا نكس(٣)
بأسهمها الخالسات النفوس   متى ما اقتضت مهجة تخلس(٤)

---

(١) شاعر مجيد من شعراء قريش أدرك الدولة العباسية ويكنى أباعدى ، ويلقب بالعبلى ، وكان رغم انتسابه الى بنى أمية يميل الى بنى هاشم .

(٢) أبلس الرجل : يئس من رحمة الله .

(٣) نصل السهم : حديدها . ونكس : جمع نكس ـ بكسر النون وسكون الكاف : أضعف السهام ، ومعنى البيتين : أن المنون رمتها بسهام لانصال لها ولا هى طائشة ولا ضعيفة .

(٤) خلس النفس : أخذها من حيث لا تتق . وخلس : اختلق واقتبض .

فصرعاهم فى نواحى البلا ... د تلق بأرض ولم ترمس(١)
كريم أصيب وأثوابه ... من العار والذام لم تدنس(٢)
وآخر قد طار خوف الردى ... وكان الهمام فلم يحبس
فكم غادروا من بواكى العيو ... ن مرضى ومن صبية بؤس
إذا ما ذكرتهم لم تنم ... لحر الهموم ولم تجلس
يرجعن مثل بكاء الحما ... م فى مأتم قلق المجلس
فذاك الذى غالنى فاعلمى ... ولا تسأليني فتستنحسى
أفاض المدامع قتلى كدا ... وقتلى بكبكب لم ترمس(٣)
وبالزابيين نفوس ثوت ... وقتلى بنهر أبى فطرس
أولئك قومى تداعت بهم ... نوائب من زمن متعس
أذلت قيادى لمن رامنى ... وألزقت الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم ... ولا عاش بعدهم من نسى

ومن أشهر قصائد الرثاء فى هذا العصر قصيدة لمالك بن الريب يرثى نفسه ، وكان قد خرج للغزو فى جيش سعيد بن عثمان إلى خراسان فأدركته المنية ، وهو عائد من هناك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا ... مزار ولكن الغضا ليس دانيا
ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى ... وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
تذكرت من يبكى على فلم أجد ... سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه ... إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

---

(١) ترمس : تقبر .   (٢) الذام : الذم .
(٣) كدا الثنية السفلى مما يلى باب العمرة بمكة .

ولكن بأكناف السمينة نسوة ... عزيز عليهن العشيـــة مابيا
صريع على أيدى الرجال بقفرة ... يسوون قبرى حيث حم قضائيا
ولما تراءت عند مرو منيتى ... وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
أقول لأصحابى ارفعونى فإنه ... يقر بعينى أن سهيل بداليا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا ... برابية إنى مقيم لياليـــا
أقيما على اليوم أو بعض ليلة ... ولا تعجلانى قد تبين شانيا
وقوما إذا ما استل روحى فهيئا ... لى السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسدانى بارك الله فيكما ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذانى فجرانى ببردى إليكما ... فقد كان قبل اليوم صعباً قياديا
أقلب طرفى فوق رحلى فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدننى ... بكين وفدين الطبيب المداويا
وما كان عهد الرمل عندى وأهله ... ذميا ولا ودعت بالرمل قاليا
فنهن أمى وابنتاها وخالتى ... وباكية أخرى تهيج البواكيا

وعندما تريد أن تتعرف إلى المعانى التى أراد الشاعر أن يصورها فى قصيدته تجده يقول :

١ — ألا ليتنى أعرف ، وأنا مشرف الآن على التلف والهلاك : هل أمد بأسباب السلامة والبقاء ؟ فأعود إلى وطنى الغضا لأبيت ولو ليلة واحدة بأكنافه ، أسوق كما كان شأنى فى أوقات الصحة والسلامة هذه النوق الطوال القوائم المسرعات فى السير .

٢ — ولكن من أين لى هذا ، وأنا على ما أنا عليه من وشك التلف

والهلاك ؟ فليت الركب الذى كنا فيه لم يقطع جانب الغضا وناحيته ، وليت الركاب التى سارت بنا إذ قدر لها أن تقطعه سارت بنا فيه ليالى كثيرة لا هذا الزمن اليسير الذى فارقناه فيه .

٣ — لقد كان لى فى أهل الغضا لو كان الغضا قريبا منى موضع زيارة يشفى غلة الشوق إليهم ، ويسلينى عما أصابنى ونزل بى ، ولكن من أين لى هذا ؟ والغضا بعيد ليس بقريب .

٤ — قد يسلينى عما صرت إليه ، وما نزل بى ، أنى استبدلت الهدى بالضلال ، وأصبحت غازيا فى جيش سعيد بن عثمان ، يعنى بعدما كان من فتكه ، وقطعه للطريق .

٥ ، ٦ — تذكرت كما يتذكر من يدركه الموت من يبكى على من الأهل والأحباب فلم أجد إلا هذه الأشياء الملازمة لى ملازمة الأهل والأحباب : سيفى ورمحى ، وفرسى الذى تركه موتى بما قدم من أسباب ضعفى ، وعجزى بلا كافل يكفله ، ولا ساق يسقيه .

٧ — وليس منى هذا أنى لا خليل لى من الناس يبكينى . فإن هناك حيث قومى بالسمينة نسوة يعز عليهن ما نزل بى فى هذه العشية .

٨ — أنا صريع ملق على أيدى الرجال بأرض غالية لا عشير بها ولا أنيس ، وفى هذه الأرض سيسوون قبرى لأن بها قد وقع ونزل بى القضاء .

٩ ، ١٠ — وحين ترامت لى ، وظهرت عند هذه المدينة الخراسانية ـ مرو ـ أسباب منيتى بادية شيئا فشيئا ، واختل جسمى واضمحل ، وأتى حين موتى لم أجد من سبيل إلى الاتصال بأهلى ووطنى سوى رؤية هذا النجم العربى الذى يطلع على قومى . فأنا أقول لأصحابى : ارفعونى لأراه فتقر به عينى . وذلك كقول القائل :

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تدانى
نعم . وأرى الهلال كما تراه ... ويعلوها النهار كما علانى

١١ — فياصاحبي رحلي ، ورفيق سفرى . إنه لم يبق من وجه لسفر مثلى فانزلا بى فى مكان مرتفع لتسووا به قبرى فإنى مقيم ليالى كثيرة متطاولة .

١٢ — امكثا على رعايتى ، والقيام بشأنى سائر هذا اليوم ، أو سائره وبعض الليل . فإنى لن أجاوز هذين الوقتين . ولا تعجلا بفراق فإنه لا وجه للمثل منى . فشأنى كما قد ظهر وتبين نذير بموت قريب غير بعيد .

١٣ — وقوما إذا مانزعت روحى بما يجب لى عليكما من حق الصحبة : من تهيئة السدر لحنوطى وغسلى ، ومن تهيئة أكفانى وابكيا لموتى ، وعلى فراق .

١٤ — واحفرا مضجعى بأطراف الأسنة ، فإنها هى ما معكما أو لأن الفرسان من أمثالى لاينبغى أن تحفر قبورهم إلا بها وافعلا بى ماتقتضيه السنة : من رد ردائى على وجهى .

١٥ — وأنهاكما ياصاحبي — بارك الله لكما فى كل ما آتاكما — أن تحسدانى على هذه الأرض الواسعة التى انفردت بمرضها وحدى .

١٦ — إذا ماأردتما إنفاذ وصيتى لكما بتجهيزى ، ودفنى فجرانى بثوبى إليكما . فإن ذلك أصبح ميسوراً لكما بعد موتى ، أما قبله فما كان أحد يطمع فى مثل ذلك منى .

١٧ — إنى ليعاودنى فى هذا الموقف الحاسم من مواقف الفراق الذى جرت العادة فى مثله أن تحيط بالإنسان عيون المؤانسات المراعيات من الحبائب المشفقات الحانيات ، ذكراهن ومشهدهن . فأحول بصرى من حول رحلى مكذبا لعلى لعلى أرى منهن واحدة فلا أجد . فياللوعة الوحدة ، ويالفعل النوى ، ويالوحشة الفراق والاغتراب .

١٨ — بمواطني ومنازل أهلي منهن نسوة لو حضرتني ، ورأين ما بي لبكين على مصابي ، ولقلن للطبيب : فداؤك الآباء والأمهات ، وكل ما يكون من الفداء لو شفاه الله بعلاجك .

١٩ — وما كان هذا الفراق الذي أعانيه لوطني لأني ذممت عهده والعيش فيه ولا لأني ودعت من فيه كارها له أوكارها لي ، وذلك كقول القائل :

فوالله مافارقتكم قاليا لكم   ولكن مايقضى فسوف يكون

٢٠ — فمن هؤلاء المؤنسات المراعيات اللواتي لو حضرن حالي لبكين على وفدين الطبيب المداوي ، من لا يشك في مودته ، وحبه لي: أمي وأختاي وخالتي وزوجي التي لن تجد فقدا كفقدي ، ولن تبكي أحداً مثلي فهي تهيج بكاها كل من حضرها فتثيره على البكاء والانتحاب .

وكان مالك بن الريب المازني التميمي شاعراً إسلاميا مجيداً نشأ في بادية بني تميم قرب البصرة ونظم الشعر الرقيق الجيد ونال الناس بالشعر والهجاء فطلبه الولاة وفرمنهم ثم أخذه معه سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان من قبل معاوية . ولما عاد مالك من خراسان مرض ، فنظم هذه القصيدة الرائعة يذكر فيها مرضه وغربته ، وينعي نفسه ، ويرثيها .

ويروى أن مالك بن الريب كان من أجمل العرب جمـــالا وأبينهم بيانا ، فلما رآه سعيد أعجبه فقال له : ويحك يامالك ماالذي يدعوك إلى مايلغيني عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال أصلح الله الأمير : العجز عن مكافأة الإخوان ، قال : فإن أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعني؟ قال نعم أصلح الله الأمير ، أكف كفا ماكف أحد أحسن منه فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار في كل شهر ، وكان معه حتى قتل بخراسان .

٢ — أساليب الشعر الأموى وألفاظه

١ — الأسلوب فى اللغة الطريق وعنق الأسد والسطر من النخيل والوجه والمذهب والفن ، والأسلوب الأدبى يعرفه ابن خلدون فى حديث طويل بأنه « المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه (١) » ، فهو يراه فى الصورة الأدبية الممتازة التى يحتذيها الأدباء والشعراء وينسجون فى أدبهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحدثين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإقناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) ، ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه ؛ ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر فى نفس القارىء أو السامع ، ويذكرون أن له غرضين : نقل الحقائق أو المعانى إلى ذهن السامع أو القارىء ، ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير .

ونعرفه نحن بأنه نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه ، والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه ، ومايؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة فى شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة ، وتورية وتدبيج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التى يسير عليها فى صياغته من تقديم أو تأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطناب إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، ومايراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف فى بدء كلامه وفى فصوله وخاتمته .

---

(١) ٥٧٠ مقدمة ابن خلدون . (٢) راجع ٢٣ - ٣٩ الأسلوب للشايب .

والأسلوب هو الوسيلة التي ينقل بها الأديب والشاعر فكرته وعاطفته وآراءه ومعانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير .

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من حرارة وعاطفة وقوة تأثير ، ولطف تخييل ، وما يشتمل عليه من طبع وصدق وإخلاص وقدرة على إلهاب المشاعر ، وتأجيج العواطف ، وإثارة الانفعالات النفسية العميقة .

إن الشعر موسيقى خالدة أبدية ، لألحانها أثر في القلب ، وهزة في النفس والوجدان ، لا يعدلها أثر .

٢ — ولقد تأثر الشعر العربي في عصر بني أمية بعوامل متعددة ، كان لكل عامل منها أثره الخاص في ألفاظه وأساليبه :

١ — فقد التفت العربي إلى القرآن الكريم ، وجعل يستظهر آياته ، ويتملى من بلاغته ، ويعجب بأساليبه البارعة ، وألفاظه العذبة ، وديباجته المشرقة ، واستمع إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يلتمع فيها من جوامع الكلم ، وسلامة الأسلوب ، وإشراق البيان ، فكان لهذا أثره في تهذيب لفظ الشعر وأسلوبه ، وترقيق حواشيه وصفاء ديباجته .

٢ — وإلى جانب ذلك عنى القوم برواية الشعر الجاهلي واستظهاره ، وإحياء آداب القدماء ، بما تنطوي عليه من جزالة الألفاظ ، وضخامة الأساليب ، فكان لابد أن تتأثر لذلك أذواقهم ، وتنطبع عليه ألسنتهم ، ويظهر ذلك في منطقهم .

٣ — ثم كان هناك شعراء غمرتهم الحضارة ، واستولى عليهم الترف ، وعاشوا في ظلال النعيم الذي أتيح لهذه الدولة . وللحضارة أثرها في رقة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وسهولة الأسلوب .

٤ — كما كان هناك شعراء آخرون عاشوا في البادية ، أو عاشوا بروح البادية ، وانطبعت في نفوسهم صورها الخشنة ، وأطيافها الجافية ، فكانوا

بدويين فى تفكيرهم ومنطقهم وأسلوب شعرهم ولم يغيروا من مناهجهم فى الشعر شيئاً أكثر مما صنع المخضرمون .

ومن هنا وجدت فى الشعر نزعات مختلفة ، ومذاهب متباينة وألوان متعددة كانت نتيجة لاختلاف هذه العوامل :

فهناك من الشعر ما يروعنا بحلاوة جرسه ، ورقة لفظه ، وعذوبة أسلوبه وسماحة منزعه ، وتدفق الأنغام الشجية التى تنساب من بين ثناياه . وهو الشعر الذى تأثر بأدب الإسلام ، أو عاش فى الحواضر المترفة . ومن أصحاب هذا النوع شعراء الغزل الحجازيون : كعمر وجميل والأحوص ، وبعض شعراء الأمصار كجرير ، الذى كان الفرزدق يقول فيه : ما أحوجنى مع فسوق إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى » .

وكذلك نجد فى الشعر الأموى ما يطالعنا بجزالة لفظه ، وقوة أسلوبه ، ومتانة تركيبه ، وغرابة منزعه ، ووعورة مسلكه ، وبداوة سمته ، وذلك هو الشعر الذى تغذى أصحابه بآثار الجاهليين ، وارتضعوا أفاويق القدماء ، وعاشوا بروح البادية ، وانطبعوا بطابعها ، كالفرزدق وذى الرمة والقطامى والأخطل وقطرى بن الفجاءة .

٣ — ومن السمات البدوية التى شاعت فى هذا العصر ظهور الأراجيز وكثرتها فقد عنوا بها عناية جعلتها تقرب من القصائد فى أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البدوى ينظم منها بضع مشطورات يحدو بها الإبل أو يصفها أو يصف ظبيا أو ظليما أو ثورا وحشيا ، أخذ الفحول من الرجازين يطولون الأراجيز وينحون بها منحى القصائد ، ويضمنونها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمهدون لهــــذه الأغراض بالنسيب ، وذكر الديار وآثارها ، والظعائن وحدوجها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة .

ويرى بعض الأدباء كابن قتيبة أن الأغلب العجلى أول من اتخذ الرجز صناعة فنية ، وأطال فيه ، وجوده . أما أبو عبيدة فيذكر أن العجاج هو

أول من أطاله وقصده وشبب فيه ووصف الرحلة، إلى الممدوح كما فعل الشعراء بالقصيدة، فكان فى الرجاز كامرىء القيس فى الشعراء.

ومن الرجازين فى العصر الأموى غير العجاج والأغلب العجلى: رؤبة ابن العجاج، وأبو النجم، ودكين . . . ومن أمثلة الرجز قول أبى النجم:

إنى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر
فما رآنى شاعر إلا استتر فعل نجوم الليل عاين القمر
عيشى تميم واصغرى فيمن صغر وباشرى الذل وأعطى من عشر
وأمرى الأنثى عليك والذكر

٣ — المعانى والأخيلة

أما معانى الشعر فى هذا العصر فهى المعانى التى تداولها الشعراء قبله؛ بيد أنهم توسعوا فيها، وزادوا عليها بما تهيأ لهم من مظاهر الحياة، وألوان الحضارة، وسعة الثقافة، والاختلاط بأمم ذات حضارات ومعارف متنوعة، بل إن من هذه الأمم من تم نضجه الأدبى، واستوى فنه العربى، فقال الشعر بالعربية متأثرا بثقافته وما ورث من أفكار ومعان وأخيلة.

ومن هنا غلبت على معانى الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار، وكثرت الحكم والأمثال، وتنوعت التشبيهات، وسما الخيال، وبدت صبغة الجدة واضحة فى بعض المناحى والأغراض.

والخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف الآراء تخيلا وتصويرا يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب الروعة والجمال عرضاً مؤثرا تحسبه حقيقة أو كالحقيقة الملموسة، يأخذ الشاعر الأشياء المألوفة التى يراها الناس جميعا ثم يعمل فيها خياله فيخرجها

فى صورة جديدة لم نكن نتوهمها ، فليس الخيال دائما مجافاة للحقائق وبعداً عن المألوف وقدرة على الإغراب والإتيان بما لا يكون ، بل المهم أنه مرآة تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاها من كل شائبة وأخرجها إخراجا جديدا والخيال خادم للحقيقة وغايته تصوير ما حجب عنا من حقائق الوجود . وهو فى حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن فى انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها ، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة فى الحياة المحيطة به مما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلا فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك فى ذهنه وأعماق شعوره تركيزا تاما ، ويأخذ فى الغوص فى أغوار الذهن على التفاصيل ودلالاتها ، مستغرقا فى نشوته الروحية وفى تأملاته ، وفى تصوره وتخيله استغراقا تاما يساعده على نشر المطوى من الملاحظات واظهارها فى فن جميل وآية من سحر القريض وهذا الاستغراق وتلك النشوة والغبطة بالتعبير عن النفس يفجران ينبوعا من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثارا من الفن والجمال ، فمادة الشعر الأولى فى العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل ويأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويحس به الإنسان ، وهذه العواطف هى الينابيع الصادقة للشعر (١) ، وهى التى يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسعى ليركب الصور المودعة فى العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فنا شعريا يعبر

---

(١) والقدماء من النقاد يختلفون فى مادة الشعر اختلافا كبيرا ، فالجاحظ يراها فى الأسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله : والمعانى مطروحة فى الطريق وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٤٠ / ٣ الحيوان) ، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر فى الدلائل ، أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هى المعانى (١٤ نقد الشعر) ، والآمدى وابن خلدون يريانها فى الألفاظ (١٨٣ الموازنة ، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون) .

عنها ويوضح ما خفى منها ، فليس الشعر صورا وألفاظا وعبارات ، إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صناع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة فى صور من الألفاظ والأساليب ، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها ، فإذا كانت صور الخيال ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية كان الأثر الأدبى متكلفا مصنوعاً لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكما وإحساس العاطفة قوياً نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصور جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة فى الذاكرة وألفت تأليفاً جديدا سمى خيالا مبتدعا ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذى يصورها ويبثها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خلقت خيالا رائعا ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلودا فعلينا أن نعنى بتهذيب الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقا وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبى موهوبا ملهماً ، فالخيال أنفع المواهب والملكات فى فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والعواطف الإنسانية .

طوائف الشعراء الأمويين

انقسم الشعراء الأمويون طوائف ، من حيث أغراضهم الشعرية ، ومن حيث اتجاهاتهم الفنية :

(١) فهم من حيث الأغراض جماعات ثلاث :

١ — أما الأولى فشعراء الغزل : وقد مر بنا ذكر الكثير منهم، ونماذج من أشعارهم ومذاهبهم في الغزل . ومن أشهرهم : جميل بن معمر المتوفى عام ٨٠هـ ، وكثير عزة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ونصيب ، والأحوص .

ويمتاز شعر الغزليين على وجه العموم بالرقة والعذوبة والسهولة .

٢ — والثانية الشعراء السياسيون : الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والعصبيات القبلية ، وإذاعة المفاخر والمثالب ؛ ومن هؤلاء : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والكميت ، وابن قيس الرقيات ، ممن انتموا إلى الأحزاب السياسية يؤيدون أصحابها . وينصرونهم بقوة البيان ويشيدون بدعواتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، ويجمعون حولهم القلوب ، ويفرقون في سبيل مذهبهم الوحدة ، حتى صار شعرهم غذاء للعصبيات ، ومادة للمفاخرات والمهاترات ، يروى أن الهاشميين حرضوا الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، قال المسعودي في مروج الذهب : إن عبيد الله ابن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال للكميت : إني قد رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب ، فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب في وصفهم وفضلهم على بنى قحطان ، وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم ... تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزاراً ... وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات ... وللناس القفا ولنا الجبينا

٣ — والثالثة: الشعراء الهجاءون: الذين أكثروا من الهجاء، وعاشوا عليه، وتبادلوا المناقضات، يحيون بها العصبية، ويؤرثون العداوة، ويتبارون فى فنون الهجاء المقذع، والتباهى بأحساب الجاهلية ومآثرها وأيامها ونبش مادفنه الإسلام من مثالب القبائل ومعايبها، ومن هؤلاء: جرير والفرزدق والأخطل والراعى والبعيث.

(ب) وهم من حيث اتجاهات الشعراء الفنية، فى عصر بنى أمية انقسموا جماعات وطوائف:

١ — فالأولى، شعراء البادية: الذين لم يتأثروا بالحياة الجديدة كبير تأثر، ولم يغيروا من عيشهم تغيرا يذكر: فظلوا يحاكون نمط الجاهليين فى نظام القريض أسلوبا وألفاظا ومعانى وخيالات، ومن هؤلاء: ذو الرمة والرماح بن ميادة، سمع الفرزدق ذا الرمة ينشد، فوقف عليه، فقال: كيف ترى ماتسمع ياأبافراس؟ قال: ماأحسن ماتقول، قال فما لى لاأذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتهم بكاؤك فى الدمن، ووصف الأبعار والعطن.

ولذلك كان شعر هذه الطبقة بدويا جزلا فخم الألفاظ والأساليب.

٢ — والثانية، شعراء الأمصار: كمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة، ممن كانوا عربا خلصا، وقد تأثرهؤلاء ببيئتهم وعصرهم وبالقرآن الكريم وبالثقافات التى ذاعت بينهم، وأتى شعرهم حضريا رائعا سلسا فى جزالة، وإن امتاز شعر الحجاز بالرقة والسلاسة أكثر من غيره، ومن هؤلاء: ابن قيس الرقيات، وجرير والأخطل والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة.

٣ — والثالثة ، الشعراء الموالى : الذين كانوا من أصول غير عربية : كنصيب . وعبد بنى الحسحاس، وقد كانا من عنصر حبشى ، وكزياد الأعجم والبعيث وأبى نخيلة وموسى شهوات وهم من أصول فارسية .

ولا شك أن شعر هؤلاء كان صورة لما ورثوه من دماء وثقافة ومشاعر وأفكار وخواطر ووجدانات . . فبدت فيه المعانى الجديدة ، والأخيلة والتشبيهات الغريبة ، واضحة ملموسة .

(ج) بعض الشعراء الأمويين :

١ — أبو وجزة الشاعر (توفى عام ١٣٠ هـ (١)) معد بنى سعد بن بكر . وكان رسول الله مسترضعا فيهم عند حليمة السعدية .

٢ — عقيل بن علفة من (ذبيان (٢)) ـ شاعر أموى مقل مجيد .

٣ — شبيب بن البرصاء من ذبيان (٣) ، شاعر أموى فصيح ، عاش فى البادية .

٤ — يزيد بن الحكم (٤) شاعر أموى، وكان شاعر ثقيف فى الإسلام .

٥ — عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (٥) ، قتله أبو مسلم .

٦ — المتوكل الليثى (٦) وهو شاعر اسلامى مجيد ، من الكوفة .

---

(١) ٢٣٩ — ٢٥٣ : ١٢ الاغانى .

(٢) ٢٥٤ — ٢٧٠ : ١٢ الأغانى ويروى أنه قال لإسحاق بن يحيى : بالرفاء والبنين والطائر المحمود : فقال له يابن علفة . إنه يكره أن يقال هذا ، فقال عقيل إبن أخى ماتريد إلى ما أحدث، إنهذا قول أخوالك فى الجاهلية لايعرفون غيره .

(٣) ١٧١ — ٢٨٠ : ١٢ الأغانى . (٤) ٢٨٦ — ٢٩٦ : ١٢ الأغانى .

(٥) ٢١٥ — ٢٣٨ : ١٢ الأغانى . (٦) ١٥٩ — ١٦٨ : ١٢ الأغانى .

٧ — أرطاة بن زفر ، شاعر اسلامى فصيح ، وكان امرأ صدق،شريفا فى قومه ، جوادا ، وهو من ذبيان (١) .

٨ — أبو دهبل وهب الجمحى ، قال الشعر فى آخر خلافة على ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير (٢) ولاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن ، وكان سيد شريفا ، وذكر الجاحظ شعرا له (٣) ، وينسب هذا الشعر ليزيد بن معاوية يتغزل به فى راهبة ، وينسب كذلك للأحوص .

٩ — دكين بن رجاء بن فقيم ، راجز إسلامى أموى معاصر للفرزدق وجرير ، مدح عمر بن عبد العزيز وهو والى المدينة (٤) .

١٠ — عمرو بن أحمد الباهلى : شاعر أدرك الإسلام فأسلم وغزا مغازى الروم ، وتوفى على عهد معاوية أو فى عهد عثمان بن عفان عن سن عالية ، وهو كثير الغريب صحيح الكلام (٥) .

---

(١) ١٩ - ٤٤ : ١٢ الأغانى .
(٢) ٦ : ١٥٠ الأغانى .
(٣) ٤ : ١٠ الحيوان .
(٤) ٢٨٧ الشعر والشعراء طبع أوربا ، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٠ الشاهد ٤٥ .
(٥) راجع ص ٩٤ البديع لابن المعتز تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

الفرزدق شاعر العصر الأموى

ولد الفرزدق حوالى سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وكانت عشيرته من بنى مجاشع بن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطها عند الفتح ، وكانت لهم خطط ودور بالبصرة ينزلونها فى بعض فصول السنة ويتبدون فى بعضها الآخر .

وكان أبوه غالب بن صعصعة ينزل السيدان من بادية البصرة بالقرب من كاظمة على ماء كانت تنزل حوله قبائل شتى من قيس وتميم . وكانت البصرة فى أول أمرها تعتبر معسكراً للمقاتلة من العرب لايخالطهم فيها إلا مواليهم ، فكانت بذلك بيئة عربيـــة . فنشأ الفرزدق مابين السيدان والبصرة فصيح اللهجة ملماً بدقائق اللغة حافظاً غريبها عالما بأخبار العرب وأيامها وأيام تميم وخاصة أيام بنى دارم فى الجاهلية والإسلام ، وحبب إليه الشعر منذ طفولته فنظمه فأعجب به أبوه ، وكان من شيعة أمير المؤمنين على ، فأتاه عقب فراغه من وقعة الجمل ومعه ابنه الفرزدق ، فسأله عنه فقال : « هذا يوشك أن يكون شاعراً مجيداً ! » فقال : « أقرئه القرآن فهو خيرله » . فما زالت كلمة أمير المؤمنين تعمل فى نفس الفرزدق دهراً طويلا حتى عمل بها بعد أن جاوز الثلاثين .

وكان أبوه غالب كريماً متلافا سيداً شجاعاً ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر حتى مات فى إمارة زياد وخلافة معاوية ودفن بكاظمة ، وكذلك كان جد الفرزدق صعصعة من أكرم الناس فى الجاهلية وأشرفهم ، وكان شاعراً مقلا يلقب بمحيى الموءودات ، لأنه كان إذا علم برجل يهم بوأد ابنته للفقر اشتراها منه بناقتين لقوحين وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ستين وثلثمائة موءودة لم يشاركه فى هذه المكرمة أحد ، حتى أنزل الله

تحريم الوأد فى القرآن . ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم وعلمه آيات من القرآن ، وسأله : هل له فى فداء الموءودات من أجر ؟ فقال له : « هذا من البر ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام » .

فبذلك يفتخر الفرزدق على جرير ، لأن آباءه كانوا أذلاء ، وفطر الفرزدق على الهجاء من صغره . قال عن نفسه : «كنت أهاجى شعراء قومى فى خلافة عثمان بن عفان ، فكان قومى يخشون معرة لسانى منذ يومئذ » .

وهجا جرير البعيث وقومه مجاشعا وهم رهط الفرزدق أيضا فاضطر الفرزدق إلى الرد عليه وقال :

لعمرى لئن قيدت نفسى لطالما	سعيت وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاماً ما أرى من عماية	إذا برقت إلا شددت لها رحلى
فإن يك قيدى كان نذراً نذرته	فمابى عن أحساب قومى من شغل
أنا الذائد الحامى الذمار وإنما	يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

ثم هجا جريراً وهجاه جرير ، فما يقول قصيدة حتى ينقضها عليه جرير ، ولا يقول جرير قصيدة حتى ينقضها الفرزدق ، وتورط معهما فى تهاجيهما أكثر من ثمانين شاعرا منهم الأخطل ، فظهر جرير عليهم كلهم وأسقطهم وثبت له الفرزدق والأخطل . ومات الأخطل وبقى الآخران يتسابان سائر حياتهما . وكان جرير فى العشر السنوات الأولى من تهاجيهم يقيم منعزلا بالبادية باليمامة ويرسل بالقصائد إلى من بالبصرة من بنى يربوع . والفرزدق مقيم بالبصرة حيث الرواة وجمهرة العرب ، فأرسلت إليه يربوع وأحضرته إليها فكانا يتهاجيان . فإما أن يتلاقيا بالمربد وقد يؤدى ذلك إلى اقتتال بنى يربوع وبنى المجاشع ، وإما أن تجتمع يربوع ورواة جرير عليه بالمربد ، وتجتمع مجاشع ورواة الفرزدق عليه بمقبرة بنى حصن ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما بالبصرة .

وفى خلال تهاجيهما يهجو كل منهما بعض أنصار الآخر أو من يتعرض له ، فهجا الفرزدق فى أول تهاجيهما بنى فقيم وبنى نهشل ، فاستعدوا عليه زياداً ، وهو والى العراق من قبل معاوية ، وكان رجل جد ، فطلبه زياد فهرب إلى المدينة المنورة وعليها سعيد بن العاص ، وهو وال على المدينة لمعاوية ، ومدحه فأمنه سعيد ، فأقام فى المدينة يختلف إلى قيانها ويستمع إلى غنائهن ، ولم تطل الأيام حتى عزل سعيد وولى مروان بن الحكم ، فآخذه بما كان يقول وينشد من أخبث قوله وأرسل يطلبه . فلما جاءه قال : « أتدرى ما مثلك ؟ حديث تحدث به العرب أن ضبعاً مرت بحى قوم ، وقد رحلوا ، فوجدت مرآة ، فنظرت وجهها فيها ، فلما نظرت قبح وجهها ألقتها وقالت : من شر ما اطرحك أهلك ولكن من شر ما اطرحك أميرك ! — يريد زياداً — فلا تقيمن بالمدينة بعد ثلاثة أيام » فخرج يريد اليمن . فلما كان فى أثناء الطريق علم بموت زياد فخر ساجداً ورجع .

ولما مات معاوية وخالف أهل المدينة على يزيد ، وكاتب أهل الكوفة الحسين بالخلافة واستنهضوه إليهم سار إليهم فى أهل بيته ، فلقيه الفرزدق فى الطريق قادماً من العراق ، فسأله الحسين عن أهل الكوفة ، فقال له : « يا ابن رسول الله قلوبهم معك وسيوفهم مع أعدائك ! » ومضى كل لطيته .

ولما دعا عبد الله بن الزبير بمكة لنفسه بايعه أهل العراق ، وبعث إليهم أخاه مصعباً ، وكانت تميم البصرة فيمن دخل فى دعوته ، ومنهم رهط جرير والفرزدق . فولى ابن الزبير على البصرة الحارث بن أبى ربيعة المخزومى القرشى الملقب بالقباع ، وهو أخو عمر بن أبى ربيعة ، وكان متنسكا يروى عنه الفقه والحديث ، فأغضبه تساب جرير والفرزدق ، وكره منهما إذاعة الفاحشة بين المؤمنين ، فهدم الدارين اللتين كانا ينزلانهما بالبصرة ليتهيا ، فذلك حيث يقول الفرزدق وكان قد هرب منه .

أحارث داري مرتين هدمتها ... وأنت ابن أخت لا تخاف غوائله
وقبلك ما أعييت كاسر عينه ... زياداً فلم تقدر على حبائله
فما ليت لا آتيه تسعين حجة ... ولو كسرت عين القباع وكاهله

وفي ذلك يقول جرير :

أحارث خذ ماشئت منا ومنهم ... ودعنا نقس مجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تهديم دارنا ... بتهديم ماخور خبيث مداخله

ثم لما انتكث فتل ابن الزبير وماجت العراق بالفتن اختنق خبرهما حتى قتل عبد الملك بن مروان مصعباً ، وولى أخاه بشراً على العراق ، وكان أديبا يحب الشعراء ويعجبه أن يغري بينهم فجعل من أخص مادحيه الفرزدق وجريراً . فلما مات وآلت ولاية العراق إلى الحجاج كانا من مادحيه . ثم اتصلا بعبدالملك بن مروان وزاحما الأخطل في مدحه ، إلا أن الأخطل صانع الفرزدق وناصره على جرير كما علمت . وبقي الفرزدق وجرير يتكسبان بالشعر ، يمدح عبدالملك وإخوته والحجاج وولاته زمن عبدالملك والوليد وسليمان وهشام ، إلا أن الفرزدق لسوء سيرته وجهامة طبعه كان الولاة يحبسونه ويضطهدونه . ومن هؤلاء عمر بن عبد العزيز ، نفاه مرة عن المدينة ، وحبسه مالك بن المنذر والي البصرة من قبل خالد بن عبدالله القسري . ولما كبر الفرزدق خمدت فيه ثورة الشر وتنسك وتاب وتوفي بالبصرة عام ١١٠ هـ ودفن في مقبرة بني تميم بعـــد أن عمر نحواً من مائة سنة .

نشأ الفرزدق مع أبيه وأهل بيته يقيم بالبصرة بعض السنة وباديتها بسيدان وكاظمة من ناحية سيف البحر بقية السنة ، فجاءت أخلاقه في جملتها خليطاً من أخلاق أهل البدو وأخلاق أهل الحضر ، وهو إلى جفاء أهل البدو وغلظ طباعهم أقرب .

ولم يكن أهل بيته الأدنون وضعاء الأنفس ساقطي الهمة كأهل جرير

وأبيه عطية ، بل كانوا أغنياء كراما إلى حد الإسراف ، وبخاصة أبوه غالب . وعمر الفرزدق طويلا ورويت له أخبار كثيرة نستخلص منها عامة أخلاقه :

كان الفرزدق باراً بأبيه متفانيا فى محبته موقراً له فى حياته وبعد مماته ، حتى لقد كان يجير من يعوذ بقبر أبيه غالب بكاظمة . وكان فى استطاعته أن يعيش فى مال أبيه رخى البال هنىء العيش لو لم يستمع إلى تحريش السفهاء بينه وبين الناس . على أن انطباعه على الشعر منذ طفولته ولد فيه حب الانتصار والغلب والمباهاة ، وهى أخص صفات البدوى . ولم تكن المغالبة فى الشعر إلا بالهجاء والسباب والاقذاع فى القول . فخرج الفرزدق شريراً سليط اللسان عريضا للشر يبادىء من لم يبادئه به . وكان ذلك سبباً فى تأديب الولاة له بالحبس والنفى والتشريد مراراً فلم ينتفع بتأديبهم . فخافه الأشراف والعلماء فداروه بالمال والمقال .

وكان مع ذلك جبانا فروقة كثير الهرب من الولاة ممن يرى منه الجد فى الانتقام منه . وكان فاجراً لا يتورع عن ريبة . وربما تاب عن قذف المحصنات واقتراف المحظور ثم يعود . وحج مراراً وحده أو مع بعض الأمراء وأقام بمكة أو بالمدينة . فلم يؤثر ذلك فى تهذيبه .

وكان الفرزدق مع مدحه خلفاء بنى أمية يتشيع لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسره أحياناً ويظهر أحياناً على فلتات لسانه . على خلاف ما كان عليه أهل البصرة من النصب لعلى وآله لأنهم كانوا عثمانية منذ واقعة الجمل . ولعله ورث التشيع من أبيه غالب منذ قدومه على على وتعريفه أن ابنه من شعراء مضر فأمره أن يحفظه القرآن ، فما زالت كلمة أمير المؤمنين تختلج فى صدره حتى قيد نفسه ليجمع القرآن بعد أن حج وتاب . وكان يقدم على السيدة سكينة بنت الحسين متيمناً مستمنحاً .

وكان الفرزدق فخوراً إلى حد الغلو بنفسه وآبائه كثير التحدث عنهم

فى شعره ، وما من قصيدة له إلا غلب عليها فخره بآبائه لا يبالى أكانت فى مدح خليفة أم سوقة أم هى فى هجاء أم رثاء .

وكان نزر الكلام فى المدح قليله فى الفخر فجعل جرير يظهر عليه أحيانا من هذه الناحية ، والفرزدق كأكثر الشعراء قليل الوفاء — مدح الحجاج فى حياته وهجاه فى مماته .

وقال الفرزدق الشعر منذ طفولته فأعجب به أبوه غالب إذ لم يكن هو شاعراً . ولم يقل الشعر أحد من أهل بيته من هذه الطبقة ، وإنما كان صعصعة جده يقول المقطعات الهينة المقدار ، يقولها فى شأن نفسه ، وقد قيل للفرزدق : « مالك والشعر وما كان أبوك غالب شاعرا ولا كان صعصعة شاعراً . فمن أين لك هذا ؟ » قال : من قبل خالى العلاء بن قرظة الذى يقول :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وظهر شعره من أول أمره روعة وقوة أسر . وقد انتحى به ناحية الهجاء لما فطر عليه من طبيعة الشر وحب اللجاجة ولدادة الخصام . فهاجى شعراء قومه ، فلقوا منه شراً مستطيراً وتخوفه الأشراف وصانعوه . وأطمعه ذلك فى اتخاذ الشعر حرفة يتكسب بها وقد كان له فى مال أبيه وقومه غنية أى غنية ! . .

وكان الفرزدق قوى الذاكرة فحفظ من شعر الجاهلية والإسلام الكثير العزيز . وجمع من اللغة وتاريخ العرب فى جاهليتها عامة وأيام قومه خاصة مالم يبزه فيه شاعر من أهل زمانه حتى ولا جرير والأخطل .

وكان طويل النفس فى الهجاء والمناقضات والفخر ، حتى لتزيد بعض أبيات قصائده فيها على المائة ، قصير النفس فى المدح فلا يكاد مدحه يبلغ ثلث ما فى القصيدة من النسيب والفخر .

ومع فحولته فى الشعر وحسن تأتيه ومواتاته له فإنه كان يحسد من دونه من الشعراء على البيت أو الأبيات القليلة يقع له فيها المعنى البديع ، وخاصة إذا كان الشعر فى فخر لا يراه الفرزدق يليق بهذا الشاعر فيغصبه أبياته ويقول له : « أنا أولى بها منك » ! ويضمها إلى شعره فـــلا يستطيع الشاعر أن ينكرها عليه لعجزه عن مجاراته .

وشعر الفرزدق السياسى ويشمل مدحه وهجاءه ونقائضه ، ذو شهرة كبيرة ، ومكانة عالية ؛ ونماذجه كثيرة .

وأسلوب الفرزدق قوى شديد الأسر . ولذلك قيل : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر لسهولة شعر جرير وعذوبة أسلوبه .

وقد أكثر النقاد فى الموازنة بين جرير والفرزدق ، يفضل بعضهم جريراً ، ويفضل الآخرون الفرزدق ، ويقف الباقون فى أمر تفضيل أحدهما على الآخر ؛ وجملة الأمر أن جريرا والفرزدق احتلا الصدارة فى زمانهما ، وكانت منزلتهما عالية عند الملوك والولاة والشعب ، وأن جريرا تفوق فى مدائحه ، والفرزدق تفوق فى فخره .

وللفرزدق قصة شعرية فريدة فى بابها وتعد من صور القصة الشعرية فى الأدب العربى ، وتمثل سبق الشعراء العرب القدامى إلى هذا الفن ، وهى فى قص قصة ذئب مع الشاعر ، قال الفرزدق .

وأطلس عسال ، وما كان صاحبا ... دعوت لنارى موهنا فأتانى (١)
فلما دنا قلت أدن ، دونك إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

---

(١) الأطلس : الذئب فى لونه غبرة تميل إلى السواد . عسال : يضطرب فى مشيته . الموهن نحو نصف الليل ، وقال الأصمعى : هو حين يدبر الليل أى آخر الليل .

وقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فإن عاهدتني لاتخونني ... نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى ... رماك بسهم أو شباة سنان (١)
وكل رفيق كل رحل، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان (٢)

---

(١) شباة السنان : طرفه أو حده .
(٢) القنا : الرماح .

الأخطل شاعر بني أمية

غياث أو غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ، وكنيته أبو مالك ، وقد كان مالك أكبر أولاده ، والأخطل هو ذو الخطل أو الطويل الأذنين المسترخيهما .

وأشهر معاني الخطل : الخفة والسرعة والحمق والطول والمنطق الفاسد المضطرب والكلام الكثير الفاسد ، والاضطراب في الإنسان والفرس والرمح .

وقد ولد الأخطل في الحيرة من أبوين تغلبيين وكانت ولادته سنة ٦٤٠ ميلادية . وقد كانت قبيلة تغلب جمرة القبائل العربية ، ومن أمنعها وكانت تقيم في أرض الجزيرة أي بين دجلة والفرات .

في هذه القبيلة العزيزة نشأ الأخطل عزيزاً منيعاً . وقد تحلى بفصاحة شعرائها وتغنى ببطولة فرسانها وشجعانها وشاء الله أن تموت أمه وهو لم يزل صغيراً ، فتزوج أبوه بامرأة غيرها . وكل إليها تربية ولده غياث ، وقد ولدت زوجة أبيه إخوة له من أبيه .

ولم يزل الأخطل يتعاطى الشعر ، وبخاصة الهجاء ، حتى لمع نجمه على صغر سنه وبات الناس يحسبون له حساباً ، وقد أدت به جرأته إلى الاصطدام بشاعر تغلب كعب بن جعيل ، ولم يزل به حتى تغلب عليه وأسكته بل أخمله وانتزع منه لقب شاعر تغلب الفحل ، ولما بلغ الأخطل أشده تزوج بزوجته الأولى أم مالك التي ولدت له مالكا وغيره .

وفي إبان ذلك العهد كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية يوم ظهر الأخطل ، فأمها الشعراء من كل حدب وصوب ، وفي جملتهم شاعرنا ، طمعاً في أعطيات خلفائها الذين فتحوا باب بيت المال على مصراعيه للشعراء .

وغيرهم من المؤيدين والمناصرين ، وحدث أن شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية أول الخلفاء الأمويين ، الأمر الذى أحفظ ابنه يزيد فدخل على أبيه غاضباً وذكر له ما كان من أمر عبد الرحمن ، فهدأ أبوه روعه واستمهله ريثما يفد عليه وفد الأنصار ، أما يزيد فلم يرقه مسلك أبيه هذا بل طلب إلى كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار فقال له كعب : « أرادى أنت إلى الكفر بعد الإيمان ؟ والله لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن سأدلك على غلام فى الحى كافر كأن لسانه لسان ثور » ، يعنى الأخطل ، وربما كان كعب يرمى إلى إيقاع الأخطل فى التهلكة ، ولكنه أعلى منزلته من حيث لا يحتسب ، فطلب يزيد من الأخطـــل أن يهجو الأنصار ، فتهيب هذا الموقف فى البدء ، وخشى غضب معاوية غير أن يزيد أكد له أنه يحميه ، ودله على المواطن التى يهجوها الأنصار فهجاهم بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار

إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولاد كل مقبح أكار

ذهبت قريش بالمكارم والعلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ولم تكد قصيدة الأخطل هذه تنتشر حتى أحدثت ضجة بين الأنصار الذين هاجوا ، فدخل أحد شعرائهم ، النعمان بن بشير ، على معاوية ساخطاً ثم كشف عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين أترى لؤماً ؟ فدهش معاوية وقال : « لا بل أرى كرماً وخيراً ما ذاك » ؟ فقال النعمان : « زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا » فخشى معاوية سوء المغبة واسترضى النعمان بأن وهبه لسان الأخطل وأمر رجال الشرطة بأن يقبضوا على الأخطل ويسلموه إلى النعمان ليفعل بلسانه ما يشاء إلا أن يزيد أنقذه من ذلك العقاب ، ولم يزل يسترضى والده حتى رضى .

ولما تولى يزيد مقاليد الخلافة ظل الأخطل على موالاته ونصرته له ليس

بشعره فحسب بل يحمل قبيلته التغلبية على الانضمام إلى القبيلة الكلبية فى محاربة القبائل القيسية الموالية للزبيريين أعداء بنى أمية ، وعندما قضى يزيد نحبه حزن عليه الأخطل كثيرا ورثاه ، وخلف يزيد ولده معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم ، وظل الأخطل نصير الأمويين وشاعرهم المفضل .

ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، وكان عبدالملك يؤثره ويقدمه ، وقال له يوما : أنت شاعر أمير المؤمنين ، ويوما : أنت شاعر بنى أمية ، ومرة أخرى : أنت شاعر العرب .

ودخل على عبد الملك وأنشده رائيته الرائعة التى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

وهى القصيدة التى هنأ بها عبدالملك بظفره فى العراق حيث قتل مصعب ابن الزبير وقضى على أنصاره القيسيين فسر الخليفة منه وأجازه . وتستجلى مما تقدم ما كان للأخطل من منزلة عالية عند الأمويين ولقد كان نفسه عارفا بهذه المنزلة فأخذ يمن عليهم ويدل فى شعره مظهراً فضل قومه عليهم كما جاء فى قصيدته الرائية المذكورة :

بنى أمية قد ناضلت دونكم   أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا   لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

ولما كانوا جمعوا حولهم كلمة العرب ، فكل من الطرفين إذاً كان لاغنى له عن الآخر لأنه كان متمماً له ، وقد كان الأخطل مع بنى أمية مصداقا لما قال أبو تمام الطائى :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى   بغاة المعالى كيف تؤتى المكارم

وكان حال بنى أمية مع الأخطل مطابقاً لقول أحد الشعراء المتأخرين:

لولا الكرام وماسنوه من كرم   لم يدر ناظم شعر كيف يمتدح

وبق الأخطل على ولائه للأمويين حتى قضى نحبه ، إنما اختلف

المؤرخون على الزمن الذى مات فيه ، والأرجح أنه توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك سنة ٧١٠ م فيكون قد عاصر معاوية الأول ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان بن الحكم وعبـــد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك وأخاه سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام ابن عبد الملك .

وكان الأخطل كثير الاعتداد بشاعريته ، فقد ذكر المرتضى فى أماليه أن عامراً الشعبى — القاضى والعالم النقاد — دخل يوما على الخليفة عبد الملك بن مروان فرأى الأخطل بين يديه ، ولم يك قد تعرف إليه بعد ، وبعد أن سلم وجلس سأل عبد الملك الأخطل . « ويحك من أشعر الناس ؟ » فقال الأخطل : « أنا يا أمير المؤمنين » فغضب الشعبى وسأل الخليفة : « من هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس » قال : « الاخطل » فالتفت الشعبى إلى الأخطل وقال له : يا أخطل أشعر منك الذى يقول :

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر والحارث خير الأنام
لخمسة آباؤهم ماهم هم خير من يشرب صوب الغمام

وهى أبيات من قصيدة للنابغة الذبيانى ، فقال الأخطل : « من هـذا يا أمير المؤمنين ؟ » قال « الشعبى » عندها تراجع الأخطل وقال : « صدق والله ، النابغة أشعر منى » وفى رواية أنه قال : « إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريا أن أقول كما قلت » .

ويعرف للأخطل حفاظه على عروبته بأسلوبه اللغوى الفصيح ، ذلك الأسلوب الذى تغلب عليه المسحة الجاهلية ، فهو وعر الألفاظ شديد الأسر كالشعر الجاهلى ، بل ربما زادت وعورة ألفاظه ، فى بعض القصائد

على وعورة ألفاظ بعض الشعراء الجاهليين كعمرو بن كلثوم وعنترة العبسى وغيرهما ، وهذا ما دفع أباعمرو بن العلاء أحد كبار النقاد المشهورين إلى قول كلمته المأثورة : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية مافضلت عليه أحداً » .

خلف الأخطل بعده شعراً غزيراً تألف منه ديوان كبير ، أما شعره فيقسم إلى قسمين اثنين : سياسى وخمرى ، وفيه قصيدة واحدة فقط فى الرثاء قالها فى يزيد بن معاوية ، ويتخلل شعره السياسى والخمرى شىء من الشعر الوصفى قاله فى الخمرة ونهر الفرات ، والصيد وحمار الوحش،وما إلى ذلك .

وكانت مدائحه السياسية كلها فى بنى أمية وعمالهم ، وأشهر ممدوحيه يزيد بن معاوية ووالده ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، ثم الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على الحجاز والعراق ، وعكرمة الفياض كاتب بشر بن مروان عامل الكوفة ، وفى الديوان شعر يمدح به الأمويين عامة والمروانيين خاصة ، وكان شعره أرجع صفعة صفع بها أعداؤهم وناهشو أعراضهم من الأنصار والقيسيين والكليبيين وغيرهم ، فكان لعمله هـــذا الأثر العظيم فى تثبيت دعائم الدولة الأموية وإرساء قواعدها ، وإكثار أنصارها ومريديها ، إذ لايخفى ماكان للشعر من الهيمنة والسيطرة على عقول الناس وقلوبهم فى ذلك العهد ، ويجمل بنا هنا أن نسرد شيئاً من تلك الأماديح ، قال يمدح الخليفة عبد الملك بن مروان فى قصيدته الرائية المشهورة :

إلى امرىء لا تعرينا نوافله	أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطر
ثم استقل بأثقال العراق وقد	كانت له نقمة فيهم ومدخر
فى نبعة من قريش يعصبون بها	ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا انف	إذا ألمت بهم مكروهة صبروا

أعطاهم الله جداً ينصرون به … لاجد إلا صغير بعد محتصر
هم الذين يبارون الرياح إذا … قل الطعام على العافين أو قتروا
بني أميـــة نعماكم مجللة … تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك :

لولا الوليد وأسباب تناولني … بين يوم اجتماع الناس بالثلم
إذا لكنت كمن أودى ووأده … أهل القرابة بين اللحد والرجم
بني أمية قد أجدت فواضلكم … منكم جيادي ومنكم قبلها نعمي
لولا بلاؤكم في غير واحدة … إذا لقمت مقام الخائف الزدم
لولا تناولكم إياي ماعلقت … كفي بأرجائها القصوى ولا قدمي
لقد خشيت وشاة الناس عندكم … ولا صحيح على الأعداء والكلم

وبمثل هذا الشعر كان أبو مالك يمدح بني أمية وينشر فضلهم في الآفاق فيسير ذكرهم مع الركبان ويتحدث بجودهم كل لسان .

ويقول الأخطل في وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف … تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا … بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لاشــك فيها … وأرخى من مآزره الفضولا

ويقول الأخطل في مدح بني أمية :

إن يحلموا عنك فالأحلام شيمتهم … والموت ساعة يحمى منهم الغضب
كأنهم عند ذاكم ليس بينهم … وبين من حاربوا قربى ولا نسب
كانوا موالي حق يطلبون به … فأدركوه وما ملوا وما لغبوا

الكميت بن زيد الأسدى

٦٠ — ١٢٦ هـ

ألوان من حياته :

الكميت شاعر فحل مشهور ، من شعراء الدولة الأموية ، وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء ، وممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والبيان ، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدى .

وموطن الكميت هو الكوفة ، والكوفة من أشهر البلاد الإسلامية ، وأذيعها صيتاً فى اللغة ، والأدب ، والشعر ، وهى مجال الصراع السياسى بين الشيعة وبنى أمية ، وكانت عاصمة على ، وبقربها قتل الحسين بكربلاء ، وأكثر أهلها شيعة يتعصبون لعلى وآل بيته . ووالد الكميت هو زيد بن خنيس ابن مجالد من أسد من مضر من نزار ، وقومه بنو أسد مشهورون بفصاحة اللغة وسلامة الملكات .

ولد سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها ، بمدارسة العلم ، والأخذ عن الأعراب . وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فتخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حماد الراوية بالسبق عليه ، وقال الكميت الشعر وهو صغير ، وكان لايذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفته — تعليم صبيان الكوفة بالمسجد — . ولما حصف شعره وقوى أسره ، ولاسيما فى قصائده التى أعلن فيها تشيعه لبنى هاشم وآل على ، أخذ يتصل بالولاة ، والهاشميين ، يمدحهم وينال جوائزهم .

الكميت شاعر بنى هاشم السياسى :

ولما قال الكميت (١) بن زيد الأسدى الهاشميات ، قدم البصرة ، فأتى الفرزدق ، فقال : ياأبافراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك ! قال : ومن أنت؟ فانتسب له ، فقال : صدقت ! فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى ، فقلت شعرا ، وأحببت أن أعرض عليك ماقلت ، فإن كان حسنا أمرتنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ، وسترته على . فقال : يابن أخى أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات ماقلت راشداً ، فأنشده :

طربت — وما شوقا إلى البيض(٢) أطرب
ولا لعبــــاً منى وذو الشيب يلعب

قال : بلى : فإنك فى أوان اللعب فالعب ، فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم(٣) منزل ولم يتطربنى بنانـــ مخضب

قال : فما يطربك يابن أخى ؟ فقال :

وما أنا ممن يزجر الطير همــه أصاح غراب أم تعرض ثعلب(٤)

قال : فما أنت ؟ ويحك ! وإلى من تسمو ! فقال :

ولاالسانحات(٥) البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٢٧ ج ٤ ، المسعودى ص ٩٠ ، ج ٢

(٢) البيض : جمع بيضاء يريد النساء .

(٣) رسم : أثر ، يتطربنى : يحملنى على الطرب .

(٤) الزجر للطير : هو التيمن والتشاؤم بها ، والغراب أعظم ما كانت العرب تتطير به . وهذا نوع من العيافة .

(٤) السانح ماولاك ميامنه ، والبارح : ماولاك مياسره ، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثانى ، وأهل العامة بالعكس . والأعضب : الثور المكسور القرن ، وكانوا يتشاءمون به .

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه . فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب

قال : من هم ؟ ويحك ! قال :

إلى النفر البيض(١) الذين بحبهم إلى الله فيما نابنى أتقرب

قال : أرحنى ، ويحك ! من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط(٢) النبى فإننى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

قال : لله در بنى أبيك ! أصبت وأحسنت ؛ إذ عدلت عن الزعانف والأوباش ، إذن لا يصرد (٣) سهمك ، ولا يكذب قولك .

ثم مر فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى .

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن على بن الحسين ، فأذن له ليلا ، وأنشده قصيدته « من لقلب متيم مستهام » ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وقتيل بالطف(٤) غودر منهم بين غوغاء أمـــة وطغام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كميت ! لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان بن ثابت : لا زلت مؤيدا بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت !

فخرج من عنده فأتى عبد الله بن الحسن على فأنشده فقال له : إن لى ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك شهودا ، وناوله إياه .

(١) البيض : المشهورون من الأشراف .
(٢) الرهط : القوم والقبيلة .
(٣) صرد السهم : أخطأ أو نفذ حده ، ضد .
(٤) الطف : موضع قرب الكوفة ، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام .

فقال : بأبي أنت وأمي ! إني كنت أقول الشعر في غيركم ، أريد بذلك الدنيا والمال ! ولكني والله ما قلته فيكم إلا لله ! وما كنت لآخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمنا ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه .

فأخذ الكميت الكتاب ومضى ، فمكث أياما ، ثم جاء إلى عبدالله فقال : بأبي أنت وأمي ، يابن رسول الله ، إن لي حاجة ، قال : وماهي ؟ وكل حاجة لك مقضية ، قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ، قال : هذا الكتاب تقبله . وترتجع الضيعة ! ووضع الكتاب بين يديه ! فقبله عبد الله .

ونهض معه عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١) فأخذ ثوبا ، فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ، ويقول : يا بني هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبني أمية ، فأثيبوه بما قدرتم ! فيطرح الرجل في الثوب ماقدر عليه من دراهم ودنانير ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلي عن جسدها . فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم .

فجاء بها إلى الكميت فقال له : أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا ، وقد جمعنا هذا المال ، وفيه حلي النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك . فقال : بأبي أنت وأمي ! قد أكثرتم وأطبتم ، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك ثمنا من الدنيا ، فاردده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى ، فقال : إن أبيت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئا يغضب منه بعض الناس ، لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب فتكافئك بما تحب . فابتدأ الكميت ، وقال قصيدته التي يذكر

---

(١) من زعماء آل البيت ومن رجالات قريش ، أقام بالكوفة ورشحه أهلها للملك وبويع بالولاية ، وحاربته بنو أمية ، فتوجه إلى خرسان ، ولكن أبا مسلم حبسه ، ثم أعمل تدبيره في قتله (راجع ١٢٧ جـ٢ أعلام الأدب في عصر بني أمية لخفاجي) .

فيها مناقب قومه من مضر ، وربيعة وإياد وأنمار (١) ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب فى وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان .

فثارت العصبية فى البدو والحضر ، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية ، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بنى أمية ، إلى بنى هاشم .

ومن هذه القصيدة :

وجدت الله إذ سمى نزارا　　وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات　　وللناس القفا ولنا الجبينا (٢)

وكان الكميت من شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية ، المقارعين، العالمين بالمثالب .

الكميت يهجو اليمانية وآثار ذلك فى حياته :

وكان حكيم بن عياش الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر ،فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم ، قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسرى (٣) محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك ، فحمى الكميت لعشيرته ، وقال قصيدته المذهبة : ألا حييت عنا يامدينا ، وهى التى هجا فيها أهل اليمن (٤) ، وبلغ خالداً خبرها ،

(١) الأغانى ص ١١٠ ج ١٥

(٢) نقض دعبل هذه القصيدة على الكميت ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها وملوكها ، وذلك فى قصيدته التى منها :

أفيقى من ملامك يا ظعينا　　كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى　　يشيبن الذوائب والقرونا

(٣) هو والى الكوفة لهشام وقد وليها عام ١٠٥ هـ ، وعزل عنها عام ١٢٠ هـ ، وحبس وصودرت أمواله ، ثم قتل فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦ هـ .

(٤) كان هارون مولى الأزد يرد على الكميت ويفخر بقحطان (٧ : ٧٥ الحيوان ـ ط الخانجى) .

فقال : لا أبالى ما لم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه القصيدة وفيها ذم لعشيرة خالد ، فأحفظته عليه ، ثم قال : فعلها ، والله لأقتلنه ! ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعا ، فلما أنس بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ، ثم بالكوفة . فكتب إلى خالد — وهو عامله على العراق — : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد ، فبعث خالد إلى الكميت فى الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام ، واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد . ثم قال لأبان بن الوليد البجلى — وكان صديقا للكميت — أنظر ما ورد فى صديقك ، فقال : عز على والله ذلك .

ثم قام أبان ، فبعث إلى الكميت رسالة مع غلام له وأركب الغلام فرسا وقال له : أنت حر إن أدركت وأديت إليه الرسالة والفرس لك . وفى رسالته إلى الكميت : « قد بلغنى ماصرت إليه وهو القتل ، إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حبى(١) ، فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ، ولبست ثيابها وخرجت ،فإنى أرجو ألا يؤبه لك » . فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بنى عمه من أسد ، فدخل عليه حبيب فى حبسه ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدد رأيه .

ثم بعث الكميت إلى حبى امرأته فقص عليها القصة وقال لها :أى ابنة عم، إن الوالى لايقدم عليك ، ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك

---

(١) هى زوج الكميت .

له ، فألبسته ثيابها وإزارها ، وقالت له : أقبل وأدبر . ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك ، فأخرج على اسم الله – وأخرجت معه جارية لها – فخرج ، ولم يلتفت إليه الحرس وسار حتى دخل منزل أبي الوضاح ولما مضى على السجان وقت نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ! لا أم لك ! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ، فأحضر حبي ، وقال لها : ياعدوة الله احتلت على أمير المؤمنين ، وأخرجت عدوه لأمثلن بك ، ولأصنعن ولأفعلن ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ماسبيلك على امرأة منا خدعت ! فخافهم ، وخلى سبيلها ! وسقط غراب على الحائط فنعب ، فقال الكميت لأبي الوضاح : إني لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله ، فقال له : لابد من أن تحولني ، فخرج به إلى بني علقمة – وكانوا يتشيعون – فأقام فيهم ، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب .

وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلا في جماعة من بني أسد على خوف ووجل ، وكان عالما بالنجوم متهديا بها ، فلما صار سحيرا صاح بالفتيان : هوموا(١) ، وقام هو يصلي ، ثم رأى واحد منهم شخصا ، فتضعضع (٢) له ، فقال الكميت : مالك ؟ قال : أرى شيئا مقبلا ، فنظر إليه ، فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يد جزور فتعرقها (٣) ، ثم أهووا له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوي ، فقال الكميت ماله ؟ ويله ! ألم نطعمه

---

(١) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من النعاس .
(٢) تضعضع : خضع وذل .
(٣) تعرق العظم : أكل ماعليه من اللحم .

ونسقيه؟ وما عرفني بما يريد . هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق . تيامنوا يا فتيان . فتيامنوا . فسكن عواؤه !

الكميت في الشام :

ولم يزل الكميت يسير حتى جاء الشام . وتوارى في بني أسد وتميم ، ورحل إلى أشراف قريش - وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص - فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عنبسة ، فقالوا : يا أبا خالد ، هذه مكرمة قد أتاك الله بها . هذا الكميت بن زيد لسان مضر ، كتب أمير المؤمنين في قتله ، فنجا حتى تخلص إليك وإلينا . قال : فروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام . فمضى الكميت ، فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة ، فأتى مسلمة بن هشام فقال له : يا أبا شاكر مكرمة أتيتك بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفي بها وإلا كتمتها قال : وما هي؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم بما لم يسمع بمثله ، فقال : عليّ خلاصه .

ودخل على أبيه الخليفة هشام - في غير وقت دخول - فقال له هشام : أجئت لحاجة؟ قال : نعم ، قال : هي مقضية إلا أن يكون الكميت ، فقال : ما أحب أن تستثني علي في حاجتي . وما أنا والكميت؟ فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها(١)، قال : هي الكميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأماني ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولا لم يقل مثله ، قال : قد أمنته وأجزت أمانك له ، قال : فاجلس له مجلسا ينشدك فيه ما قال فينا .

---

(١) القطر : الجانب والناحية .

في مجلس هشام :

وعقد المجلس وارتجل الكميت في هذا المجلس خطبة ماسمع بمثلها قط . وامتدح بني أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالا حتى إنه لم يجمع منها إلا تلك الأبيات التي حفظها الناس في هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله في المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال : « أما بعد ، فإني كنت أتدهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزني وهلها ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية . فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم » .

ثم أنشد قصيدته التي أولها :

قف بالديار وقوف زائر

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقو ... ف بها وأنك غير صاغر
درجت عليها الغاديا ... ت الرائحات من الأعاصر(١)

وفيها يقول :

والآن صرت إلى أمية ... والأمور إلى المصائر

فجعل هشام يغمز مسلة بقضيب في يده ، ويقول : اسمع اسمع .

وفيها يقول :

كم قال قائلكم لعا ... لك عند عثرته لعاثر

---

(١) الأعاصر : جمع إعصار ، وهي الريح تثير السحاب ، أو التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء . والأصل في الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحذف الياء كالمفاتح في المفاتيح .

وغفرتمو لذوى الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم ... أهل الوسائل والأوامر
ثقتى بكل ملمة ... وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين ... خلائفا وبخير عاشر
وإلى القيامة لاتزا ... ل لشافع منكم وواتر(١)

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته ، فقال : « إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته ، ومناط المنتجعين من لاتحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين » . فقال هشام : ويلك ياكميت أ ، من زين لك الغواية ودلاك فى العماية » . قال : « الذى أخرج آبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

قال له : فأنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ... ويا حاطبا فى غيرك حبلك تحطب

قال : بل أنا القائل :

وجدنا قريشا قريش البطاح ... على مابنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفساد ... وحيص من الفتق ما رعبلوا(٢)

قال هشام : فأنت القائل :

لاكعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لايمت فقيداً ومن ... يحى فلاذو إل ولا ذو ذمام

(١) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منكم فيكون شفعاً فى العدد أو وترا .
(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . ورعبل الثوب : مزقه .

وبلك ياكميت ! جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة . قال : بل أنا القائل :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضي السياسة هاشمي يكون حيا لأمته ربيعا

قال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولي الكاذب . . .
قال : بماذا ؟ قال : بقولي الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقبا ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البدر فأمسى له رقيبا نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ن سني المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن وجدتها له معانا ودورا

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت عنك ياكميت ، فقبل يده ؛ وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد في تشريفي فلا تجعل لخالد على إمارة قال : قد فعلت وكتب له .

الكميت بعد العفو عنه :

وقد أراد الكميت أن يبعد عنه نطاق المراقبة والشبهات ، فأخذ يمدح هشاما بعد عفوه عنه ، ويمدح الأمراء والولاة ورجالات الدولة ، وينال جوائزهم ؛ ورجع الشاعر إلى الكوفة بعد أن نال العفو ، ونال الأمن والأمان من أن تمتد إليه يد خالد والي الكوفة ، وقد مدح خالدا إبعادا لشره عنه

ولما عزل خالد وولى الكوفة بعده يوسف بن عمر الثقفى عام ١٢٠ هـ ، صمت الكميت خوفا من بطش الوالى الجديد .

ومع أن الكميت مدح يوسف إلا أنه لم يسلم من مكره ، إذ قتله جند يوسف وهو فى مجلسه ينشده مدحه عام ١٢٦ هـ

يروى أن الكميت لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار فى مدحـــه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية (١) ، وهو على المنبر . قال الكميت :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن   كمن حصنه فيه الرتاج المضبب (٢)
وما خالد يستطعم الماء فاغرا   بعدلك والداعى إلى الموت ينعب (٣)

وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

---

(١) أتباع أبى جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرتاج : الباب العظيم ، وهو الباب المغلق وفيه باب صغير . ومضبب : عليه ضبة ، وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

(٣) فاغرا : فاتحا فمه . العدل (بالكسر) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب الغراب . والمعنى أن خالدا الذى استطعم الماء لا يساويك فى مقـــام القتال حين يرفع المنادى إلى الحرب صوته .

شعر الكميت وشاعريته

آراء النقاد فى الكميت :

كان حماد الراوية يصف شعره بأنه خطب ، يريد أنه يشتمل على الحجاج والمناظرة والجدل والإقناع والبرهان ، وهذا وإن كان حماد يريد به الذم إلا أنه أبلغ الجوانب فى شاعرية الكميت فى رأينا .

وسئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ، ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل . فقيل : يا أبا محمد ، ما رأيناك ذكرت الكميت ، قال ذاك أشعر الأولين والآخرين . . وفيه يقول أبو عكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان . ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكفاهم : حببهم إلى الناس ، وأبقى لهم ذكراً . وقيل : فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر :

كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتبا حسن الخط ، وكان نسابة ، وكان جدليا ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك . وقال الفرزدق فيه : هو أشعر من مضى ومن بقى (١) .

شاعرية الكميت وبواعثها

بواعثها :

كانت شاعرية الكميت قوية متأججة ، ومواهبه خصبة مشتعلة ، وكانت هناك أسباب وبواعث عديدة تقوى من شاعريته ، وتصقل من ملكته ، وتهذب من فطرته الشعرية :

---

(١) كان محمد بن سهل راوية الكميت (٧ : ١٨ الحيوان ـ ط الخانجى) .

١ — وأولى هذه الأسباب وراثته للبلاغة والشعر عن قومه بنى أسد المشهورين بالشعر من قديم، ومن أشهر شعراء بنى أسد فى الجاهلية عبيد ابن الأبرص، وفى الإسلام الكميت.

٢ — وثانى هذه الأسباب استعداده الفطرى لقول الشعر والنبوغ فيه، وميله إليه، ورغبته فى نظمه.

٣ — وثالث هذه البواعث بيئة الكوفة الأدبية، وكثرة من نبغ فيها من الأدباء والشعراء، وكثرة عناية العلماء فيها بالشعر، فوق مالسوقها المشهور «كناسة الكوفة» من أثر فى نهضة الشعر وفى ازدهاره.

٤ — ورابع هذه البواعث الظروف السياسية التى كان يعيش فيها الكميت مما جعل لكل حزب شاعرا أو شعراء يدافعون عنه، وذلك مما شجع الكميت على قول الشعر والنبوغ فيه، وعلى تجويده فى الجانب السياسى وهو الأهم من بين موضوعات الشعر فى عصره.

٥ — وخامس هذه الأسباب هو عقيدة الكميت الشيعية التى دفعته للدفاع عن الشيعة ومدح زعمائهم ورثاء شهدائهم وقراع أعدائهم، ونضال بنى أمية المعتدين عليهم.

٦ — وسادس هذه البواعث هو ثقافة الكميت الأدبية الواسعة، التى جعلت منه شاعرا عالما نسابة جدليا مناظرا راوية ناقدا واسع العلم بالشعر وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكان يبذ حمادا الراوية الكوفى فى هذا المضمار، ويروى أنهما كانا يتناظران فى الشعر وروايته، فكان الكميت يبذ حمادا فى هذا المجال.

أهم أغراض الشعر عند الكميت:

١ — كان أهم أغراض الشعر عند شاعرنا الكميت هو الشعر السياسى الذى تجلى فى هاشمياته، التى اشتملت على كل أغراض الشعر من فخر ومدح وهجاء ورثاء وحماسة.

والكميت فى هذا الجانب من شعره قوى الشاعرية ، مشتعل الخيال ، ثائر العاطفة ، محتدم الخيال ، متلاحم الأسلوب ، غزير المعانى ، كثير الإجادة ، كثير الحكمة وضرب المثل ، يدعو إلى العدالة فى الحكم ، وإلى الإنصاف فى السياسة ، وإلى الاستماع لصوت الشعوب . ولقد كان الكميت شاعرا مخلصا لعقيدته الشيعية ، وما مدحه للأمويين إلا لون من ألوان التقية أو الدهاء السياسى ، وهذا مما يجيزه الشيعة ، ويفسر ذلك ما روى عن المستهل بن الكميت ؛ قال : قلت لأبى : ياأبت ! إنك هجوت الكلبى ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألا فخرت بعلى وبنى هاشم الذين تتولاهم . قال يابنى : أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته .

٢ — وللكميت شعر آخر غير الهاشميات ، ويشتمل على أغراض عديدة من وصف وغزل ومدح ، والشاعر فى هذا اللون من الشعر متوسط الشاعرية ، لايبذ غيره من الشعراء .

وجملة الأمر أن الكميت كان شاعرا مطبوعاً على قول الشعر ، ونظمه ، فى كل وقت وكل غرض .

وكان سليم ملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم إلى ذلك علمه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، أو تعداد المناقب . فاجتمعت بذلك للكميت أسباب الكمال فى شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

وكان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم فى جودة شعره حتى

لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعد ذلك من معايبه ، ويدعى أن الكميت يسرق كلام الشعراء .

وقد أحدث شعر الكميت آثاراً سياسية بعيدة المدى حتى لقد عد هذا الشعر من أقوى العوامل فى حياة دولة بنى أمية وفى نهايتها ، يقول صاحب الأغانى : « ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته ، وبعد وفاته ، حتى ناقض دعبل وابن أبى عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة . ويقول الجاحظ فى بيان المدى الذى بلغه شعر الكميت من التأثير فى سياسة الدولة : ما فتح للشيعة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم　　فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون لم يورث ولولا تراثه　　لقد شركت فيه بكيل وأرحب (١)

هاشميات الكميت :

هى ست قصائد قالها الشاعر فى الدفاع عن الهاشميين ، ونضال خصومهم من بنى أمية ، وتبلغ نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات تبلغ نحو العشرين بيتاً .

وأولى هذه القصائد قصيدته الميمية التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام　　غير ما صبوة ولا أحلام

وثانيها قصيدة البائية :

---

(١) هما حيان من همدان .

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

وثالثها قصيدته البائية أيضا التى مطلعها :

أنىّ ومن أين آبك الطرب من حيث لاصبوة ولا ريب

ورابعتها قصيدته اللامية :

ألاهل عم فى رأيه متأمـــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

وخامستها قصيدته البائية :

طربت وهل بك من مطرب ولم تتصـــاب ولم تلعب

وسادستها قصيدته العينية :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا وهم يمترى منهـا الدموعا

وللهاشميات منزلة كبرى فى الأدب والنقد والشعر وقد جعل الخوارزمى من جهلها ليس بمعدود من بين الشعراء .

وسمة الهاشميات الواضحة هى تمجيد آل البيت وذكر المظالم التى لحقت بهم فى عصر آل أمية والدفاع عنهم ، وذكر فضائلهم ، ومثالب خصومهم .

مصادر لدراسة الكميت :

وقد تحدث عن الكميت كثير من الأدباء والنقاد منهم أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى »(١)، وابن قتيبة فى كتاب «الشعر والشعراء» وصاحب خزانة الأدب (٢) ، وصاحب الجمهرة (٣) . وللأستاذ الصعيدى كتاب « الكميت شاعر العصر المروانى » ، وقد نشر قصائده الهاشميات فى هذا الكتاب . ونشرها كذلك الأستاذ محمـــد شاكر الخياط ، والمستشرق هروفتس .

---

(١) ج ١٥ ص ١١٣ (٢) ج ١ ص ٦٩ (٣) ص ١٨٧

وتحدث عن الهاشميات شوقى ضيف فى كتابه « التطور والتجديد فى الشعر الأموى (١) » .

وقد درس عبد الحسيب طه الأستاذ فى كلية اللغة العربية الكميت وشاعريته وشعره فى كتابه « أدب الشيعة » دراسة واسعة قيمة خصبة (٢) » .

وقد ترجم له المؤلف فى الجزء الثانى من كتابه « أعلام الأدب فى عصر بنى أمية » ، وكثيرون من مؤرخى الأدب فى هذا العصر : كالزيات ، ومحمود مصطفى ، وأصحاب الوسيط ، والمفصل ، وغير هؤلاء .

١ — من هاشميات الكميت قوله :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الإساءة مقبل (٣)
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل (٤)
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى تنتحل
كلام النبين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لانريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جنة (٥) مما نخاف ومعقل (٦)
أرانا على حب الحياة وطولها ... يجد بنا فى كل يوم ونهزل

---

(١) ص ٢٣٣ — ومابعدها من المرجع المذكور .
(٢) راجع ص ٢١١ وما بعدها من المرجع المذكور — طبعة ١٩٥٦ بمطبعة السعادة بمصر .
(٣) أى أما آن للعاقل أن ينتبه وللنائم أن يستيقظ .
(٤) الملتف . (٥) وقاية . (٦) ملجأ .

٣ — ومن الهاشميات هذه القصيدة التي نذكر بعضا منها :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام
طارقات ولا ادكار غوان واضحات الخدود كالآرام(١)
بل هواي الذي أجن وأبدي لبني هاشم فروع الأنام(٢)
للقريبين من ندى والبعيديـ ـن من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النـ ـاس ومرسى قواعد الإسلام(٣)
والحماة الكفاة في الحرب إن لـ ـف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن محل النا س فأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة الأمر إن طر ق يتنا بمجهض أو تمام(٤)

ويقول في وصف رسول الله منها :

أسرة الصادق الحديث أبي القا سم فرع القدامس القدام
خير حي وميت من بني آ دم طرا مأمومهم والإمام

وفيها يذكر الحسين ، فيقول :

وقتيل بالطف غودر منهم بين غوغاء أمة وطغام(٥)

---

(١) طارقات : وصف الأحلام ، والادكار : التذكر . غوان : جمع غانية ، وهي المرأة الجميلة .
(٢) أجن مضارع جن (كنصر) : أستر وأخفي ، ومثله أجن (كأكرم) . فروع : جمع فرع وهو أعلى الشيء .
(٣) مرسى قواعد الإسلام : من أرسى الشيء بمعنى ثبته وأقره .
(٤) طرقت الحبلى : إذا خرج شيء من المولود وبقي شيء . اليتن . المولود الذي خرجت رجلاه قبل رأسه ويديه . المجهض : الذي ألقته أمه قبل تمامه .
(٥) الطف : موضع قرب الكوفة .

تركب الطير كالمجاسد منه ... مع هاب من التراب هيام(١)
وتطيل المرزآت المقاليت ... عليه القعود بعد القيام(٢)

٣ — ومن هاشميات الكميت أيضا قوله :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا ... وهم يمترى منهـــا الدموعا
دخيل فى الفؤاد يهيج سقما ... وحزناً كان من جذل منوعا
لفقدان الخضارم من قريش ... وخير الشافعين معا شفيعا(٣)
لدى الرحمن يصدع بالمثانى ... وكان له أبو حسن قريعا(٤)
حطوطاً فى مسرته ومـــولى ... إلى مرضاة خالقه سريعاً
واصفاه النبى على اختيار ... بما أعيا الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح دوح غدير خم ... أبان له الولاية لو أطيعا(٥)
ولكن الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لعناً ولكن ... أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل ... إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا ... وأقومهم لدى الحدثان ريعا(٦)
تناسوا حقه وبغوا عليه ... بلا ترة وكان لهم قريعا(٧)

---

(١) المجاسد : الثياب المزعفرة . الهيام : الذى يتساقط من نفسه .
(٢) المقاليت : جمع مقلاة وهى المرأة التى لا يعيش لها ولد .
(٣) يعنى بخير الشافعين النبى صلى الله عليه وسلم .
(٤) القريع : المختار .
(٥) الدوح : الشجر العظيم ، وغدير خم : موضع بين مكة والمدينة قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : « اللهم وال من والاه » الحديث .
(٦) الحدثان : صروف الزمان ، والريع : الطريق . ويحتمل أن يكون ريع فعل ماض بمعنى أفزع .
(٧) الترة . الثأر : والقريع : السيد .

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا(١)
ألا أف لدهر كنت فيه ... هدانا طائعاً لكم مطيعا(٢)
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
ويلعن فذ أمته جهاراً ... إذا ساس البرية والخليعا(٣)
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حياً لأمته وربيعا(٤)
وليثاً فى المشاهد غير نكس ... لتقويم البرية مستطيعا(٥)
يقيم أمورها ويذب عنها ... ويترك جدبها أبداً مريعا(٦)

ألوان من شعر الكميت فى غير الهاشميات :

١ — قال الكميت يمدح خالد بن عبد الله (٧) :

لو قيل للجود من حليفك (٨) ما ... إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صورته ... والرأس منه وغيرك الذنب
أحرزت فضل النضال (٩) فى مهل ... فكل يوم بكفك القصب (١٠)

---

(١) المهند : السيف ، والقطيع : السوط .

(٢) الهدان : الجبان .

(٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح ، يعنى به قاتل على ، والخليع : الوليد بن عبد الملك .

(٤) الحيا : المطر والخصب ، والربيع معروف وهو يعم الناس بالخير فيكون مثله . (٥) النكس : الدنى المقصر .

(٦) المريع : المخصب .

(٧) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ هـ .

(٨) حليفك هو الذى يعاهدك على أن يكون أمركما واحداً فى النصر والحماية

(٩) المباراة فى الرمى .

(١٠) هو كل نبات ذى أنابيب والواحدة قصبة ، وأحرز القصب أو قصب السبق غلب .

لو أن كعبا (١) وحاتما (٢) نشرا ... كانا جميعا من بعض ما تهب
لاتخلف الوعد إن وعدت ولا ... أنت عن المعتفين (٣) تحتجب
ما دونك اليوم من نوال ولا ... خلفك للراغبين منقلب(٤)

٢ — وهذا مثال لغزل الكميت وهو غزل ضعيف متكلف ، يروى أن الكميت وفد على الخليفة يزيد بن عبد الملك (٥) فى دمشق ، ومدحه فقال له الخليفة : يا أبا المستهل ، هذه سلامة القس جارية حاذقة عرضت علينا ، أفترى أن نبتاعها ؟ قال الكميت : إى والله يا أمير المؤمنين ، فما أرى أن لها مثلا فى الدنيا فلا تفوتك ، قال الخليفة فصفها فى شعر حتى أقبل رأيك ؛ فقال الكميت :

هى شمس النهار فى الحسن إلا ... أنها فضلت بقتل الظراف
زانها دلهـا وثغر نقى ... وحديث مرتل غير جاف
خلقت فوق منية المتمنى ... فاقبل النصح يابن عبد مناف

فضحك يزيد ، وقال : قد قبلنا نصحك يا أبا المستهل ، وأمر له بجائزة .

ولما سمع خالد هذه الأبيات أمر للكميت بمائة ألف درهم .

٣ — ويروى صاحب الأغانى أن الخليفة هشاما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على هجاء خالد القسرى ، وهى :

---

(١) هو كعب بن مامة من إياد أحـــد أجواد العرب المضروب بهم المثل فى الكرم .

(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات قبيل الإسلام .

(٣) طلاب المعروف والرزق .

(٤) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .

(٥) تولى يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ ، ومات ١٠٥ هـ .

تألق برق عنــــدنا وتقابلت ... أثاف لقدر الحرب أخشى اقتبالها(١)
فدونك قدر الحرب وهى مقرة ... لكفيك واجعل دون قدر جعالها(٢)
وان تنتهى أو يبلغ الأمر حده ... فنلها برسل قبل ألا تنالها(٣)
فتجشم منهـا ما جشمت من التى ... بسوراء هرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم ... بعقدة حزم لاتخاف انحلالها
فما أبرم الأقوام يوما لحيلة ... من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها ... ـ وإن لم تبح ـ من لايريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة لجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدى .

٤ — ملحمة الكميت :

ومن شعر الكميت ملحمة طويلة بائية رواها أبو زيد فى كتابه « الجمهرة » ، وجعلها إحدى الملحمات السبع التى رواها فى كتابه ، وهى من الشعر السياسى الذى كان ينظمه الكميت ليناضل به بنى أمية ويندد بحكمهم للعالم الإسلامى ، وتبلغ ستة وخمسين بيتا :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها ... بطول ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ... ببعض من الأقوام إلا لبيبها

---

(١) يقال : « اقتبلت الأمر إذا استأنفته » ، يريد بتقابل الأثافى القدر الاستعداد للحرب وإنما جعل الحرب قدرا لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب القدر عند الغليان .

(٢) الجعال : خرقة ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفيك : أى خاضعة لها ، يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

ولم أر قول المرء إلا كنبله ... به وله محرومها ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ... ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وما غبن الأقوام عن مثل خطة ... تغيب عنها يوم قيلت أريبها
ولم أر باب الشر سهلا لأهله ... ولا طرق المعروف وعثاً كثيبها
وأكثر ماأتى المرء من مطمأنه ... وأكثر أسباب الرجال ضروبها
ولم أجد العيدان أقذاء أعين ... ولكنها أقذاؤها ما ينوبها
من الضيم أو أن يركب القوم قومهم
ردافاً مع الأعداء ، إلباً ألوبها

ومنها :

رمتنى قريش عن قسى عداوة ... وحقد كأن لم تدر أنى أريبها
توقع حولى تارة وتصيبني ... بنبل الأذى عفواً جزاها حسيبها
رمتنى بالآفات من كل جانب ... وبالدرياء مرد فهر وشيبها
بلا ثبت إلا أقاويل كاذب ... بحرب أسد الغاب كفتاً وثوبها

إلى أن قال :

إذا نحن منكم لم تنل حق إخوة ... على إخوة لم يغش غشاً جيوبها
فأية أرحام يعاذ بفضلها ... وأية أرحام يؤدى نصيبها
جمعنا نفوساً صاديات إليكم ... وأفئدة منا طويلا وجيبها
وهل يعدون بين الحبيب فراقه ... نعم داء نفس أن يبين حبيبها
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر ... عزاء إذا ما النفس حن طروبها
وإن لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فلا رأى للمضطر إلا ركوبها
ستذكرنا منكم نفوس وأعين ... ذوارف لم تضنن بدمع غروبها
إذا وأدتنا الأرض إن هي وأدت ... وأفرخ من بين الأمور مقوبها
وأسكت در الفحل واسترعنت به ... حراجيج لم تلقح كشافاً سلوبها

وبادرهـــا دفء الكنيف ولم يمن
على الضيف ذى الصحن المسن حلوبها

ويبدو أن الكميت قال هذه الملحمة فى عهده الأول قبل أن يقول هاشمياته ويأخذه بنو مروان بالشدة ، لأنه يهدد فى هذه الملحمة ويتوعد ويخاطب بنى مروان بشىء من الشدة ، لا يبلغ شدته فى الهاشميات ولا يناسب حاله بعد أن عفا هشام عنه لأنه عاش بعد عفوه عنه خائفا يلين ويدارى ويجتهد فى الإرضاء والبعد عما يوجب السخط كما يقول بعض الباحثين .

مسكين الدارمى

شاعر أموى شريف من سادات قومه بنى دارم ، عمر إلى أواخر العصر الأموى ، وهو شاعر مقل ، على أنه من الفحول قل أن تجد فى شعره سفسافا أو مرذولا ، وكيف يكون ذلك وهو من النابتين فى بحبوحة العروبة فى بطون بنى تميم ، وقد ألهب بنو أمية جذوة الشعر وفتحوا اللُّها باللُّها ، وأندوا أصوات الشعراء ، بما يبذلون من جزيل العطاء .

وهو ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عدس بن دارم . وسمى بالمسكين لما جاء فى شعره ، وهو :

أنا مسكين لمن أنكرنى ولمن يعرفنى جد نطق (١)
لا أبيع الناس عرضى إننى لو أبيع الناس عرضى لنفق

فسمى مسكيناً ، وكأنه مل هذا اللقب من بعد فصار يسلى نفسه ويقول:

سميت مسكيناً وكانت لحاجة إنى لمسكين لربى راغب

ويثبت خلاف ماتتطلبه المسكنة من الخمول فيقول : إنه وإن سمى مسكيناً معروف فى الناس ذائع ، وإن الأسماء علامات ترتفع بأصحابها فيقول:

وإن أدع مسكيناً فلست بمنكر وهل تنكرن الشمس ذر شعاعها (٢)
لعمرك ما الأسماء إلا علامة منار ، ومن خير المنار ارتفاعها

وكان مسكين ، ممن قضت عليهم مناحى السياسة ودواعى الاقتصاد وحب الحياة أن يكون من المتعصبين لبنى أمية ، يدافعون عن دولتها ولاسيما فى عهد معاوية . وقد كان خلفاء هذه الدولة وعلى رأسهم هذا الخليفة قد اشتروا ألسنة الشعراء فأحدثوا معنى من التكسب بالشعر ، والتنكب به ، عملا على تحقيق الأهداف السياسية كما هى عادة الملوك والأمراء والسادة والرؤساء .

---

(١) نطق كشهد النطق . (٢) ذر بمعنى طلع .

وكانت ألسنة الشعراء هي العامل الأول إذ ذاك في توطيد الملك ، فهي أسرع انتشاراً وأعمق أثراً وأطول رواية وأكثر تعميراً من الجرائد السيارة اليوم

وقد وقف مسكين هذا نفسه موقفا مشهورا في التاريخ لولاه مااستقر الملك لآل أبي سفيان ولانقل من معاوية إلى ابنه بعده . لقد كان هذا الانتقال ينكره علية القوم حتى من أصحاب الخليفة معاوية وجلسائه وكبار رجال الدولة (١) وإن شيئا ينكره هؤلاء يقل الأمل فيه ، لذلك احتال يزيد حتى عمل مسكين قصيدة ، وأنشدها أمام الخاصة من وجوه بني أمية في مجلس معاوية يحتج فيها بالمقدمات الشعرية ، ويورطهم بقضاء الشعر الذي لامرد له ، وهكذا الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

احتج مسكين بمقدماته الشعرية التي تقول : إن الخلافة لله يبوئها حيث يريد ، ثم ينتقل من هذا إلى أن المنبر إذا خلاه ربه فإن الأمير يزيد ، ويقرر ذلك بأنه على الطائر الميمون والجد صاعد ولكل أناس جدود . ويهنىء الخليفة قبل أن يكون خليفة ، ثم يدعو له بتخليد بيت الملك فوقه تشيد له أطناب وعمد . وتوقد في كنفه النيران للقرى ، وعلى قدور كالجوابي تحتها أثاف ركود ... وسكت الناس فاطمأن معاوية ومضى .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكينا الدارمي ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه ، فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يمالئه عليه الناس ، لحسن البقية فيهم ، وكثرة من ترشح للخلافة ، وبلغه في ذلك ذرور كلام (٢) كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكينا أن يقول أبياتا وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلا بوجوه بني أمية ...ودخل مسكين والخليفة جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول:

---

(١) ١٨: ٦٨ ـ ٧١ الأغاني .   (٢) أي طرف منه .

إن أدع مسكينا فإنى ابن معشر ... من الناس أحمى عنهم وأذود
إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلا وهن هجود
وهاجرة ظلت كأن ظباءها ... إذا ما اتقتها بالقرون سجود
ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلا فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد ... لكل أناس طائر وجدود
فلازلت أعلى الناس كعبا ولا تزل ... وفود تساميها إليك وفود
ولازال بيت الملك فوقك عالياً ... تشيد أطناب له وعمود

وعند ذلك قال معاوية : ننظر فيما تقول يامسكين ، ونستخير الله ، ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزل صلته . وإن جديراً بمن وهب ملكا أن يحكم فيما يريد وأن لا يغلى له شىء فى المملكة .

هذا موقف من الشعر السياسى لمسكين وضعه حيث ترى .

على أن معاوية كان قبل هذا الموقف لايحفل به ، ولا يقدره قدره ، إلا أن يكون يزيد هو الذى يشفع له ، وكأنما كان فى يزيد إحساس باطن أو اعتقاد كامن بأن مسكينا يترشح لهذا الموقف .

وتحدثوا جميعاً أن مسكينا قدم على معاوية يطلب عطاء مما كان يهب معاوية للمؤلفة قلوبهم عنده ، فأبى عليه ، وكان أول أمره لايفرض إلا لليمن ، فخرج مسكين وهو يقول : حثاً لمعاوية يطوى معنى التهديد للخليفة مع التسلية لنفسه :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح
وما طالب الحاجات إلا مغرر ... وهل نال شيئاً طالب كنجاح

على أن معاوية لم يعطف عليه إلا بعد حين . ويظهر أن ذلك المعنى السياسى — مع ما كان من تهارش بين الشعراء وتنافس على الحظوة فى ميدان المجادة — كان له أثره فى التهاجى بين الشعراء . فقد بئه فى الشعر فى ذلك العهد مع نقص الوازع الدينى وإحياء ما أمات الإسلام من الجاهلية الأولى ، وكثرت المخاصمات بين الشعراء : كجرير والفرزدق ، والأخطل والبعيث ، ومسكين شاعرنا الذى منى بالتهاجى بينه وبين الفرزدق ، والفرزدق شاعر أموى كريم النفس ، لا يبالى أن لا يصيب مرضاة هؤلاء الخلفاء اعتزازاً بمجد قومه ، وبدينه، لهذا كان يتعصب لآل البيت العلوى ، ويفخم شأنهم فى أحرج المواقف ، وأمام الخلفاء الأمويين أنفسهم ، على أنه كان من علو النفس بحيث يقول فى مجلس سليمان الخليفة وقد تنافس الشعراء فى مدح الأمير ، يقول الفرزدق مفتخراً بأبيه :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
إذا أبصروا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب

وكان مسكين غير ذلك ودون ذلك، فوقع بينهما ما كان بين شعراء ذلك العصر ، وكان بينهما شعر يجمع بين الهجاء والفخر شأن ذلك النوع من الشعر ، وكانت نهاية ذلك يوم مات زياد بن أبيه وكان محسناً إلى مسكين ومسيئاً إلى الفرزدق ، إلى حد أنه مازال هارباً يتنقل بين مكة والمدينة حتى مات زياد فقرت بلابله ، وكان سبب ذلك أن الفرزدق هجا بنى فقيم فأرفث فيهم ، فاستعدوا عليه زياداً وهو على العراق ، فلما مات زياد رثاه الفرزدق معرضا بشاعرنا بقوله :

أمسكين أبكى الله عينك إنما جرى فى ضلال دمعها فتحدرا
بكيت على علج بميسان كافر ككسرى على عداته أو كقيصرا
أقول له لما أتانى نعيه به لا بظبى بالصريمة أعفرا

ورد عليه مسكين بقوله :

ألا أيها المرء الذى لست قاعدا ... ولا قائما فى القوم إلا انبرى ليا
فجئنى بعم مثل عمى أو أب ... كمثل أبى أو خال صدق كخاليا
كعمرو بن عمرو أوزرارة فى الندى ... أو البسر من كل فرعت الروابيا

ولمسكين أغراض أخرى كالحكم والفخر والشباب والشيب ، وهذه بعض أبيات له فى الحكم :

ولست إذا ماسرنى الدهر ضاحكا ... ولا خاشعا ماعشت من حادث الدهر
ولا جاعلا عرضى لمالى وقاية ... ولكن أقى عرضى فيحرزه وفرى
أعف لدى عسرى وأبدى تجملا ... ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر
وأنى لأستحيى إذا كنت معسرا ... صديقى وإخوانى بأن يعلموا فقرى
وأقطع إخوانى وما حال عهدهم ... حياء وإعراضا وما بى من كبر
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه ... ومن يحى لا يعدم بلاء من الدهر

رابعاً — النثر الأموى(١)

— ١ —

النثر الأدبى أو الفنى هو الكلام الذى يصور العقل والشعور ، ولا يتقيد بوزن أو قافية .

ويرى الباحثون من الأدباء المحدثين ، ومن بينهم الدكتور طه حسين ، أن القرن الأول الهجرى لم يكن فيه نثر فنى يعتد به ، إنما كان الشأن للشعر ، وقد احتذى الدكتور فى ذلك حذو الأستاذ مرسيه الفرنسى ، وهو أول من ذهب إلى ذلك ، وإلى أن النثر الفنى فى الأدب العربى يبتدىء بابن المقفع ، وابن المقفع فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبى فى اللغة العربية ، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا الرأى وبأن الشعر أسبق من النثر الفنى فى آداب اللغة العربية ، وأذاع ذلك فى كثير من مؤلفاته ، وقد ثار بعض الباحثين فى وجه هذه النظرية وهاجموها .

وهذه النظرية - وهى أن الشعر سبق النثر الفنى فى الوجـــود - نجد أصولها عند أرسطو فى كتابه « الشعر » فهو يقول فيه :

« والأقدم من الأشعار الأقصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد فى النفوس بالتخييل الشعرى ، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك » وهى نوع من أنواع النثر ، وقد عمم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم ، فذهبوا إلى أن الشعر أسبق من النثر الفنى وجودا ، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولد زيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التى عبرها النثر إلى الشعر عند العرب .

---

(١) مجلة الديار اللبنانية عدد ٣١ آذار ١٩٥٩ م .

ونحن لا نميل إلى هذا الرأى الجديد ولا نؤيده ، فالقرآن أثر من آثار النثر الفنى ، وكذلك الكتب الدينية والأدبية القديمة التى يشير إليها القرآن الكريم ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فنى قبل الميلاد بكثير : فلليونانيين آثار كبيرة فى الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة ، وللرومانيين آثار فيها قبل الميلاد وبعده ، فلماذا لايكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟ مع أن لعبد الحميد الكاتب آثارا كبيرة فى النثر الفنى وهو قبل ابن المقفع على أى حال ، والقدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر ، فابن رشيق يقول : وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها ، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ... وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهاوى وسواه .

وإذاً فالنثر الفنى فى الأدب العربى وجد قبل القرآن بقليل وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيما ، ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح الإسلامى ، واحتذوهم فى ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره فى النثر الفنى منذ آخر القرن الأول الهجرى على أيدى بعض الكتاب .

كان كثير من الكتاب والموالى يعرف اللغة الفارسية(١) ، وبعضهم كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر فى النثر .

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال الفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب النبى ، والحبشية من خادم النبى ، والقبطية من خادمه ، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم ، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود كما يقول أحمد أمين(٢) ، وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الاسكندر إلى العربية مما يدل على معرفته للغة غير اللغة العربية ، وله رسائل فى مائة ورقة

---

(١) ١ : ٢٩٠ البيان والتبيين للجاحظ . (٢) ١٧١ فجر الإسلام .

كما يقول ابن النديم فى الفهرست (١) ، وكان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسى إلى العربى ، وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية ، وقد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى ، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية ، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة ، ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسى على الخصوص فى تطور الكتابة والنثر الفنى فى أدب لغتنا العربية ؛ ويقول الجاحظ عن غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك : إن له رسائل بليغة(٢) . والظاهر أن غيلان كان يعرف الرومية .

وعبد الحميد الكاتب هو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وهو أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة فمهد سبلها ووضع معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى . فكان بذلك شيخ الكتاب ، ويحق لقد قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد .

ثم ازداد أثر الفارسية فى النثر الأدبى ؛ فنقل الفرس إلى العربية القصص الغرامى كما نقلوا الغزل بالمذكر إلى الشعر العربى .

وظهر ابن المقفع (المتوفى عام ١٤٣هـ) وأحدث أثره فى النثر الأدبى ، وفى تطوره ، وكان ابن المقفع من عنصر فارسى ، وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية .

---

(١) ص ١١٧ الفهرست لابن النديم .
(٢) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين .

وابن المقفع هو إمام المنشئين فى آخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، وكان إمام الطبقة الأولى من الكتاب فى العصر العباسى ، وهى الطبقة التى أدركت الدولتين ، ومن شخصياتها : يحيى بن زياد الحارثى وعمارة ابن حمزة وأبو أيوب وزير المنصور وكاتبه ، وقد آخى ابن المقفع فى طريقته بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير . فأدبه وإن كان عربى اللفظ والأسلوب فهو أعجمى الفكر والتأليف ، فقد استخلص من الأسلوب الفارسى والعربى طريقة عرفت به وأخذت عنه ، وتظهر مزيته فى ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها، من حيث يغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية ، كما تشيع فيه الحكمة التى يروضها بعذوبة ألفاظه وسلامة أسلوبه ، وحقا لقد كان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى مع وضوح الغرض وسمو الأسلوب ، وهو أكثر كتاب عصره تأنقا فى صوغ الجملة فكان يقوم فى النثر بما كان يقوم به زهير فى الشعر ، وهو أحد الكتاب الذين لم يلتزموا السجع فكان فى كلامهم قليلا ، ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى مواضع يسيرة ، وقد اهتموا ببسط المعانى وتأكيدها وتركوا مذهب الإيجاز الذى كان شائعا فى القرن الأول إلى الإطناب وتنويع العبارة ، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات وتوخى الإفهام .. وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربى بالترجمة ، فهو الذى ترجم كليلة ودمنة بما ينم على جهد بذله المترجم فى تحرير الخصائص الهندية الصميمة التى للكتاب الأصلى ، بتشاشترا ، ليجعله ملائما للذوق العربى ، وأضاف إليه فصولا جديدة فى مواضع مختلفة .

— ٢ —

ولقد تهيأ للنثر الأدبي في هذا العصر من العوامل والمؤثرات، ماأنهض به، ورفعه إلى الازدهار والقوة :

١ — فقد استقر العرب بعد اضطراب، واجتمعوا بعد تفرق، وتحضروا بعد بداوة، واجتمع لهم من سلطان الملك، وسمات الحضارة. وثقافة الفكر وتنظيم الحياة، ماجعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب، وأسلوب رشيق وفكرة مرتبة، ومعنى تمتلك به النفوس، وتجتذب الأفئدة.

٢ — ومن الأسباب التي جعلت نثر هذا العهد قوي العبارة جزل الأسلوب، شديد الأسر، ضخم المظهر، لاتخونه روعة الأداء، ولا تتخلف عنه نضارة البلاغة، أن دولة بني أمية قامت بحد السنان، وقوة البيان. وكما كان السيف من أسلحتهم في توطيد الملك، واستلاب الحكم، والاستيلاء على شئون المسلمين، كان البيان القوي يحاول أن يخادع الناس، وأن ينتزع من صدورهم مايؤمنون به، من أحقية آل البيت، وأن يجتذبهم إلى سياسة الأمويين، ويخضعهم بالقول المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث. وهذا أفاد النثر تهذيباً وصقلا، وعاد عليه بكثير من الجودة وحسن البهاء، وصفاء الرونق.

٣ — وكذلك استفاد القوم من بلاغة القرآن، وروعة بيانه، وسمو أسلوبه، ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهذيب منطقهم، وتطور أساليبهم، أكثر مما استفاد أسلافهم. ذلك أن هؤلاء الأسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة الأحداث الملمة، ومقارعة الخطوب المدلهمة، عن حفظ القرآن وترديده واستظهار الأحاديث النبوية وترتيلها. فلم يكن أحد منهم يجد من فراغ وقته واتساع الفرصة أمامه، مايمكنه من حفظ

القرآن ، بل كان قصارى مايستطيع أن يحفظه آيات يؤدى بها صلاته ، ويقيم بها عبادته حتى كان أنس بن مالك يقول: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا » ، وإذا صح ماروى من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة ، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة ، والشواغل الصارفة ، من تمكين للدين ، ونشر للوائه ، ومجاهدة لأعدائه .

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب فانصرفوا بكل مافيهم من رغبة مستعرة ، وميول مشبوبة منهومة ، إلى كتاب الله يستظهرون آياته ، ويفهمون حكمه وعظاته ، وينصتون إلى مافيه من سحر البلاغة وروعة البيان ، وسمو التعبير ، وجمال التصوير ، وماذا يمنعهم من ذلك ، وقد يسر لهم ذكره ، وهيئت لهم أسباب الحصول عليه ، ثم رأوا أعلام الصحابة يتصدون لتعليم المسلمين ، وشرح ماغاب عنهم من معانى الكتاب ، والإفاضة فى بيان مايحمله إليهم من كريم الآداب ، وجميل العظات ، فابن عباس (٦٨ﻫ) يجلس لذلك بمكة ، تضرب إليه أكباد الإبل ، وتقطع له الصحارى والفيافى . وزيد بن ثابت (٤٥ ﻫ) بالمدينة يشرح للناس حديث الوحى ، ويبصرهم بأحكامه ، وينير لهم من سبل الهداية ما رغبهم فى العلم ، ويدعوهم إلى التفقه فى الدين ، والانتهال من مناهل الشريعة . وهكذا .

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى من البلاغة فى الذروة والسنام . فجعلوا يتلقفونها ، ويصغون معجبين إلى لحن القوة ينساب فى كلماتها ، وإلى إشراق البيان ونصاعته وسماحته ، ينضر مبانيها .

رددوا هذه الأحاديث ، واستدلوا بها فى كل مايعرض لهم من شأن ، أويقع لهم من مشكلات ، وبدأوا يدونونها ، ويجمعون ماتفرق منها فى صدور الرواة ورؤوس الثقات ، حتى تم لهم جمعه فى عهد عمر بن عبدالعزيز ...

ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التى شاموا بروقها ، واستنشقوا عبيرها ، من كلام رب العالمين ، وآثار أفصح المرسلين .

٤ — وكذلك استجد للأمة من مظاهر الملك ، وانفسح لديها من آفاق الحياة ، وتهيأ لها من عوامل النمو والتطور ، ما يدعو إلى تهذيب اللغة ورق الأساليب .

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم ويصرفهم بعض الشىء عما كانوا فيه من توغل فى العبادة ، فقد وجد الخلفاء والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم ، وتهييجهم إلى الطاعة ، وإثارة مشاعر الخوف والتقوى التى قد تميتها زخارف الدنيا ، ويغطى عليها ماتزاحم لديهم من مفاتن الحياة ؛ ولهذا رتب معاوية الوعاظ فى المساجد ، يذكرون الناس حين تنتابهم غفوة ، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين تميل بهم هفوة . ويقصون عليهم على نظام الكتاب الكريم ما حل بغيرهم من الأمم حين جانبوا الحق ، وتنكبوا الهداية . وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ الحسن البصرى ومحمد بن سيرين .

وكان هؤلاء يعمدون إلى الإفاضة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تبصر الناس بما يسعدهم فى دنياهم وينجيهم فى أخراهم . ولا ينكر أحد مالهذا من أثر بالغ فى تهذيب اللفظ وروعة المعنى ، ودقة الفكرة ، وقوتها فإن العظة دائماً لاتقع من النفس موقعاً مقبولا ، ولا تأخذ مكانها من القلب فى يسر وسماحة ، إلا حين تلبس ثوباً براقا من اللفظ الجميل والأسلوب الموثق والفكر المرتب .

٥ — وقد رأى خلفاء بنى أمية أن الناس قد يداخلهم الحنق على هذا السلطان الذى اغتصبوه ، ويتردد فى نفوسهم التمرد من أجل هذا الملك الذى سلبوه ، فأرادوا أن يصرفوهم عن مثل هذه الأفكار برواية ماترك العرب من شعر ونثر ، بعد أن كادت الحروب والغزوات والانصراف إلى

الدين الجديد تقطع ما بينهم و بين ذلك من الصلات . وقد بالغوا فى الالتفات إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها . ويظهرون نفائسها . ويحيون ما كاد يندرس من أعلامها ، وأخذوا يشجعون الرواة ، ويغدقون عليهم سنى الجوائز ، وعظيم الهبات ، ويوسعون لهم فى مجالسهم ويؤثرونهم بعطفهم ، والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولى على نفوسهم بلاغتها ، ويأخذ بألبابهم رونقها ، وينطبع فى أذهانهم ما تتميز به من الجزالة وشدة الأسر ، وضخامة اللفظ ، وهذا سر ما نلمحه فى أدب هذا العصر من قوة وفحولة ومن أصالة الملكة ، واقتدار بالغ على الأداء والتصوير .

٦ — ومن البين أنه لابد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصال المعارف أثر قوى فى تهذيب ألفاظهم ، وترتيب أفكارهم ، وصقل مداركهم .

ومن هنا رأينا نثرا لا يعتمد على الفكرة الطارئة ، ولا اللمحة العارضة ، ولا الخاطر العابر ، إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحجة واتزان المنطـــق .

وهذه العوامل جعلت النثر الأدبى رائع الأسلوب ، قوى النسج محكم الأداء والتصوير . .

وهكذا ، وفى عصر بنى أمية ، بدأ النثر الفنى يسير إلى نهضته الأدبية الرائعة ، وظهر أثر الثقافة الأدبية فيه ظهورا واضحاً ، وكانت هذه الثقافة متنوعة تشمل :

١ — القرآن الكريم الذى أثر فى ملكات العرب وهذب من ألسنتهم ، ورقق من مشاعرهم وطباعهم ، فى عصر صدر الإسلام . . ثم زاد هذا التأثير فى العصر الأموى : بحفظ العرب له ، وقراءتهم إياه ، بعد أن انتشرت مصاحف عثمان فى الأمصار ، وبطول الفترة التى قضوها فى الإفادة من بلاغة القرآن ، بعد أن استراحوا من الفتوحات وهداية الشعوب إلى الإسلام .

٢ — حديث رسول الله ، وكان المسلمون يحفظون منه الكثير ، ثم دون ووزع على الأمصار فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فاتسعت إفادة الناس منه ، وتأثرهم ببلاغته .

٣ — مجالس القصص والوعظ ، التى كانت ثقافة أدبية عامة ، وقد كان يتحدث فيها للناس كل بليغ وخطيب وأديب يسحر القوم بلاغة وبيانا .

٤ — الأدب والشعر الجاهلى ، الذى اجتهد بنو أمية فى إحيائه وتشجيع روايته وتدوينه ، وتقريب رواته إليهم . . وقد أكسب إحياؤه النثر الفنى قوة وجزالة وروعة وبلاغة .

٥ — أدب البلغاء والفصحاء منذ ظهور الإسلام ، وهو كثير جدا ؛ وكان له أثره فى تقويم الألسنة ، وتهذيب الملكات ، وكانت خطب الوفود التى تفد على قصور الخلفاء والأمراء دروسا كبيرة فى البلاغة والبيان ، ويروى أن شباب الكتاب كانوا إذا حضر وفد لهشام حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم [1] كما كانت مجالس المؤدبين والرواة والشعراء والنقاد حافلة بالكثير من مظاهر النشاط الأدبى ، مما كان له أثره الجليل فى تقويم الأذواق وإرهاف المشاعر ، وتهذيب الملكات .

٦ — وقد أفاد العرب من اختلاطهم بالموالى والعناصر الأجنبية ، فسمعوا عن ثقافات الأمم القديمة ، ورويت لهم ، وتحدثوا بها فى مجالس سمرهم ، مما أكسب العقول عمقا وفهما ومعرفة وثقافة . وظهر أثر ذلك فى تقدم العلوم ونهضة الفنون والآداب ، وكان للأسرى المسلمين فى بلاد الروم أثر كبير فى ذلك .

---

(١) ٣ / ١٧٩ العقد الفريد .

— ٣ —

خصائص أسلوب النثر الأموى :

ويمكننا أن نقول إن من أهم هذه الخصائص :

١ — إثارة خيال السامع باستخدام المجازات القوية .

٢ — الإكثار من الألفاظ القوية البالغة التأثير .

٣ — دقة التعبير وصفاؤه وخلوصه من شوب اللكنة والعجمة واللحن إلا قليلا .

٤ — ترك التزام السجع لما فى ذلك من التكلف المكروه ويروى أن معاوية أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : لهو أهون على من ذرة أو كلب من كلاب الحرة ، ثم قال : امح ، من كلاب الحرة ، واكتب ، من الكلاب ، كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما اشبه السجع (١) ؛ وكانوا يقسمون الكلام إلى فصول وفقر صغيرة يجمعها غالبا الازدواج والتقارب فى الوزن.

٥ — الاهتداء بأساليب القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وا تتذاؤها فى القوة والبلاغة والبيان .

— ٤ —

وقصارى القول مايلى :

١ — أن العوامل التى أدت إلى ازدهار النثر الفنى كثيرة منها :

أولا : نضوج الثقافة العربية الإسلامية من علوم الدين واللغة والأدب، وإقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها . واحتذاؤهم حذوها .

ثانيا : رواية أصول الأدب العربى شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكما وسجعا وقصصا وأخبارا وأنسابا . والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ؛ وقد شمل ذلك شعر العرب القدامى والإسلاميين وخطب

(١) رسائل الجاحظ .

الرسول ووصاياه ، وخطب الخلفاء والصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى هـــذا العصر ، وبخاصة خطب الإمام على بن أبى طالب وحكمه .

ثالثا : أثر القرآن الكريم والحديث النبوى فى تهذيب الألسنة وترقيق الطباع ، وإنضاج الملكات .

رابعا : اتصال العقل العربى بالثقافات الأجنبية وتأثره بآداب الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

٢ — أما أثر الثقافة الفارسية فى النثر الفنى : فقد كانت هذه الثقافة تتجمع فى البصرة ، وتجد فى حلقاتها متسعا للدراسة ، ومجالا للفهم والاستزادة والترجمة ، فظهر بشار والشعراء الذين هم أصل من فارسى ، كما ظهر ابن المقفع وغيره من الكتاب الذين يرجعون إلى أصول فارسية ، وقد تمثلت الثقافة الفارسية وتأثيرها فى النثر الفنى فى عبد الله بن المقفع بترجمته لأصول الآداب الفارسية إلى اللسان العربى من أمثال كليلة ودمنة والتاج والأدب الصغير والكبير وخداينامه وغيرها . فقد غذت هذه الترجمات النثر الفنى بكثير من الموضوعات الجديدة والأغراض الجليلة والحكم والمعارف المفيدة .

٣ — وأما أثر الثقافة اليونانية الرومانية : فقد تمثل هذا الأثر فى اتصال الكتاب فى الشام بهذه الثقافة واستفادتهم منها وترجمتهم لها ، وأخذهم منها كل مفيد فى تلقيح النثر الفنى وإخصابه .

والممثل لهذه الثقافة هو عبد الحميد الكاتب كما يرى الدكتور طه حسين الذى ذهب إلى أن ثقافة عبد الحميد كانت يونانية ، وأنه تأثر بثقافة اليونان ونقل بعضا منها ، وأخذ عنها ، وأكسبه ذلك منزلة عالية فى النثر الفنى العربى (١) .

---

(١) راجع : الفن ومذاهبه فى النثر لشوقى ضيف : ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، ورسائل البلغاء جمع محمد كرد على ، والنثر الفنى لزكى مبارك ، ومجلة الأدب والفن من مقال فى النثر وتطوره المستشرق جب .

١ ـ الخطابة فى العصر الأموى

— ١ —

الخطابة (١) فن من فنون النثر ، ولون من ألوانه ، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير .. فهى كلام بليغ ، يلقى فى جمع من الناس ، لإقناعهم برأى ، أو استمالتهم إلى مبدأ ، أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم .

والخطابة ضرورية لكل مجتمع ، فى سلمه وحربه ، فهى أداة الدعوة إلى الرأى ، والتوجيه إلى الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين ، والزعماء والمصلحين . فهى ضرورة من ضرورات الحيـــاة الاجتماعية والدينية والسياسية .

. وإنما تقوى الخطابة وتنهض فى عصور الحرية ، وفى ظلال الديمقراطية حيث يستطيع الناس أن يعبروا عن آمالهم وآلامهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ففى ظلال الحرية تتقارع الآراء ، وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبادىء وتتنافس المذاهب ، وتتعدد الخصومات ، وفى ذلك كله غذاء للخطابة ، ومدد لها ، وداع إليها .

والخطابة قديمة قدم حياة الجماعات ، وجدت فى الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان ، وازدهرت فى بعض العصور ، التى كان يشمل الناس فيها جناح من الحرية ، كاليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ،

---

(١) يقول مؤلف نقد النثر : الخطابة مأخوذة من خطبت .. واشتق من ذلك الخطب وهو الأمر الجليل ، لأنه إنما يقام بالخطب فى الأمور التى تجل وتعظم ، والخطبة الواحدة من المصدر (الخطابة) والخطبة (بكسر الخاء) : اسم المخطوب به (٩٤ و ٩٥ نقد النثر) .

حيث نشأ . « بيركليس » ثم « دمستين » ، وكالعرب فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام والعصر الأموى .

والخطب إما سياسية أو قضائية أو دينية أو اجتماعية تلقى فى المحافل العامة .

— ٢ —

ويمتاز الأسلوب الخطابى بشدة الإقناع وروعة التأثير ، وقصر الجمل ، والازدواج أو السجع بينها ، ومراعاة المقام وحال السامعين . . كما يمتاز بجمال الأسلوب ، وجودة المعانى وتخيرها ، ويقول قدامة فى نقد النثر : « يجب أن يكون الخطيب عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له .. فقد قيل : لكل مقام مقال »(١) .. « وأن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته ، غير مستكره لطبيعته ، فإن التكلف إذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه »(٢) .

ويقول قدامة بن جعفر كذلك فى كتابه « نقد النثر » : من أوصاف الخطابة : أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد ، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال ، فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها ، وتعظم به الفائدة فيها ، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله فى أولها : « البتراء » وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال : « الشوهاء » ولا يتمثل الخطيب فى الخطب الطوال التى يقام بها فى المحافل بشىء من الشعر ، فإن أحب أن يستعمل ذلك فى الخطب القصار ، والمواعظ والرسائل فليفعل ، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة ، فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتابه إليه ، ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل .

وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول ، وأوقاته ، واحتمال

---

(١) صـ ٩٦ نقد النثر طبعة ١٩٣٩ (٢) صـ ١٠٠ المرجع .

المخاطبين له . فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة ، فيقصر عن بلوغ الإرادة ، ولا يستعمل الإطالة فى موضع الإيجاز ، فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة ، ولا يستعمل ألفـــاظ الخاصة فى مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يعطى كل قوم من القول بمقدارهم ، ويزنهم بوزنهم ، فقد قيل : « لكل مقام مقال » .

وإذا رأى من القوم إقبالا عليه ، وإنصاتا لقوله ، فأحبوا أن يزيدهم ، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم . وإذا تبين منهم إعراضا عنه ، وتثاقلا عن سماع قوله ، خفف عنهم . فقد قيل : « من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك » . وليس يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه قادراً ، وبالإطالة إذا احتاج إليه ماهراً . وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال — وقد سئل عنها — : « هى الاكتفاء فى مقامات الإيجاز بالإشارة ، والاقتدار فى مواطن الاطالة على الغزارة » ، وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال جعفر بن يحيى : « إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذرا » ، فبين ما يحمد من الإيجاز، وما يحتاج إليه من الإكثار .

فأما الموضع الذى ينبغى أن يستعمل كل واحد منهما فيه : فإن الإيجاز ينبغى أن يستعمل فى مخاطبة الخاصة وذوى الأفهام الثاقبة ، الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، ومجمله عن تفسيره ، وفى المواعظ والسنن والوصايا التى يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لا ترى فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم والأئمة شيئاً يطول ، وإنما يأتى على غاية الاقتصار

والاختصار . وفى الجوامع التى تعرض على الرؤساء ، فيقفون على معانيها ولا يشغلون بالإكثار فيها . وأما الإطالة : ففى مخاطبة العوام ، ومن ليس من ذوى الأفهام ، ومن لا يكتفى من القول بيسيره ، ولا ينفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره ، ولهـذا استعمل الله عز وجل فى مواضع من كتابه تكرير القصص . وتصريف القول ، ليفهم من بعد فهمه ، ويعلم من قصر عليه . واستعمل فى مواضع أخرى الإيجاز والاختصار لذوى العقول والأبصار .

— ٣ —

ولقد رفع القرآن من منزلة النثر ، فاحتلت الخطابة المنزلة التى كانت للشعر من قبل ، لأن العقيدة الجديدة — وهى ما هى — تستلزم الخطابة وتستدعيها ، فضلا عن كثرة التنازع السياسى والدينى بعد عصر عمر . فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثراً فى الخطابة إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية ، وظهر الكثير من أعلام الخطباء ، وإمامهم الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه ، وكان ازدهارها نتيجة لمؤثرات كثيرة منها :

١ — الدعوة الإسلامية العظمى والخصومة بين أنصارها ومعارضيها استدعت رقى الخطابة .

٢ — رفع الإسلام من شأن العقل ، وخفض من غلواء العاطفة .

٣ — الرقى السياسى والاجتماعى ، إذ أصبحت العرب أمة واحدة ، لها رئيس أعلى ، ونظمت شئونها الاجتماعية تنظيما استدعى الخطابة ، سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله ، أم من أفراد الأمة وخطبائها ، أم فى مجالس القضاء والشورى والفصل فى الأمور .

٤ — سلامة الملكات وقوة الطباع وعذوبة الألسنة ، والقدرة على

الارتجال ، وذيوع آثار بلاغة القرآن والحديث فى النفوس والعقول والأذواق (١) .

٥ — كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول وبعد مقتل عمر ، وما يستلزمه ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية .

٦ — كثرة الحاجة إليها فى شئون الدين والاجتماع والسياسة إلى غير ذلك من أسباب رقى الخطابة ونهضتها وقوتها فى هذا العصر الكريم .

— ٤ —

أما فى العصر الأموى فقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية تساعد إلى حد بعيد على ازدهار الخطابة ورقيها فى عصر بنى أمية :

١ — فالثورات السياسية ، وكثرة الحروب والفتوحات ، واشتداد الخلاف بين الأحزاب التى نشأت وكثرت فى هذا العهد من شيعة وأمويين وخوارج وزبيريين وروافض وسواهم ، والتنازع بين العقائد والمبادىء ، كل ذلك عمل عمله فى نهضة الخطابة وسموها .

٢ — وقربهم من العصر الجاهلى أمدهم بسلامة الملكات ، وبلاغة القول ، كما أمدهم الإسلام والقرآن الكريم بحصافة الرأى ، وسلامة الفكرة وحسن البيان مما كان له أثره فى الخطابة الأموية .

(١) وإذا كان قد ورد عن بعض الرجال فى هذا العصر آثار قليلة جدا من العى والعجز فهذا نادر ضئيل جدا . كما ورد فى الكامل أن يزيد بن أبى سفيان ولاه أبو بكر ولاية فى الشام فصعد على المنبر فتكلم فارتج عليه ، فقطع الخطبة . وقال : سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عى بيانا ، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال ، فكان ذلك منه بلاغة ما بعدها بلاغة اعتذار ، مما أشاد به عمرو بن العاص حين سمع هذه الكلمات .

٣ — والحرية التى كان يعتقد العربى أنها جزء من فطرته ونفسه ، كانت تدفعه إلى القول ، دون خوف من خليفة . أوحذر من ذى سلطان ... إلى قوة العقيدة وشدة الحاجة إلى الخطابة .

وكانت موضوعات الخطابة فى هذا العصر كثيرة متعددة ، تزيد بما استجد فى شئون الدين والسياسة والاجتماع .

فاستعملت فى الدعاية السياسية عند الفرق والأحزاب [١] ، وفى الجدل الدينى عند الخوارج والشيعة وسواهما ، وفى الوفادة على الخلفاء وولاتهم ، وفى المناقضات والمفاخرات والمحاورات التى كانت تدور بين العصبيات المختلفة فى السياسة والاجتماع والآداب . كما كان الخلفاء والولاة والأمراء يستعملونها أداة للوعيد والإنذار والتهديد . وكثر اصطناعها فوق ذلك فى أغراض الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال ، أو وصية بمعروف ، أو توضيح حكم دينى ، أو تهنئة بفوز . .

ولقد كان الأمويون يعلمون الفتيان الناشئين الخطابة ، ويدربونهم عليها واستمر ذلك مذهبا للعباسيين أيضاً ، حكى الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، قال : مر بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) على إبراهيم بن جبلة ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقه ، فإذا فيها من كلام كثير :

ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ .

---

(١) راجع كلام الجاحظ عن خطباء الخوارج ٢١٤ - ٢١٦ : ٣ البيان والتبيين ط الخانجى ، وحديثه عن خطباء البيت الأموى (١ : ٤٥ - ٤٨ و ٩٨ - ١٠٤) البيان والتبيين ط الخانجى .

مما يدلك على أن شأن الخطابة عظم فى هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها ، بل كان شباب الكتاب إذا قدم وفد على دمشق حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم (١) .

ولقد ظهر فى خطابة هذا العصر تلك العوامل التى كانت تتنازع الأمة ، فإن دولة بنى أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفى الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معولهم على السياسة ، فبان ذلك فى خطابتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح ، حتى لقد غلا بعضهم ، فترك حمد الله فى أولها كما فعل زيادة فى خطبته البتراء . وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببيت شعر من أن يحلى خطبته بشىء من كلام الله .

على حين نرى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله : بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) .

وهكذا تبدو فى خطابتهم النزعة السياسية ، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم ، وربما غلا بعضهم ، فترك الحمد فى أول الخطبة ، كما صنع زياد

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٦٧

فى خطبته البتراء ، وهـذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليـه ضخامة اللفظ ، وقوة الأسر ، والعنف فى الخطاب ، والمبالغة فى الوعيد والتهديد والإسراف فى السب والشتم ، حتى لقد استن معاوية سنة سيئة ، هى سب (على) على المنابر فى خطب الجمعة ، وظلت تلك السنة مرعية ، حتى أبطلها الخليفة الورع : عمر بن عبد العزيز ، وجعل مكانها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

وبجانب ذلك ظهرت النزعة الدينية ، وكانت تتجلى واضحة فى خطب الجماعات التى تناوىء الخلفاء وترى أن بنى أمية لا يصلحون لقيادة الأمة ، ولا لحكم المسلمين . وتتميز خطابة هؤلاء بالتزام الحمد فى أولها ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والاقتباس منه ، حتى إن بعضها كان كله اقتباسا منه .

كما يشيع فى هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها ، والتخويف من الآخرة وأهوالها ، ونحو ذلك من ألوان التأثير الدينى الذى تتطامن له النفوس وتخبت القلوب ، وترق المشاعر .

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية ، هى فى الواقع خطب سياسية ، تهدف إلى تغيير الأوضاع ، وقلب الأنظمة ، ومناوأة الحاكمين . وإنما وسمت بهذه السمة ، لأنها تتشح ببردة الدين ، وتصطبغ بصبغته ، للتأثير على النفوس ، والوصول إلى الأفئدة ، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية ، متمكنة من نفوسهم ، ولهم رسالة خاصة يعملون على تحقيقها .

وكان من سنة الخلفاء والولاة أن يخطبوا الناس بأنفسهم يوم الجمعة ، حتى جاء الوليد ، وكان كثير اللحن ، عسر اللسان ، فأناب عنه من يخطب

الناس ، فأخذت الخطابة منذ ذلك الحين تقل عناية بنى امية بها ، ويولون عنايتهم للكتابة الفنية .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المصاقع .

فمن الأمويين معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز .

ومن ولاتهم : زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة .

ومن العلويين : الحسين بن على ، وحفيده زيد .

ومن الخوارج : عمران بن حطان ، وقطرى بن الفجاءة ، وأبو حمزة الإباضى .

وكان إلى جانب هؤلاء : عبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب . . ومن رؤساء القبائل : صعصعة بن صوحان ، وسحبان بن وائل ، وخالد بن صفوان (المتوفى سنة ١٣٥ هـ) وسواهم . . .

نماذج للخطابة

١ — خطب الحجاج بالكوفة عام ٧٥ هـ فكان مما قال :

أنا ابن جلا (١) وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

والله يا أهل العراق ، إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها (٢) ، وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى (٣) .

إنى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٤) ؛ ولا يغمز جانبى كتغماز التين (٥) ، ولقد فررت عن ذكاء (٦) وفتشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً (٧) . فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم (٨)

---

(١) قال صاحب لسان العرب : ابن جلا رجل مشهور بالفتك فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه أى أنا كابن جلا فى الغارة والشدة اهـ .

(٢) ينع ، كضرب ومنع ، أدرك . شبه رؤوس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم بالثمار التى تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .

(٣) إنما تكون الدماء بين العمائم واللحى من الضرب بالسيوف فى الجباه واحرار الوجوه .

(٤) القعقعة صوت الجلود اليابسة .الشنان جمع شن ؛ وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) والمراد لا أفزع مما يفزع ذوى العقول .

(٥) أى لست بضعيف لين الجانب .

(٦) فر الدابة كشف عن أسنانها ، الذكاء تمام السن أو حدة ، والمراد هنا المعنى الثانى .

(٧) الكنانة : جعبة السهام ، عجم العود : عضه ليبلو صلابته ، أمرها من المرارة وهى طعم شجر المرار ، المكسر : اسم مكان ، وهو موضع الكسر .

(٨) الايضاع السرعة فى السير .

في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة (١) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل (٢) ، فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٣) .

٢ — وخطبت في أهل الكوفة السيدة زينب (٤) بعد مقتل الحسين أخيها رضوان الله عليه فقالت :

« ياأهل الكوفة ! . . أتبكون ؟ ! . . فلا سكنت العبرة ، ولاهدأت الرنة ! . . إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعدقوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا ســـاء ماتزرون ! . . إي والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها (٥) بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ .. لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ! . . أتعجبون لو أمطرت السماء دما ؟ . . ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون !.. أتدرون أي كبد فريتم (٦) ، وأي دم سفكتم ، وأي كريمة أبرزتم !.. لقد جئتم شيئا إدا ،

---

(١) السلمة : شجرة شائكة يعسر خرط ورقها فيشد بعضه إلى بعض، ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها .

(٢) غرائب الإبل : أي الإبل الغريبة عن مواطنها ، وهي تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٣) راجعها في البيان والتبيين ٢ : ٣٠٨ ط الخانجي .

(٤) هي بنت الإمام علي ، وأمها فاطمة الزهراء . ولدت في شعبان عام ٥ هـ ، وتزوجت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١ — ٨٠ هـ) ، ودخلت مصر في أول شعبان عام ٦١ هـ ، وتوفيت في ١٤ رجب ٦٢ هـ .

(٥) لن ترحضوها : لن تغسلوها وتطهروها . (٦) قطعتم .

تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ! .. يامحمداه ، هذاحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ! . يامحمداه ! . بناتك سبايا ، وذريتك قتلى !.. يا أهل الكوفة ! لعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تبصرون ! . كلا إن ربى وربكم بالمرصاد ! . » .

٣ — وقالت ليزيد وقد مثلت أمامه بعد مقتل الحسين :

« أمن العدل – يا ابن الطلقاء – تخديرك بناتك وإماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ، قد هتكت ستورهن ، وأصحلت أصواتهن ، مكتئبات تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لايراقبن ولايؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن ؟! . . وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن ، والإحن والأضغان ؟! . أتقول : « ليت أشياخى ببدر شهدوا » غيرمتأثم ولامستعظم ، وأنت تنكث ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ؟ .. ولم لاتكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة: دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟! ولتردن على الله وشيكا موردهم، وعندذلك تود لو كنت أبكم أعمى ، وأنك لم تقل : لاهلوا واستهلوا فرحا !. اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا من ظلمنا ! .

أيزيد ! . . والله مافريت إلا فى جلدك ، ولاحززت إلا فى لحمك ؛ وستردعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لايضيع أجر المؤمنين » ! .

« وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذاكان الحكم

ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك ؛ فبئس للظالمين بدلا ! .. هنالك تعلم أينا شر مكانا وأضعف جندا ! . . مع أنى - والله - أستصغر قدرك وأستعظم تقريعك ، غـــير أن العيون عبرى ، والصدور حرى وما يجزى ذلك أو يغنى وقد قتل أخى الحسين ؟ . . ألا إن حزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء . ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله » .

٤ — وقالت أمامه أيضا :

« صدق الله يايزيد ! .. (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) . . أظننت - يايزيد - أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هواناً على الله ، وأن بك عليه كرامة ؟ ! . . وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك ؟! إن الله إن أمهلك فهو قولهم: « ولا يحسبن الزواكى يعتامها عسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا فى الحياة مغنما لتجدننا عليك مغرما حين لاتجد إلا ما قدمت يداك تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتمادى وأتباعك عند الميزان . وقد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ! . . فوالله ما اتقيت غير الله ، وما شكوت إلا لله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت أبداً !! .. »[1] ! .

---

(١) أكناف : جوانب . عطفيك : جانبيك ، يمينك وشمالك . مستوسقة : مجتمعة مطيعة ، متسقة : معتدلة مساعدة . ابن الطلقاء : إشارة إلى قول النبى لكفار مكة - ومنهم آباء يزيد - يوم الفتح : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وإنه لتذكير وتبكيت ! . . أصحلت أصواتهن : الصحل بفتح الصاد والحاء - كما فى اللسان - انشقاق الصوت ، وأن لا يكون مستقيما ، يزيد مرة ويستقيم ═

٥ — خطبة لمعاوية بالمدينة عام ٤١ هـ :

إنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم (١) بسيفى هذا مجالدة . . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر (٢) أذنى ، وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه . . وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

٦ — خطبة لعبد الملك بن مروان :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدرى .

اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك .

= أخرى ، وأن يكون معه فى الصدر حشرجة . الأباعر : الجمال . تحدو بهن : تنقلهن . يتشوفهن : يتطلع إليهن فيراهن . الشنأ والشنآن : العداوة والبغضاء . الإحن والأضغان : الأحقاد . غير متـأثم : غير خائف من الإثم . تنكث : تنبذ وتضرب . ثنايا : أسنان . المخصرة : قضيب كالعصا يمسكه الخطيب عند حديثه . نكأت القرحة : قشرت الجرح فعاد مؤلما . استأصلت الشأفة : أهلكت كل شىء . وشيكا : قريباً . فريت : قطعت . الشعث : التفرق . عترته : ذريته . تنطف : تسيل . يعتامها عسلان الفلوات : تفترسها ذئاب الصحراء . لا يرحض : لا يغسل .

(١) أى حاربتكم .

(٢) أى وراء : أى لم أصغ إليه .

٧ — خطبة لزياد بن أبيه يعلن فيها جنوحه إلى معاوية :

أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم . فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم كالأضاحي ، في كل عيد يذبحون .

ولقد أفنى هذان اليومان ، يوم الجمل وصفين ، ما ينيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة .

كلا ، ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .

وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرىء بسلامة دينه .

وقد نظرت في أمر الناس ، فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله .

٨ — خطبة للحجاج بعد أن قتل ابن الزبير ، وبعد أن رمى الكعبة عام ٧٣ هـ :

ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

٩ — خطبة أبي حمزة الخارجي في مكة :

دخل أبو حمزة الخارجي مكة سنة ١٣٠ هـ فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه . . ثم تحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ثم عن معاوية وعن ابنه يزيد ، ثم اقتص خلفاء بني أمية خليفة خليفة (١) . فلما انتهى إلى عمر بن عبدالعزيز أعرض عنه ولم يذكره ، ثم تحدث عن الشيعة ، ثم أقبل على أهل الحجاز فقال :

يا أهل الحجاز أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا . أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم (٢) .

شباب والله مكتهلون (٣) في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة (٤) وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة (٥) كأن

---

(١) اقتص أبو حمزة خلفاء بني أمية خليفة خليفة : ذكر قصة كل منهم ذاما معددا .

(٢) الأخذ فوق أيديكم : الضرب عليها حتى تخضعوا وتذلوا .

(٣) اكتهل : صار كهلا والكهل من وخطه الشيب .

(٤) أنضاء عبادة : جمع نضو وهو المهزول من الإبل وغيرها وكذلك أطلاح جمع طلح ، يريد أن العبادة أنهكتهم حتى صاروا كالبعران المهازيل من شدة السهر في وسط الليل وآخره .

(٥) شهق شهيقا وشهاقا وتشهاقا : تردد البكاء في صدره .

زفير (١) جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم (٢) بكلال الليل ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرع إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال (أوه أوه أوه) ثم بكى ونزل اه .

وأبو حمزة الخارجى : أحد نساك الاباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، وهم فرقة من الخوارج ظهرت فى آخر دولة بنى أمية وقامت دولتهم باليمن فى جنوب الجزيرة واستولوا على الحجاز سنة ١٢٩ أيام مروان بن محمد ، وهم إلى أهل السنة أقرب ولا زالت لهم بقية ببلاد المغرب وزنجبار حتى اليوم.

وأبو حمزة من خطباء الخوارج المشهود لهم بالفصاحة واللسن ، وفيه يقول مالك بن أنس الفقيه الأصبحى : خطبنا أبو حمزة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة شك فيها المستبصر ، وردت المرتاب ، يريد بالمستبصر نفسه . وماذلك إلا لما أورده من جيد الكلام وساطع الحجة وقويم البيان وسواء المنطق : وله خطب رائعة محكمة النسج قوية الأسر ، طالما عبقت فى حللها وخطرت فى مطارفها ، فهزت أعطاف الدنيا ، وملأت أسماع الزمن ، ومن ذلك خطبته فى وصف أصحابه التى يقول فيها : شباب والله مكتهلون فى شبابهم الخ .

---

(١) زفر زفيرا وزفرا : أخرج نفسه بعد مده إياه .
(٢) الكلال : التعب والإعياء .

١٠ — خطبة عبد الملك بن مروان بعـــد قتل مصعب بن الزبير (عام ٧١ هـ):

صعد عبد الملك المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

أيها الناس: إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها (١)، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهى أمنا.

أيها الناس: فاستقيموا على سبل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة؛ فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنمـــا مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصارى:

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة … يصل بنار كريم غير غدار (٢)
أنا النذير لكم منى مجاهرة … كى لا ألام على نهى وإنذار
فان عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا … أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا ملعنة … لهو المقيم ولهو المدلج السارى (٣)
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها … عندى فإنى له رهن بإصحار (٤)

---

(١) أى دفعتنا ودفعناها، والزبن: الدفع، ومنه حرب زبون بفتح الزاى، وكذلك منه: اشتقاق الزبانية لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار.

(٢) الترة والوتر: الثأر.

(٣) أدلج: سار من أول الليل، فإن سار من آخره فقد ادلج (بتشديد الدال). السارى: السائر بالليل.

(٤) الحوجاء: الحاجة. إصحار: أى لا أستتر عنه ولو فى الأماكن الحصينة، مأخوذ من أصحر القوم: برزوا إلى الصحراء.

أقيم عوجته إن كان ذا عوج كما يقوم قدح النبعة البارى (١)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه عندى وإنى لدراك بأوتار

ولقد هدد الزبيرون خلافة بنى أمية تهديدا خطيرا : عبدالله بن الزبير فى الحجاز ، وأخوه مصعب فى العراق ، لذلك جهدت الخلافة الأموية فى الكوفة القضاء على دولة الزبير بن الناشئة ، وكان انتصارهم على مصعب وقتلهم له مثار فرح كبير لعبد الملك بن مروان . وخطبته بعد مقتله فيها افتخار بشجاعة الأمويين ، وفيها تهديد ووعيد لخصومهم وفيها دعوة للجماهير إلى الهدوء والانصراف عن الثورات واللجوء إلى السلام ، وفيها تلخيص لسياسة ذلك العصر البعيد : الشعوب تطالب الحكام بسياسة الخلفاء الراشدين ومعدلتهم وإنصافهم ، والحكام يحكمون الشعوب بالسياسة لا بالدين الذى كان يلتزمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم .

١١ — وصية أسماء بنت أبى بكر لابنها عبد الله بن الزبير :

وأسماء هى بنت أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، وشقيقة عائشة أم المؤمنين ، وكانت بارة تقية ، راجحة العقل ، كريمة النفس ، تزوجها الزبير ابن العوام ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين إلى الإسلام ، فولدت له عبد الله فى المدينة المنورة ، وكان أول مولود ولد بها من أبناء المهاجرين .

وعبدالله بن الزبير بن العوام ، ينتهى نسبه إلى قصى ، الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نشأ بارا تقيا ، متأدبا بآداب الدين الحنيف ، متحليا بالأخلاق السامية ، والشمائل العالية ، وكان خطيبا مفوها ، يملك القلوب

---

(١) العوج بفتح العين : فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج ، بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين . وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم منه . القدح : السهم قبل أن يراش ، جمعه قداح . النبعة : واحدة النبع ، وهى شجر القسى والسهام .

بسحر بيانه ، وقوة برهانه ، بايعه أهل مكة والحجاز بالخلافة ، بعد قتل الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، وامتد سلطانه إلى العراق واليمن ومصر ، واشتد النزاع بينه وبين ملوك بنى أمية ، فلما تولى خلافة دمشق عبد الملك بن مروان ، أرسل لقتال عبد الله بن الزبير جيشا قويا ، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى ، فسار إليه ، وحاصره فى مكة مدة طويلة ، فتفرق عنه أكثر أصحابه ، ولم يترفع الحجاج عن ضرب الكعبة بالمنجنيق فتهدم جزء منها ، وكسر الحجر الأسود ، ولما رأى ابن الزبير ما فيه أهل مكة من ضيق ، عزم على قتال الحجاج ، ليفرج عن الناس كربهم ، بانتصار أحد الفريقين ، وقبل خروجه إلى الميدان ، ذهب إلى أمه ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة ، وليسمع نصائحها الثمينة فى هذا الموقف الرهيب ، فأوصته بتلك الوصية الغالية ، التى يجدر بكل أم أن تقف على ما فيها من أخلاق كريمة ، وصفات نبيلة ، وتنشىء عليها أبناءها منذ نعومة أظفارهم ، وقد مات عبد الله شهيداً يوم خروجه ، وصلبه الحجاج بعد قتله فى المعركة تشفيا منه ، وإرهابا لأنصاره ، وهذا نص الوصية :

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر ، فى اليوم الذى قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى ، من خذلانهم ، فقال :

يا أمه ! خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ .

فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك ، يتلعب بها غلمان بنى أمية .

وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ،

وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ، والله لضربة بالسيف فى عز ، أحب إلى من ضربة بسوط فى ذل ، قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى ، قالت : يابنى ! إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها ، فدنا منها وقبل رأسها وقال :

هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكننى أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى . فانظرى يا أمه ، فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى لأمر الله .

فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى .

اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى ، أنت أعلم بى ، ولكن أقوله تعزية لأمى ، لتسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى ، وإن تقدمتك ، ففى نفسى حرج ، حتى أنظر إلام يصير أمرك .

قال يا أمه ! جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد .

فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق ، ثم قالت : أللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ،

والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ، ثم ودعها وخرج (فلم يعد) .

من أعلام الخطباء فى هذا العصر

زياد بن أبى سفيان

١ — ٥٣ هـ

١ — أمير عربى ، وسياسى داهية ، وعبقرى ذائع الشهرة ، وكاتب وخطيب ، ومتكلم بليغ .

ولد زياد فى العام الأول من الهجرة ، ويحيط بنسبه غموض كثير ، فأمه سمية كانت أمة للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور ، ويقال إن أحد زعماء الفرس قد وهبه إياها ، وإنه زوجها لغلام رومى يسمى « عبيداً » كان من موالى ثقيف ، فولدت له زياداً ، ومن ثم قيل له : زياد بن سمية ، أو زياد بن عبيد . ولما استلحق معاوية زياداً بنسب أبيه عام ٤٤ هـ صار يسمى زياد بن أبى سفيان ، وكان أبو سفيان قد ادعاه فى الإسلام ، وقال : إن سمية اشتملت عليه وأنا على الشرك ، وإنى كنت أخشى سطوة عمر بن الخطاب ، وكثير من الباحثين يسمونه زياد بن أبيه .

٢ — نشأ زياد فى شباب الإسلام وعزته ، وسمع القرآن وحفظ الكثير من بلاغته ومن روائع البلاغة النبوية ، وتثقف بالثقافة العربية الذائعة فى بيئته ، ونشأ بليغاً مفوهاً ، وكاتباً وخطيباً مجيداً .

واتخذه المغيرة بن شعبة حين ولى الكوفة كاتباً له ، وكذلك استكتبه أبو موسى الأشعرى لما ولى البصرة فى خلافة عمر ، وشاهد عمر ذكاء زياد ودهاءه وسعة عقله ، فعزله وقال : خفت أن يحمل الناس فضل عقله . ويروى عن عمر

حين سئل عن ذلك أنه قال : لا لخيانة ولا لعجز وإنما كراهية أن يحمل الناس فضل عقله ، وكان عمرو بن العاص يقول عنه : لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، وقد ولاه علي عام ٣٩ هـ بلاد فارس فضبطها وحمى قلاعها وأعاد الأمن والسلام إلى ربوعها .

ويروى الطبرى أن فارس كانت قد امتنعت عن أداء الخراج وأن علياً استشار الناس في رجل يوليه هذه البلاد النائية ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأى عالم بالسياسة لما ولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد ، قال علي : هو لها ، وولاه عليها وعلى كرمان ، ووجهه في أربعة آلاف فارس فدوخ بهم تلك البلاد ونشر الأمن في ربوعها ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

وظل زياد والياً عليها لعلي وللحسن بن علي بعده ، فاغتم به معاوية ، وفكر في أمره فأرسل إلى المغيرة بن شعبة فلما دخل قال : « لكل نبأ مستقر ولكل سر مستودع ، وأنت موضع سرى وغاية ثقتى . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين إن تستودعنى سرك تستودعه ناصحاً شفيقاً ورعاً صديقاً ، فما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها وهو داهية العرب ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها ، ويدبر الأمور ، فما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جذعة .

قال المغيرة : أتأذن لى في إتيانه ؟ قال : نعم ، فخرج إليه فلما دخل عليه وجده وهو قاعد في بيت له مستقبل الشمس فقام إليه زياد ورحب به وسر بقدومه وكان له صديقاً ، فلما تفاوضا في الحديث ، قال له المغيرة : أعلمت أن معاوية استخفه الوجل حتى إليك ، ولا نعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغنى عنك

معاوية ، قال : أشر علي وارم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن . قال : أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذناً صماء وعيناً عمياء ، قال يا ابن شعبة : لقد قلت قولا لا يكون غرسه في غير منبته ، لا أصل له يغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

ثم قال : أرى ويقضي الله . وقدم زياد على معاوية ، ففرح بذلك وسر له وولاه البصرة وخراسان وسجستان ، ثم أضاف إليه الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ، فصار والي المصرين ، وهو أول من جمعا له . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر ، ويقيم مثلها بالكوفة ، وكان العراق في فتن مظلمة ، فأقر فيه بسياسته الأمن والسلام والهدوء ، ثم جمع معاوية له ولاية الهند والبحرين وعمان ، وطمع زياد في ولاية الحجاز ، ولكن أجله قد حم فمات عام٥٣هـ ، ودفن بالثوية إلى جانب الكوفة .

وكان زياد يقول : لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخذه ، وكان مكتوباً في مجلسه أصول سياسته وهي : الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته .

٣ — بلاغته وخصائصها : كان زياد بليغاً مفوها ، وخطيباً ساحراً ، وفصيحاً لا يجاريه في فصاحته أحد . وحسبك في وصف بلاغته ما رواه الجاحظ عن الشعبي قال : ما سمعت متكلماً على منبر قط فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما . ويقول الجاحظ فيه : كان زياد وابنه عبيد الله بن زياد غايتين في صحة المعاني وجودة اللفظ ولهما كلام كثير محفوظ(١) ، ونشأ ابنه عبيد الله في الأساور(٢) بالبصرة(٣) .

---

(١) ٩٦ رسائل الجاحظ نشر السندوبي .

(٢) قوم من العجم نزلوا البصرة قديماً (٣) ٢ : ١١ البيان والتبيين ط الخانجي

وقد نمى هذه البلاغة فى نفسه نشأته العربية فى ثقيف ، وذكاؤه ومواهبه وملكاته العربية ، وإحاطته علماً بلغات العرب وأساليبها ، وحياته فى عصر ازدهر فيه الأدب وفنونه ، ونبغ فيه أعلام الخطباء والأدباء والشعراء . وكان زياد عليما بلغة العرب وأساليبها حتى قال فيه الشعبي كما سبق : ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا عليه إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما .

ويروى لزياد خطبته الطويلة المشهورة المسماة : بالبتراء(١) التى لم يحمد الله تعالى فى أولها ، وقد قالها حين قدم البصرة والياً عليها من قبل معاوية ، وذلك فى آخر ربيع الأول سنة ٤٥ هـ ، وتحتوى هذه الخطبة على روائع الكلم ، وبديع الحكم ، وبيان سياسته فى حكم العراق وما جاوره من بلاد فارس ، ولما انتهى منها ، قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال زياد : كذبت ، ذلك نبى الله داود ، فقال الأحنف : قد قلت فأحسنت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى ، فقال زياد : صدقت .

وقام أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج : فقال : أنبأ الله بغير ماقلت ، قال الله تعالى : (وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى)، فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يازياد، فقال زياد : إنا لن نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك ، حتى نخوض فى الباطل خوضا .

وهذه الخطبة تمثل النثر فى العصر الأموى ، وهى تفصح عن شخصية زياد الطاغية ، وبلاغته العالية .

---

(١) ١ : ٧٢ المرجع السابق .

٤ — نصوص من خطبة زياد البتراء : أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء(١)، والضلالة العمياء (٢) ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم (٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى(٤) الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات (٥) ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من تركِكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير (٦) المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل (٧) وغارة النهار ، قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه . صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم الحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم (٨) حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس (٩) الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض

---

(١) جهالة جهلاء : شديدة مثل ليل .
(٢) الضلالة العمياء : التى لا اهتدى معها
(٣) السفيه : سىء الخلق وضده الحليم .
(٤) السرمدى : الدائم .
(٥) كناية عن تمكن الشهوات مـ نفوسهم وانصرافهم إلى متاع الدنيا .
(٦) المواخير : جمع ماخور ، بيت الـ ـة والفحش .
(٧) دلج الليل : السير فيه ، والمراد ـص والفتك .
(٨) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم .
(٩) الكنوس : جمع كانس ، وهو الظبى يدخل فى كناسه أى مأواه ، والمراد أنهم عكفوا على المعاصى .

هدما وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى [1] ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلق الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد [2] أو تستقيم قناتكم [3] ؟ إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها [4] فى ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياى ودلج الليل ؛ فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى الجاهلية [5] فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما أغرقناه ! ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا . فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إحن [6] فجعلت ذلك دبر [7] أذنى وتحت قدمى . فمن كان منكم محسناً

---

(١) الولى : السيد ، والمولى : العبد ، المراد أنه يأخذ السيد بذنب عبده ، وكذا الباقى .

(٢) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين خرجا فى طلب إبل لهما ، فرجع سعد ولم يرجع سعيد .

(٣) المراد حتى تستقيموا . وشبههم بالقناة وهى عود الرمح .

(٤) اغتمزوها فى : عدوها من عيوبى .

(٥) دعوى الجاهلية : كناية عن التناصر بتأثير العصبية سفها وجهالة ، وأصلها يا لفلان استغاثة .

(٦) الإحن : جمع إحنة : الحقد .

(٧) أى خلفها : والمراد أنى طرحت ذلك .

فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته (١) فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس أيها الناس ؟ إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة (٢) ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء (٣) الله الذى خولنا ؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ؛ ولو أتانى طارقا بليل . ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانه ، ولا مجمراً لكم (٤) بعثاً . فادعو الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى إليه تأوون .

وهذه الخطبة يراها القارىء لها بمثابة إعلان حكم عرفى فى العراق . . فأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح فى جسمه السقيم ، أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر المسئولية على المجرم ، وإنما ذلك شىء يلجأ إليه الطغاة ، وخاصة عند اضطراب الأمن ، لإرهاب الناس وتهديدهم . وقد سن زياد فى خطبته عقوبات لم يسنها الإسلام ، فمن ذلك ماسنه للجرائم المحدثة كما قال : « من

---

(١) صفحة الرجل : عرض وجهه والمراد حتى يجهر بالعداوة .

(٢) ذادة : حماة ، جمع ذائد أى مدافع .

(٣) الفىء : مال الخراج أو الغنيمة ويطلق على الظل كناية عن الحمى . إبان الشىء : أوانه .

(٤) تجمير الجند أو البعث حبسهم فى أرض العدو .

نقب عن بيت نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً » . ومن ذلك عقوبته للدلج - أى السائر بالليل - وقوله من أحرق قوماً أحرقناه . . كل ذلك من مظاهر الحكم العرفى الذى أعلنه زياد فى البصرة ، حتى صار يعاقب على الظنة ، ويأخذ بالشبهة ويقسو فى معاملة الخوارج والشيعة والناقين عليه وعلى بنى أمية ، قسوته على المجرمين ، وقد خافه الناس خوفاً شديداً ، فاستتب الأمن ، وهدأت أحوال العراق الثائرة ، وسكنت الفتن والثورات ودخل الناس فى طاعة بنى أمية رغباً ورهباً .

ومن ذلك ندرك بعض الخصائص الأدبية لخطبة زياد هذه ، التى تمثل نفسيته وروحه وشخصيته أتم تمثيل .

فهى مثلا قوية الأسلوب ، جزلة الألفاظ ، يعتمد زياد فيها على التأثير الخطابى ، وعلى السجع أحيانا ، وعلى قصر الفقرات ، وعلى أسلوب التهديد والوعيد الذى ملئت به الخطبة .

وفيها كذلك روح التأثر الأدبى ببلاغة القرآن الكريم واضحة . ووحدة الخطبة ظاهرة ، فهى فى موضوع سياسى واحد متصل معروف . . وهى وثيقة أعلن بها زياد الحكم العرفى فى العراق ، ثم هى من أولها إلى آخرها تنصب على الغرض الذى قيلت من أجله ، فلا حشو ولا إغراب ولا حوشية ولا ابتذال .

وإنما هى البلاغة الطيعة ، والفصاحة السلسة ، التى تجرى كما يجرى الماء فى النهر : لينا فى شدة ، وهدوءاً فى ثورة ، واطراداً فى تتابع ، دون التواء أو انقطاع أو استطراد أو عى أو ضعف .. وألفاظ الخطبة ذات تأثير صوتى قوى ، وعلى الجملة فالخطبة صورة لسياسة زياد وسياسة الدولة حيال خصومها والعابثين بالأمن فيها ، فى أول عهد معاوية ، وبدء حكم الأمويين .

وقصارى القول أن زيادا كان كما قيل فيه بحق وكما تمثله خطبته : من ذوى الأحلام الوافرة ، والأذهان الحاضرة ، واللسان الفتيق . كما كان من أقوى العمد التى قام عليها عرش بنى أمية ، وكان على ثم معاوية يجدان فيه اليد المصرفة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، وأى أريب أديب داهية كان فى جلدته ؟ وقد اطمأن له الخليفتان : على ، ثم معاوية ، لأنه راض لهما الأمور ، وسدت به الثغور ، ولأنه أحكم لهما السياسة ، وقاد الناس بالحزم والشدة حينا ، وحينا آخر بالرفق والكياسة ، وقاتله الله من ملك فى ثياب عربى ، وحاكم فى زى بدوى ؛ ولولا استبداده ، وأنه سن للحجاج وللطغاة من بعده سياسة البطش والطغيان لكان من أعظم الشخصيات الإسلامية فى عصر بنى أمية .

سحبان وائل

هو سحبان بن زفر بن إياد الوائلى مضرب المثل فى الخطابة والبلاغة . نشأ فى الجاهلية فى (وائل) قبيلته وقد ظهرت المنافسة فى البلاغة ، وقامت أسواق العرب تخدم اللغة والأدب ، وكان متوقد الذكاء ، فبرع فى التعبير ، ثم ظهر الإسلام فكان من المستجيبين لدعوته ، والكارعين من حياضه ، ثم ظهر الخطباء فى الخلاف بين على ومعاوية فقويت ملكة البيان عنده ، والتحق بمعاوية فكان يعده للمناسبات لقوة عارضته وسرعة خاطره ، وقد تحدث الجاحظ وغيره أنه قدم على معاوية وفد من خراسان وفيهم سعيد ابن عثمان ، فطلب معاوية سحبان فلم يجده فى منزله فاقتضب من بعض الأماكن اقتضابا وأدخل عليه . فقال له معاوية تكلم . فقال : أحضروا لى عصا ، قالوا ما تصنع بها وأنت فى حضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع موسى وهو يخاطب ربه ، فأحضرت فلم يرضهـــا وطلب عصاه .

ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتدأ معنى إلا استوفاه حتى دهش الحاضرون ، فأشار إليه معاوية بيده فأشار سحبان إليه لا تقطع كلامى ، قال معاوية : الصلاة . قال سحبان : الصلاة أمامك نحن فى صلاة وتحميد ووعد ووعيد، قال معاوية : أنت أخطب العرب ، قال سحبان : والعجم والجن والإنس، وهذا إن صح إعجاب وزهو ويقال إنه كان يتصبب عرقا ، مما يدل على أنه كان يجهد نفسه كثيرا، والعجب أنهم يذكرون له ذلك كله ثم لا يروون من خطبه ما يلقى الضوء الكافى عندنا على مقـــدار بيانه ولعل ميله إلى الإطالة كان يحول دون الحفظ فالرواية .

وقد نقلوا أنه قال فى بعض خطبه :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار، فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك ، وقالت الملائكة ما قدم ، قدموا بعضا يكون لكم ، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم .

الحجاج بن يوسف الثقفى

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى من فصحاء العرب ودهاتهم وساستهم ، وأشهر ولاة بنى أمية الذين وطدوا لهم الملك والسلطان ، وكان لسانه وقلمه وسيفه فى طاعة الأمويين وخدمتهم، ولد سنة ٤١ هـ فى عهد معاوية، ونشأ فى الطائف وهو بلد تحيط به البداوة، ويتعلم الناشىء فيه الفصاحة وأخبار العرب وأشعارهم ، وكان الحجاج هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف حينا من الدهر ، ثم لحق بروح بن زنباع الجذامى أحد أعوان الخليفة عبد الملك ، فكان جنديا فى شرطته ثم ظهرت كفايته

وإخلاصه للخليفة فقلده أمر العسكر ، وكان أول مااشتهر من أمره قيادته الجيش الذى وجه لقتال عبد الله بن الزبير ، فحاصره بمكة ثم قتله وصلبه سنة ٧٣هـ ، ثم أرسل إليه عبد الملك عهده بولاية الحجاز واليمن واليمامة، وبعد ثلاث سنين كتب إلى عبد الملك إن حرت الحجاز بشمالى وبقيت يمنى فارغة فبعث إليه عهده بالعراق وهو فى غاية الاضطراب فساسها بعسفه وجبروته. وقد طال عهده فى تولى الأعمال وانتهى بأمرين بارزين فى تاريخه : أحدهما محمود والآخر مذموم ، أما المحمود : فجمعه الناس تحت راية واحدة لعبد الملك وابنه ، وأما المذموم : فهو إذلاله الأمة العربية وقتله نخوتها ، وهو السبب فى بسط رقعة عبد الملك وابنه مع كثرة الخلاف وتعدد الفرق ، وقد استهان فى ذلك الصدد ببقايا الصحابة وأجلاء التابعين .

ولذا يقال إن الحسن البصرى سجد شكراً لله حين أخبر بموته سنة ٩٥هـ .

ولقد كان الحجاج مع جوره وقسوته من حداثته ، شجاعا فى الحرب كريما فى السلم يرجع إلى الحق ، ويحب الصراحة ويشجع عليها ويدقق فى اختيار العمال .

أما فصاحته وعلو كعبه فى الأدب ، فقد بلغ حد الاستفاضة . قال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، الشعبى ، وعبد الملك، والحجاج، وابن القرية ، والحجاج أفصحهم .

وصور أدبه مالك بن دينار فقال : مارأيت أحد أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وإساءتهم إليه وصفحه عنهم، حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين   وقد امتاز بوضع النقط والشكل للمصحف لما كثر التصحيف فى العراق .

ومن كلام الحجاج الذى يروى لبلاغته :

لما قدم أميراً على العراق دخل المسجد وقد غطى أكثر وجهه بعمامته

فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لايتكلم ثم نهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل العراق إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدزيم(١) قد لفها الليل بسواق حطم(٢)
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم
قد لفها الليل بعصلبي أروع خراج من الدوى(٣)
مهاجر ليس بأعرابى
قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد(٤)
لابد مما ليس منه بد

إنى والله ياأهل العراق مايقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء(٥) وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته فعجم عيدا[illegible] فى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى(٦)؛ لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة . . . إلى آخر هذه الخطبة البليغة .

---

(١) اسم فرسه أو ناقته .

(٢) جمعها بمن لايقطع السير .

(٣) يقول إن الليل جمعها برجل شديد ذكى خراج من الشدائد .

(٤) فى القاموس الوتر معلق القوس: والعرد الشديد والبكر بالفتح الفتى من الإبل.

(٥) فر الدابة كشف عن أسنانها ليعرف سنها .

(٦) الكنانة جعبة السهام وعجم عيدانها فى الأصل عضها ليختبر صلابتها ولكن المقصود أنه فكر فى من حوله من العمال أنهم أقمع للفتنة ، ضجع بالفتح وبالتشديد مستعار الملازم للشىء المستقر فيه .

وكتب إلى الوليد :

لولم يكن لكعب من حرمته مايغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بى إليك فوثقت له منك بعفو لايخالطه سخط لحقق أمله وصدق ثقتى بك تجد الشكر وافياً بالنعمة ، فكتب إليه الوليد :

قد شكرت رغبته إليك ، وعفوت عنه لمعوله عليك ، وله عندى مايحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك .

(ب) الكتابة فى العصر الأموى

تمهيد :

كان العربى فى الجاهلية أمياً لايقرأ ولا يكتب ، صناعته حرب يشنها ، أو معركة يخوضها ، أو مفاخرة يدلى فيها بمفاخره ، أو منافرة يسمى لها بمآثره ، لم يكن يجلس إلى العلماء ، أو يحضر حلقة مؤدب ، أو يتزود بقسط من ثقافة .

وفى صدر الإسلام ، أخذت الكتابة تنتشر ، بتشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، للحاجة إليها فى تصريف شئون الدولة ومرافقها ، فقد عنى بها الرسول صلوات الله عليه عناية فائقة ، منذ دخل المدينة ، وانتصر على قريش فى بدر ، فجعل فداء الأسير تعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، وحث على تعلمها ، واتخذ كتاباً للوحى ، وكتاباً آخرين لإحصاء الغنائم ، والإجابة على رسائل الملوك ، وغير ذلك من مختلف الشئون .

ولما اتسعت الدولة ، وأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين ، كثرت العناية بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، وكان من الدواوين التى دونها : ديوان الجيش لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم ، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات

الدولة ومصروفاتها . وكان عمـــر يقول لـكتابه : « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدأون وأيها تؤخرون » .

وكانت الكتابة فى ذلك العهد - عصر صدر الإسلام - بسيطة فى مظهرها بليغة فى جوهرها ، يغلب عليها الطبع وترك التكلف والصنعة والتعمل ، وتشيع فيها السهولة . ويغلب عليها الإيجاز ، دون أن يبدو فيها أثر للتأنق والتهذيب والتنقيح واختيار الأساليب والألفاظ .

تطور الكتابة فى العصر الأموى :

جاء العصر الأموى ، والكتابة على هذا النحو . فزادت العناية بها ، لاتساع أعمال الخلفاء ، وكثرة شئون الحكم ، وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها فى عهد الخلفاء الراشدين :

١ — ديوان الرسائل : الكتابة الرسائل التى تصدر عن دار الخلافة ، وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغسانى ، وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، وكانت الرسائل التى تصدر عن الديوان تفيض بيانا ، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة . إذ كان الخليفة هو الذى يتولى إملاء الرسائل بنفسه . فلم تظهر للكتاب شخصية ، إلا فى عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل ، إذ كان ينوب عن الخليفة فى الكثير منها ، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها . وكان الطابع العام للرسائل التى تصدر من هذا الديوان أو ترد إليه . بساطة المظهر ، وعدم التكلف فى الخطاب حتى إن الكاتب ليبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل إليه ولو كان الخليفة . وظلت هذه الحالة مرعية ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فأنف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه . ومن هنا أخذت الرسائل سمتا آخر ، يلائم رغبة الخلفاء ، ويرضى كبرياءهم . ولم يخرج على هذا النهج فيها بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل .

٢ — ديوان الخاتم : ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوماً ، لايدرى حامله مافيه ، ولا يستطيع أن يغيره . وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخرى فى كتابه (الآداب السلطانية) : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، فمحى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة .

٣ — أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة ، حتى تم تعريبها فى عهد عبد الملك بن مروان ، فى مصر والشام والعراق ، من القبطية والرومية والفارسية ، على النحو الذى أشرنا إليه .

أنواع الكتابة :

ونحن هنا لانعنى بدراسة آثار ديوان الخاتم ، ولا ديوان الخراج أو الجيش ، لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والإحصاء ، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول ، ولا نصيب من جمال الأسلوب .

وإنما نعنى بدراسة ماكان يصدر عن (ديوان الرسائل) من الكتب البليغة ، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة ، وهى كتابة سياسية فى أغلب الأمر .

ويعنينا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة فى آخر هذا العصر من (الرسائل الإخوانية) . التى كان ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل مافى قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف الخوالج والنزعات ، أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من أفكار وآراء . فى أسلوب رائق ، ولفظ فائق وتصوير جميل .

فهذان اللونان هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية فى هـذا العصر ، وهما أبرز ما نعنى بدراسته ، ونهتم بالحديث عنه .

خصائص الكتابة الفنية :

(أ) يجد الناظر إلى الكتابة الفنية أنها مرت بطورين ؛ وانقسم بها هذا العصر إلى عهدين :

١ — فالعهد الأول من قيـــام الدولة عام ٤١ هـ ، إلى زمن الوليد ابن عبد الملك . وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها فى صدر الإسلام . من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة وقلة التكلف . . وكان أغلبها يلى ارتجالا ، ويصدر عن ديوان رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاة .

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه «من حديث الشعر والنثر (١) » كانت الرسائل تصدر عن الخلفاء والأمراء فى أول أمرها يسيرة سهلة الأسلوب لا تكلف فيها ، ولم تظهر الرسائل الفنية التى تأنق فيها أهلها إلا فى أوائل القرن الثانى . . ويروى أن معاوية أملى على كاتبه « لهو أهون على من ذرة ، أو من كلب من كلاب الحرة » ثم قال لكاتبه اكتب : « أو من الكلاب » كأنه كره السجع .

٢ — والعهد الثانى من أيام الوليد إلى نهاية الدولة ، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج فى التأنق والصنعة والإطناب وإشراق البيان ، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها ، وكان زمامها فى هذا الطور بأيدى الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة ، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العريقة فى العلم ، فنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، وآداب هذه اللغات المتنوعة ، كأبى العلاء سالم

(١) ص ٥٢ و ٥٣ من حديث الشعر والنثر .

كاتب هشام بن عبد الملك ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل ، وصنعة الكتابة [١] ، وكجبلة بن سالم كاتب هشام أيضاً وكان يعرف الفارسية ، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة فيقال : بدئت الكتابة بعبـــد الحميد ، وقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها ، ونقلها إلى مرحلة جديدة ، احتلت فيها المنزلة الرفيعة التى كانت للخطابة .

(ب) ويجعل الدكتور طه حسين نشأة الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وعبقريته اللماحة [٢] ، ويختلف الباحثون فى ثقافة عبد الحميد المكملة لثقافته العربية : فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها وينقل عنها إلى العربية ، ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى [٣] » ، وسواه ، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبى هلال العسكرى عنه إنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى [٤] » ، ويرجح الدكتور طه أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان [٥] ، والذى نذهب إليه أن تطور الكتابة على يدى عبد الحميد الكاتب لم يكن إلا أثراً من آثار التطور العقلى والأدبى للأمة العربية لاغير .

منزلة عبد الحميد الكاتب :

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتاب ، لما حباه الله

---

(١) يروى صاحب الفهرست فى صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر .

(٢) ٤٠ و ٤١ — ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى .

(٤) ٦٩ الصناعتين ، ٨٩ ج ٢ ديوان المعانى .

(٥) ٤٢ ، ٤٤ و ٦٦ من حديث الشعر والنثر .

من مواهب عظيمة . وصفات جليلة ، وذكاء نادر ، ولأنه تلميذ لسالم مولى هشام ، وكانت ثقافته خليطاً من العربية واليونانية ، ثم كان صديقاً مخالطاً لابن المقفع الذى يجيد الفارسية والعربية . فاجتمع لعبد الحميد أسمى ما فى بلاغة العرب واليونان والفرس .

مذهب عبد الحميد فى الكتابة :

استطاع عبد الحميد الكاتب بمواهبه وثقافته أن يبتكر فى الكتابة الفنية مذهبا كان من أهم أصوله ما يلى :

١ — القدرة على الإيجاز فى غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوبا ، وعلى الإطالة فى غير إملال حين يكون الطول مرغوباً فيه ، حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات ، ولقد روى أنه كتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة لبنى العباس على لسان مروان بن محمد كتاباً يستميله فيه ، وقال لمروان : لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب

وقالوا : إنه كان لقدرته على الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى مكانه يتخير لكل منهما محله الذى يناسبه ، فيطنب فى الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، والوعد والوعيد ، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء ، ومن إيجازه قوله موصياً بشخص : « حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » ، وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبداً أسود ، فكتب إليه : لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته » .

٢ — وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ — كما أطال فى البدء والختام وأكثر من تنويعهما حسب المقام ، وأطال فى البدء بنوع خاص بعبارات التحميد والثناء مما يعد جديداً فى هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها بالحمد لله فاصلا بينهما بأما بعد .

٤ — تجويد الأسلوب والعناية به (١) عناية كثيرة .

عوامل نهضة الكتابة فى آخر العصر الأموى :

تلك هى منزلة الكتابة فى العهد الثانى من عصر بنى أمية ، وذلك هو مكانها الرفيع الذى بلغته فى ذلك الطور ، ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتى :

١ — اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل ، مما استدعى العناية بالكتابة والكتاب .

٢ — عناية الكتاب بها وجعلها صناعة فنية عتيدة ، مع تعدد ثقافاتهم العربية والأجنبية . التى كان لها أثرها فى الكتابة ، حتى ليقال : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (٢) .

٣ — ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الأعمال ، فقل الحرص على الخطابة ، وأخذت الكتابة فى الظهور والذيوع .

٤ — كان للموالى — من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة

---

(١) يقول طه حسين : ربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى واستقامة أسلوب ، فهو أحسن من كتب العربية .
(٢) ٥٧ : ١ النثر الفنى .

والمدنية ــ أثر كبير فى نهضة الكتابة ، وتحولها إلى صناعة فنية ، لها منهجها وأسلوبها وطرق أدائها ، ونظامها فى البدء والختام : وكان لأذواقهم أثر فى اتسامها بالسهولة والوضوح، وفى البعد عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها ؛ وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

وقصارى القول أن الكتابة الفنية بلغت فى هذا العصر غاية لا تدرك ، ومنزلة لا تنال .

فن التوقيعات :

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة الفنية ، دون أن ننبه إلى لون جديد منها ظهر بوضوح فى هذا العصر ، ذلك هو (التوقيع) ، وهو الكتابة على هوامش الرسائل التى ترفع إلى الخلفاء والولاة وذوى الشأن بما يفيد العلم بها ، وإبداء الرأى فيها .

وتمتاز هذه التوقيعات بالإيجاز ، ولطف الإشارة ، وقوة الإثارة ، وسلامة العبارة ، وكثيراً ما يكون التوقيع آية مقتبسة ، أو حديثاً مروياً ، أو حكمة صائبة أو مثلا سائراً ، أو بيتاً من الشعر .

ويقال إن أول ما عرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ كتب إلى سعد بن أبى وقاص فى بنيان : « ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر » ، ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

ووقع سعيد بن العاص فى كتاب لزياد يخطب إليه فيه : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ووقع عبد الملك فى كتاب للحجاج شكا فيه أهل العراق : « ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعا على كتاب عامل له يستأذنه فى تجديد بناء مدينة : « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

وكتب إليه عامله على الكوفة يخبره أنه فعل فى أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » .

ولقد دعا إلى ذيوع التوقيعات ، ما تكاثر فى هذا العصر من مظاهر الملك ، وتنوع من شئون الدولة ، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ، وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا فى كل ذلك برأى ويشيروا بما لديهم من تدبير ، ومن هنا اضطروا إلى الإيجاز فى التعليق ، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيع .

نصوص من الكتابة الفنية فى العصر الأموى

١ — بين الحجاج وعبد الملك بن مروان

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فاتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التى بيده وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك وعاذ به ، تخوفا من الحجاج ، واستدفاعاً لضرره وشره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يقول :

أما بعد فإن لواذ (١) المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، لاستلانتهم دمث (٢) أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض (٣)

(١) لاذبه لواذا ولياذا ولوذا لجأ إليه وعاذ به .
(٢) دمث دمثا ، كفرح فرحا ، فهو دمث : لان وسهل . والدماثة : سهولة الخلق .
(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

البرق لأعدائه لايعدم له شائما (١) ، رجاء استمالة عدوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق ، مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ، هم على شدة أشد استباقا منهم على اللين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين ، إن رأى ذلك ، والسلام . . فكتب إليه عبد الملك ، ردا على رسالته :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثقته بنصيحتك — خابطا فى السياسة خبط عشواء (٢) الليل ؛ فإن رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجك العامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك (٣) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، واللين أهون ، والإفراط فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة . . والسلام .

تعليق على النصين :

يمثل هذان النصان البلاغة العربية وهى فى الذروة ، والملكات الأدبية وهى فى قمة فصاحتها وسلامتها ؛ ويمثلان على الخصوص بلاغة الحجاج وعبد الملك بن مروان ـ والثانى خليفة أموى عظيم ، والأول من أشهر الولاة لبنى أمية من حكام الأقاليم ـ تمثيلا قويا واضحا .

وفى نص الحجاج روح الطغيان والاستبداد ظاهرة كقوله « الناس

(١) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .
(٢) العشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء .
(٣) أى أسرع .

عبيد العصا ، مما لم يفت عبد الملك الخليفة الرد عليه ، وتفنيد رأى الحجاج فيه ، وتسفيه سياسته ، ونقد نظام إدارته للعراق .

وفى نص عبد الملك يبدو عقله السياسى فى القمة ، وخطته فى سياسة الرعية ، ورأيه فى حكم العراق خاصة ، والأقاليم العربية عامة ، وهو رأى له بالإسلام صلة وبسياسة العصر الحديث شبه .

٢ — رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب من أشهر الأدباء والبلغاء والكتاب الذين نبغوا فى الدولة الأموية ، بل كان شيخ الكتاب ، وأول من أطال الرسائل ونوع فى أغراضها وأساليبها ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه (١) أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره

لقد كان عبد الحميد الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، فهو أول من مهد سبلها ، وميز فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون ، وقصرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها وجعل لها صوراً خاصة بيدئها ويختمها ، على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، بل هو الذى رقى هذه الصناعة التى كانت من مهن الموالى ، حتى صارت بعده سلماً يعرج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة : وهى مرتبة الوزارة ، وكان لبلاغته عمل يعجز عنه السحر فى خلب الأفئدة وجذب النفوس ؛ فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخراسانى بدعوة بنى العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرىء لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل ـ وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن يك ذلك وإلا فالهلاك ، فبعث به إلى أبى مسلم ، فبادر بحرقه خوفاً من التأثر ببلاغته ، وقال :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ۝ إليك ليوث الغاب من كل جانب

---

(١) الختن : من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

وقد بعث عبد الحميد بهذه الرسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، ويوجههم إلى آفاق كثيرة من صناعة الكتابة ، ويوسع مجال القول أمامهم . . وهذه نصوص منها ، قال عبد الحميد :

أما بعد — حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم — فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب رزقهم . فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم ؛ لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم . . وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج فى نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم ، فهيما فى موضع الحكم ، مقداما فى موضع الإقدام ، محجاما فى موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور فى مواضعها ، والطوارق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته

وعتاده ، ويهيء لكل وجه هيئته وعادته . . فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفهموا فى الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ؛ ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها ؛ وسيرها فإن ذلك معين لكم على ماتسمو إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر فى الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ، واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات . وإياكم والكبر والسخط والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

والرسالة ـ كما ترى ـ تمثل أسلوب عبد الحميد وخصائص كتابته الأدبية ، من الدقة فى الإطناب والإيجاز واستعمال كل منهما فى المقام الذى يناسبه ، ومن وضع صور للبدء والختام فى الرسائل ، ومن تخير الألفاظ ذات الجرس القوى والمعنى الفخم ، يصوغها فى الأساليب السهلة الرائعة ، مع قوة الحجة وترتيب الفكر ووضوح المنطق ، والميل إلى الإقناع ، ومن تجافى الغريب ، والبعد عن السوق ، وإيثار الجزالة والعذوبة . إلى ما فى الرسالة من بيان مكانة الكتاب فى ذلك العصر ، وهى أشبه بمكانة الصحفيين اليوم ؛ وما اشتملت عليه من الأخلاق التى يجب أن يتحلوا بها ، ومن الثقافات التى يجب أن يتزودوا بزادها . والرسالة وثيقة خطيرة فى مقاييس البلاغة والنقد عند الكتاب فى القرن الثانى الهجرى .

٣ — موازنة بين قطعتين من النثر

ا — كتب عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد عهدا إلى ابنه عبد الله بن مروان حين وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيبانى :

استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة ، وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ؛ وتعهد العامة بمعرفة دخائلهم ، وتبطن أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم ، فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق فى العامة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منـــك ، وقلوبهم المتنحية عنك . قس بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة ، وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ؛ وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف فى أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم مدخلا لهم فى أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتضييعهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيعا .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مرشداً ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت فى مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وتعل درج الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل . . إلى آخر هذا العهد الطويل البليغ .

ويذكرنا هذا العهد بعهد الإمام علي بن أبي طالب الذي كتبه للأشتر النخعي حين ولاه أمر مصر ، قال الإمام علي فيما قال :

اعلم يامالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، إنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت ، وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم . ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فإنه لا يدي[1] لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مئونة في الرخاء ، وأقل معونة في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عمود الدين ، وجماع[2] المسلمين ، والعدة من الأعداء ، العامة من الأمة . فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم .

---

(١) أى لاطاقة لك : مثنى يد .

(٢) جماع الشيء : مجتمع أصله .

ب — ونحن هنا نستطيع أن نوازن بين هذين العهدين فى إيجاز :

نلاحظ على أسلوب عبد الحميد الميل إلى الإسهاب والترسل ، أما أسلوب الإمام ففيه جنوح إلى الإيجاز مع البلاغة الطيعة المواتية ، وعبد الحميد يملك بلاغة كلامه بما حفظ من كلام الإمام فى أول نشأته ، ونلاحظ أن الإمام عليا كرم الله وجهه قد زود بهذا العهد قائده الأشتر النخعى حين ولاه مصر التى « جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور » والتى كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم عثمان . فكان من الحق أن ينهج له القصد ويهديه السبيل . أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا إلى ولى العهد وهو ذاهب إلى الحرب ، ويجب أن يزود القائد وهو غاد إلى القتال برسالة تقع فى قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب ، وأكثره مما لا صلة للحرب به ، وما رأينا أحدا من المؤرخين أثبت هذا العهد فى هذا المقام ، وما عهدنا فى مثل هذا الموطن إلا الايجاز ، وقد يكون عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له إلا أن يعارض عهد الإمام على كرم الله وجهه . لذلك لا تجد لهذا العهد رباطا يربطه ، ولا مداراً يدور عليه ، بل أكثره جمل مترادفة ، وموضوعات منتزعة ، لا تكاد تجمعها ألفة ، أو تصلها قرابة .

وانظر إليه حين يسوق إلى وليه بعض النصائح التى لا يصلها غرض ولا وشيجة ، كيف ينوه بها فى قوله « هذه خصال . . . » ويسوق فى هذا التنويه عشرين جملة متتابعة .

أما الإمام على رضى الله عنه فقد دق فى ترسله دقة لا يصل إليها أهل الإيجاز ، وذهبت كل فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لا يقوم به غيرها ، وانظر إلى وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه : « وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء . وأكره للإنصاف ،

وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع، وأخف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة » .

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد ، بل وقع كل منهما على معنى خاص لابد منه .

ومهما كان فقد تأثر عبد الحميد ببلاغة الإمام على تأثراً كبيرا ظهر فى عهده هذا .

٤ — وكتبت السيدة زينب بنت على عليه السلام إلى الخليفة يزيد ابن معاوية بعد مقتل الحسين :

صدق الله ورسوله يايزيد: ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون ، أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى . أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة ! وان هذا لعظيم خطرك ! فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مسوقة لك ، والأمور متسقة عليك . وقد أمهلت ونفست . وهو قول الله تبارك وتعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) .. أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هتكت ستورهن، وصحلت حدوجهن (١) مكتئبات تخدى (٢) بهن الأباعر ويحدو بهن الأعادى، من بلد إلى بلد ، لايراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن (٣) القريب والبعيد ، ليس معهن ولى من رجالهن . وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنف والشنآن ، والإحن والأضغان . أتقول « ليت أشياخى ببدر شهدوا » ، غير متأثم ولا مستعظم ، وأنت تنكث ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ، ولم

---

(١) صحلت : انشقت . والحدوج جمع حدج - بكسر الحاء - مركب للنساء كالمحفة .
(٢) خدا البعير والفرس أسرع . (٣) يتشوفهن : أى يجتليهن .

تكون كذلك ، وقد نكأت (١) القرحة واستأصلت الشأفة . باهراقك دماء ذرية رسول الله محمد ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب . ولتردن على الله وشيكا موردهم ، ولتودن أنك عميت وبكمت . وأنك لم تقل : فاستهلوا وأهلوا فرحا . اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا ممن ظلمنا . والله مافريت إلا فى جلدك ، ولا حززت إلا فى لحمك ، وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، وعترته ولحمته فى حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ، ملمومين من الشعث — وهو قول الله تبارك وتعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، وستعلم من بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين . إذا كان الحكم الله ، والخصم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك ، بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا ، مع أنى والله ياعدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى عنا ، وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى يعتامها عسلان (٢) الفلوات ، فلئن اتخذتنا مغنما ، لتتخذنا مغرما ، حين لا تجد إلا ماقدمت يداك ، تستصرخ يا ابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعاوى ويتعاوى بك عند الميزان . ووجدت أفضل زاد زودك معاوية ، قتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتقيت غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكد كيدك ، واسع سعيك وناصب جهدك ؛ فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة ، لسادات شبان الجنان ، فاوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير[٣] .

---

(١) نكأ القرحة : حكها .

(٢) عسلان : جمع عاسل : الذئب ، واعتام الشىء اختاره .

(٣) مضت هذه القطعة فى ص ٢٤٣ على أنها خطبة لها أمام يزيد .

تراجم لأشهر الكتاب فى العصر الأموى

عبد الحميـــد الكاتب

واضع الأصول الفنية للكتابة فى الأدب العربى

١ ـــ عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة فى تاريخ التراث الأدبى عند العرب ، وحياته غامضة أشد الغموض . لأن الخلافة العباسية أسدلت عليه سحبا كثيفة من الإهمال والنسيان ، باعتباره الكاتب السياسى الأول لدولة بنى أمية ، ولقبه الجاحظ فى كتابه المشهور « البيان والتبيين » بعبد الحميد الكاتب أو الأكبر ، ويعظم النقاد العرب من منزلته فى الأدب العربى ، فيقولون فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

وكان أبوه يسمى يحيى ، من سلالة غير عربية ، من أهل الشام ، الذين دخلوا فى الاسلام وتعلموا العربية ، ولا يعرف متى ولا أين ولد عبد الحميد فى أرض الشام ؛ وإن كان من المرجح أنه ولد فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م) ، فى دمشق أو قريبا منها .

وكانت الدولة آنذاك للأمويين ، وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق ، التى بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور ، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع ، وأصابها من عناية الأمويين ماصارت به قبلة الناس من كل صوب وحدب ، فاتسع عمرانها ، وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم ، وصارت موطنا رفيعا من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف شئونهم ، وأصبحت تعد من أعظم مدن العالم وأجملها ، وتمتع سكانها بالعدل والأمن والثراء ، وتمتعت كل العناصر الأجنبية فيها بالحرية ، وعاملهم المسلمون بالتسامح ، حتى رضوا بسلطان العرب ، وطرحوا المسيحية ، ودخلوا فى الإسلام ، وتعلموا العربية كما يقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » .

وكانت الشام أحد الأقاليم الكبرى فى الأمبراطورية الإسلامية آنذاك ،

وتشمل : فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين . . وتتصل بإقليم العراق ، وبإقليم « الجزيرة وأرمينية » بصلات وثيقة .

وفى ظلال الأمويين اتصل الفكر العربى بالثقافة والآداب الاغريقية والرومانية فى الشام ومصر ، وكان الأدب الرومانى السائد فيهما قبيل الفتح العربى تطويرا جديدا للآداب اليونانية فى عصرها الاسكندرى الرومانى ، هذا العصر الذى يبدأ بدخول أثينا فى حكم الرومان فى القرن الأول قبل الميلاد ، وينتهى بالفتح الاسلامى لهذه البلاد فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى . . كما اتصل العقل العربى كذلك فى مدن العراق بالثقافة الفارسية القديمة ، وبخاصة فى مدينة البصرة المشهورة ؛ وكان ملوك إيران ، وبخاصة سابور بن أردشير فى أواسط القرن الثالث الميلادى ، وكسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ، قد بذلوا كثيرا من الجهد فى نقل الثقافة الاغريقية إلى ثقافة بلادهم ، وقام التراجمة السريانيون ، بذلك العبء ، حيث نقلوها أولا إلى الفارسية ، ثم نقلوها إلى لسانها السريانى ؛ ونقلوها أخيرا إلى اللغة العربية فى ظلال العصر الإسلامى وفى عهد الأمويين والعباسيين .

٢ — تعلم عبدالحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب ، وتفوق فيهما ، فسلس لسانه ، وجادت لغته ، وظهرت مواهبه فى الأدب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة وعمل فى أول أمره معلما ، وتنقل فى البلدان .

وكانت ثقافة الأديب آنذاك مزيجا من الثقافة العربية الإسلامية ، ومن التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيام العرب وتاريخ العجم ، وأحيانا يضاف إلى ذلك ثقافة أجنبية أخرى كالثقافة الفارسية أو الاغريقية أو الرومانية أو المصرية القديمة أو الهندية ؛ وفى رسالة عبد الحميد إلى الكتاب مايوضح لنا أصول الثقافة الأدبية فى عصره .

وقد تتلمذ عبد الحميد فى الكتابة على أبى العلاء سالم الكاتب السياسى لهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ ؛ هـ : ٧٢٤ - ٧٤٣ م) ، ويروى ابن النديم

فى «الفهرست» أن أبا العلاء ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر، وذلك يدل على تضلعه فى الثقافة والآداب واللغة اليونانية ، وكان أبو العلاء أحد الواضعين لنظام الرسائل الأدبية ، والتقاليد الكتابة الفنية وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم ، وكان صهراً لعبد الحميد ، إذ كان زوج أخته ، وكان جبلة بن سالم الذى تولى الكتابة السياسية فى ديوان الرسائل لهشام أيضاً صديقاً حميماً لعبد الحميد الكاتب ، وكان جبلة يعرف الفارسية وهو أحد المترجمين منها إلى العربية ، كما كان صديقاً حميماً لعبد الله ابن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ : ٧٢٥ - ٧٦٠ م) . وابن المقفع فارسى الأصل ، وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللسان العربى كذلك . وذلك كله يدعنا نرجح أن عبد الحميد إلى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية والفارسية .

فزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى يرجح أن عبد الحميد كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها ، وينقل منها إلى العربية ، ويؤيد ذلك قول أبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ : ١٠٠٥ م) فى كتابيه : « الصناعتين » ، و « ديوان المعانى » إن أبا هلال « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى » ويقول زكى مبارك : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية .

ويؤيد الدكتور طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان متأثراً بها أشد التأثر فى فصوله الأدبية .

٣ — وذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب ، وعرفت مواهبه الأدبية ، وثقافاته الكثيرة ، فقربه إليه الأمير الأموى مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينية ، هذا الإقليم الغنى الممتد الأطراف ، الذى كان يشمل : بلاد الموصل ، وأزربيجان وولايات أرمينية ، وكان مروان قد

تولى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد بن مروان الأموى ولم يلبث الأمير الأموى مروان أن قاد جيشا كثيفا من أبناء الجزيرة وأرمينية ، وزحف به على الشام فاستولى على حمص وقنسرين وسواها من المدن ، ثم زحف على دمشق ودخلها بجيشه ، وتولى أمور الخلافة الأموية ، وبايعه الشعب بخلافة المسلمين فى قصر الخلافة عام ١٢٦ هـ : ٧٤٤ م ، وأخذت البيعة لمروان فى جميع مدن الشام ، ولما بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ قال مروان : إذن تطير معنا ، قال : الآن طاب لى السجود وسجد .

كان عبد الحميد يتولى شئون ديوان الرسائل الأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينية ؛ وصار وثيق الصلة به وازدادت مكانته عنده ، ووثق فيه الأمير ثقة كبيرة كان عبد الحميد جديرا بها ، وصدرت عنه رسائل سياسية كثيرة فى ذلك العهد ؛ ولما تولى مروان الخلافة صار عبد الحميد الكاتب الأول له فى ديوان الرسائل بدمشق . وصدرت عنه رسائل أدبية وسياسية ذات شهرة فنية كبيرة .

شاهد عبد الحميد كل الأحداث السياسية التى مرت بالعرش الأموى أثناء حكم مروان بن محمد (١٢١ - ١٣٢ هـ : ٧٤٤ - ٧٥٠ م) ، ورأى الزحف العباسى الكبير الذى بدأ من خراسان ، واستمر حتى نهر الزاب الذى بلغته قوات العباسيين فى جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ؛ وبلغته أنباء المعركة الكبرى التى دارت على نهر الزاب بين جيوش الخليفة مروان وجيش المسودة من العباسيين ، والتى انتهت بهزيمـــة مروان وجيشه فى أوائل رجب ١٣٢ هـ ، وهرب مروان إلى الشام فمصر ، وهرب كاتبه وصديقه عبد الحميد إلى البحرين ، ودخل العباسيون دمشق واستولوا على قصور الأمويين وكنوزهم ، وجدوا فى تشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان ، وعلى أنصارهم فى جميع مدن الشام ؛ وكذلك جدوا فى البحث

عن مروان بن محمد حتى قبضوا عليه في بلدة « بوصير » من أعمال الجيزة وقتلوه لليلتين بقيتا من ذى الحجة عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م . وكان مروان قد أمر خادماً له أن يدفن في الصحراء خاتم النبي وبردته وعصاه وكان يعتز بها خلفاء بني أمية ويتوارثونها . وذلك حين فاجأته جيوش العباسيين ، ولما قبضوا على الخادم قدم للقتل ، فطلب إليهم أن يضمنوا حياته ليكشف لهم عن مكان هذا الكنز الإسلامي الكبير ، وفعلوا فأرشدهم إلى مكانه فأخذوه وبعثوا به إلى أبي العبـــاس السفاح الخليفة العباسي في العراق ، والذي أطلق عليه لقب السفاح لكثرة ما قتل من الأمويين وأنصارهم . .

وأما بنات مروان وجواريه فقد أخذن بعد قتل أبيهن إلى صالح بن على فتكلمت أمامه بنته الكبرى « أم مروان » تسأله العفو وأن يلحقهن بحران مدينة مروان المفضلة في حياته ففعل، فأخذن يبكين مروان عند دخولهن إليها بكاء مريراً كما روى المسعودى في الجزء الثاني من تاريخه « مروج الذهب » . .

وأما أولاد مروان : عبد الله ولى عهده ، وقائده في أكثر المواقع ، وعبيد الله ، وغيرهما فقد هربوا إلى النوبة فالحبشة في جماعة من الأمويين ، وقتل عبد الله هناك . ونجا عبيد الله كما يذكر الطبرى في الجزء التاسع من تاريخه ، ويذكر ابن الأثير أن المقتول هو عبيد الله .. وأما مزنة امرأة مروان فتظاهر في بغداد عام ١٦٠ هـ في قصر الخليفة المهدى أمام الخيزران في ثوب مرقع ما تستر به جزءاً من جسدها إلا انكشف جزء آخر مع الجمال والعظمة وسوء المظهر وشقاء الحال كما يذكر التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة »

بعد معركة الزاب وهزيمة مروان ومعه عبد الحميد بن يحيى الكاتب كتب هذا العبقرى العظيم إلى أسرته رسالة مؤثرة يقول فيها :

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ؛ فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها

مستزيداً [١] لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق [٢] استحليناها ، ثم جمحت [٣] بنا نافرة ، ورمحتنا [٤] مولية . فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ؛ فالدار نازحة [٥] ، والطير بارحة [٦] ، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً فإن تتم البلية إلى آخر مدتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شر جار . فنسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين :

رسالة كلها بكاء ودموع وحيرة ، ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الأحداث إلا القتل أو الأسر ، وهو يودع أسرته فيها وداعا مؤثراً ؛ ولا نعلم من أمر أسرته شيئا ، لأن التاريخ لم يعن بها ولا بربها منذ يوم الهزيمة المروعة ؛ هزيمة القائد فى المعركة التى خسر فيها كل شيء حتى حياته .

وألح مروان على صديقه عبد الحميد أن يهرب ، فقد ينجو من القتل ، أو أن ينضم إلى أعدائه من العباسيين ، فقد يستطيع أن يقدم خدمة لخليفته المهزوم ، وقال له مروان : إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بى ، فبذلك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ، قال عبد الحميد :

---

(١) يقول إن الانسان : فى شكايته الدنيا لاينتصف منها بل كأنه يستزيدها .

(٢) الأفاويق : جمع أفواق . والأفواق : جمع فيقة وهى اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين .

(٣) جمحت الدابة : غلبت راكبها .

(٤) رمح الفرس : رفس .

(٥) النازح : البعيد .

(٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك إلى مياسرك ومن الناس من يتشاءم به .

أسر وفاء ثم أظهر غدرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

يا أمير المؤمنين إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، ولكنى سأصبر حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك .

ولما ضاق بهما الأمر دعاه مروان إلى الهرب ، وأصر مروان على رأيه فاختفى عبد الحميد هاربا فى الأرض ، ولكن إلى من يهرب ؟

كان صديقه عبد الله بن المقفع فى العراق يكتب لداود بن هبيرة حاكم العراق من قبل مروان ، وكان ابن المقفع يزور دمشق وعبد الحميد الكاتب أحيانا ، إذا سار إلى عاصمة الأمويين مع أميره العظيم .. ولما اكتسحت جيوش العباسيين العراق ، قتلوا داود وأهله فيمن قتلوهم ، ونجا ابن المقفع من القتل بفراره فى ذلك الحين ، وظهر ابن المقفع فى البحرين ، ولجأ إليه هناك صديقه عبد الحميد الكاتب ، وأقام عنده فى داره . ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه ، ففاجأه الطلب وهو فى دار ابن المقفع ؛ وهنا تظهر عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين ، الذين ظلا على الأجيال حتى اليوم فخراً للفكر العربى ، قال الجند ، وهم شاكو السلاح : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، إشفاقا على صديقه ، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا ، فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات ، فلم يجد الجند مناصا من ذلك ، ففعلوا وعادوا بأوصاف عبد الحميد كاملة ، فقبضوا عليه ، وقتل عام ١٣٢ هـ : ٧٥٠ م .

وهكذا خسر الفكر والأدب العربى أعظم رجاله ، وأروع شخصية يعتز بها تراثنا العقلى على مر العصور .. وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استمهله القدر عشرة أعوام ، ثم قتل عام ١٤٣ هـ : ٧٦٠ م فى عهد المنصور العباسى .

٤ — كان عبد الحميد عبقرية كبيرة ، وذهنا لماحا ، وذكاء خصبا ، وأدبا جماً ، ونبلا موفوراً ، وملكا فى ثياب عربى .. مع ثقافة واسعة ، وعلم بسياسة الدولة وشتى أمورها ، وإدراك لكل مسئوليات الرجل السياسى وواجباته مع قدرة فائقة على تملك ناصية البيان ، وزمام التأثير ، وروعة التعبير .

ويروى عنه أنه حين ظهرت الدعوة إلى العباسيين فى خراسان بقيادة أبى مسلم الخراسانى الفارسى زعيم الدعاة ، كتب عبد الحميد إليه على لسان الخليفة الأموى مروان بن محمد كتابا يستميله فيه إلى جانب الأمويين ، وحمل الكتاب على جمل لكبر حجمه ، وقال عبد الحميد للخليفة : لقد كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فالهلاك ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى إليك ليوث الغاب من كل جانب

وهذا يدلنا على عظمة كتابات عبد الحميد السياسية ، التى كانت بمثابة مقالات الصحف اليومية السياسية الذائعة اليوم ، وكان عبد الحميد يقدر على تصوير المعنى تصويراً بارعا لا يقدر عليه أحد من الكتاب .. أهدى وال من ولاة مروان إلى الخليفة عبداً أسود ، فطلب مروان من عبد الحميد أن يكتب إليه متهكما ، فبعث إليه عبد الحميد برسالة موجزة أشد الإيجاز يقول فيها : لو وجدت لونا شراً من السواد ، وعددا أقل من الواحد ، لأهديته » .. وبراعته ، أو قدرته على الإيجاز مشهورة ، كتب يوصى بشخص : « حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله » .

إن عبد الحميد كان جديراً أن يعد فى عصره وبعد عصره : شيخ الكتاب ، وإمام المنشئين والمترسلين فى الأدب العربى : فقد كان أمة وحده فى بلاغة العبارة ، ورصانة الأسلوب ، ودقة المعانى ولطفها ، وعظمة الخيال

وروعته ، وشدة التأثير وامتلاك ناصية البيان ؛ وكان يفصل جمله تفصيلا ، ويزينها أحيانا بقليل من السجع ، ويحليها بألوان من الوشى الفنى المطبوع .

٥ — ويرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد أن عبد الحميد هو الذى ظهر على يديه النثر الفنى فى الأدب العربى ، وهو الذى أنشأ الكتابة الفنية إنشاء فى اللغة العربية ، هذه الكتابة التى يعتمد فيها الكاتب على التحبير والتنميق، إذ لم تظهر فى رأيهم فى العصر الجاهلى ولا فى عصر صدر الإسلام . وإن كان بعض مقدماتها وعناصرها قد أخذ فى الظهور فى عهد الخلفاء الراشدين ، أما هى جملة فقد تأخرت إلى العصر الأموى لتظهر فى رأيهم على يدى عبد الحميد الكاتب ، بتأثير الثقافة اليونانية فيه ، كما يقول الدكتور طه ، فهو الذى ترك آثارا كبيرة فى نهضة الكتابة ، وحولها إلى صناعة فنية ، لها مناهجها وأصولها وتقاليدها الأدبية ، ولها نظامها فى البدء والختام ؛ وكان لذوقه الحساس أثر كبير فى اتسام الكتابة بالسهولة والوضوح ، وفى البعد عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها . وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

ويرى الأستاذ مرسيه الفرنسى ، والمستشرق الانجليزى جب فى كتابه « تراث الإسلام » ، أن النثر الفنى يبتدىء بابن المقفع ، وأن القرن الأول الهجرى لم يكن فيه نثر يعتد به ، إنما كان الشأن فيه للشعر ؛ وابن المقفع فى رأيهما ورأى تلاميذهما أول ممثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ، وأول مؤلف للكتابة الفنية الأدبية .

ولكن جمهرة كبيرة من النقاد العرب القدامى والمحدثين ، ومن بعض المستشرقين ، تصر على أن النثر الفنى ظهر فى الجاهلية ؛ واستحكمت نهضته بنزول القرآن الكريم ، وبالحديث النبوى الشريف ، وببلاغات البلغاء فى صدر الإسلام من خلفاء وقواد وولاة وغيرهم ، ونهج البلاغة مشهور

مقامه في النثر الفني ، وإن زعم البعض أن الشريف الرضي انتحله ، فإن فيه نصوصا لا يمكن أن يقال عنها إنها منتحلة ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير ، كاليونان والرومان والفرس والمصريين القدماء ، فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون . ويبعد الدكتور طه القرآن الكريم عن مجال الاحتجاج في هذه الخصومة الأدبية ، وإن كان القرآن في الذروة العليا من النثر الفني . والنثر الفني في الآداب الأوربية لم يزدهر بين عشية وضحاها ، بل تطور من عصر إلى عصر حتى بلغ غاية نهضته وازدهاره ، فلم لا يكون كذلك في الأدب العربي ؟ بدليل أن النثر الفني عند ابن المقفع هو نثر متقدم حي خلاق ، وليس بدائيا ؛ ونشك كل الشك في أن ابن المقفع كتب هذا النثر الفني الرفيع دون أن يكون له سابقون في تاريخ الأدب العربي القديم .

فالنثر الفني وجد قبل القرآن وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيما ، ثم اتصل العرب بالآداب الأجنبية التي ظهرت آثارها في كتاباتهم الأدبية منذ أوائل القرن الثاني الهجري على يدي عبد الحميد وابن المقفع . والأحوال الاجتماعية الجاهلية التي يرى الدكتور طه أنها لم تكن تساعد على نشأة النثر الفني ، لا يمكن أن يشترك فيها عرب نجد وعرب الحجاز في الحكم على حد سواء ، فإذا جاز لنا أن نقول عن العرب النجديين القدماء إن حياتهم لم تكن تساعد على إنشاء النثر الفني ، فإنه لا يجوز لنا أن نذهب هذا المذهب ونحكم به على عرب الحجاز القرشيين ، الذين عرفوا الحكومة السياسية المنظمة وطبقوها في مكة ، والذين عاشوا في ظلال ترف ورخاء وألوان حضارية من العيش كثيرة . .

٦ — إن عبد الحميد بلا ريب كان ذا أثر كبير في الكتابة الأدبية في عصره ، فهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد الذين كتبوا الفصول الأدبية كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين

كما يقول الدكتور طه ، وهو أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة ، فمهد سبلها ، ووضح معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختامها ، والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى ، فكان شيخ الكتاب ، وبحق ماقيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد . وقد ساعد عبد الحميد على إحداث هذا التأثير الأدبى الكبير الذى ظهر فى صورة مذهب فنى جديد فى الكتابة مايلى :

ا — نضوج الثقافة العربية الإسلامية ، من علوم الدين واللغة والأدب ، وإقبال الكتاب عليها ، وتمثلهم لها ، واحتذاؤهم حذوها .

ب — رواية أصول الأدب العربى ، شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكما وأمثالا وسجعا وقصصا وأخبارا وأنسابا ، والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ، وعلى استظهار الشعر الجاهلى والإسلامى كذلك . وخطب الرسول ووصاياه ، وخطب الخلفاء والصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى عصر عبد الحميد ، وبخاصة خطب الإمام على بن أبى طالب وحكمه .

جـ — أثر القرآن الكريم والحديث النبوى فى تهذيب الألسنة ، وترقيق الطباع ، وتضوج الملكات .

د — اتصال العقل العربى بالآداب الأجنبية ، وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

هـ — عناية الكتاب بكتابة الرسائل ، وجعلها صناعة فنية عتيدة .. إلى جانب اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل الذى كان يرؤسه كبار الأدباء والكتاب ، ممن أنشأوا الرسائل البليغة على ألسنة الخلفاء والأمراء . وقد استدعى كل ذلك العناية بالكتابة والكتاب .

وقد استطاع عبد الحميد أن يتصرف فى نثره الفنى تصرفا ذكيا يجمع بين

طرق الإيجاز والإطناب ، ويراعي شتى الأحوال والمقامات ، وكان لقدرته على الإيجاز فى موضعه والإطناب فى موضعه . يتخير لكل منهما محله الذى يناسبه ، فيطنب : الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، وفى الوعد والوعيد ، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء . . كما أطال فى فواتح رسائله الأدبية وخواتيمها ، بما يعد جديدا فى هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها الحمد لله ، فاصلا بينهما بأما بعد وغير ذلك . . وبهذا عد عبد الحميد من أوائل من صنعوا الأصول والتقاليد الفنية فى النثر الفنى العربى والكتابة الأدبية .

وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، التى ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل مافى قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات ، أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من آراء وأفكار ؛ فى أسلوب رائق ، ولفظ جميل ، وتصوير مؤثر .

ولعبد الحميد رسائل بليغة ذكر ابن النديم أنها تجتمع فى ألف ورقة لم يصل إلينا منها إلا القليل ؛ وفى دار الكتب المصرية رسالة تنسب إليه ، وقد جمع محمد كرد على فى كتابه « رسائل البلغاء » كثيرا من الفصول الأدبية التى تروى لعبد الحميد .

وقد ذاعت طريقة عبد الحميد وابن المقفع فى توخى السهولة وسلامة التعبير ، مع العناية بإجادة المعنى ، بين الكتاب فى عصرهما وفى العصور الأدبية كلها .

وهكذا مات هذا العبقرى الكبير ، وذهب الزمان بجل آثاره الأدبية والفكرية والسياسية ؛ وخسر الأدب العربى بذلك خسارة فادحة [1] ؛ ولمكانته فى الكتابة قال ابراهيم بن الصولى : ما تمنيت كلام أحد من الكتاب يكون لى مثل عبد الحميد .

---

(١) راجع عن عبد الحميد : الفهرست لابن النديم ـ مروج الذهب المسعودى

النقد فى العصر الأموى

كانت البلاغة العربية فى هذا العصر ملء المشاعر والأذواق ، وكان العرب بطبيعتهم الأدبية يحكمون على الكلام أحكاما فيها فطنة ودقة ، وإن لم يهتدوا إلى أصول النقد وقواعده .

وكانت جماعات النقاد فى هذا العصر تتمثل فى الأدباء والشعراء والرواة وفى الخلفاء وفى غيرهم . وعلى أيديهم أصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقا ، وأدنى إلى التحليل والتعليل .

وهذه صور من النقد فى عصر بنى أمية ، تدل على ذوق ، وتشير إلى فهم لخصائص الكلام ، وتوحى بفهم النقاد لأصول البلاغة فى التعبير والمعنى والغرض . .

١ — انتقد عبد الملك ابن قيس الرقيات لضعف قافيته حين أنشده :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتيه
وجببننى جب السنام ولم يتركن ريشاً فى منكبيه (١)

= أمراء البيان لمحمد كرد على — رسائل البلغاء جمع محمد كرد على — من حديث الشعر والنثر لطه حسين — الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام وأعلام الأدب فى عصر بنى أمية (جزءان) ومن بلاغة العرب والأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين وهى من تأليف محمد عبد المنعم خفاجى — تاريخ الأدب العربى للزيات ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، والوسيط ، والمفصل . والمجمل فى الأدب العربى والأخيران اشترك فى تأليفهما طه حسين وأحمد أمين — الفن ومذاهبه فى النثر لشوقى ضيف — أدب السياسة للحوفى — فن المقالة الأدبية لمحمد عوض محمد .

(١) جب : قطع .

فقال له : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيك .

٢ — ودخل كثير عزة يوما على سكينة بنت الحسين ، فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى   يمج الندى جثجاثها وعرارها (١)
بأطيب من أردان عزة موهنا
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٢)

أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب إلا طاب ريحها . ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقا   وجدت بها طيباً وإن لم تطيب (٣)

٣ — واجتمع الكميت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا بلغ قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة
وإن تكامل فيها الأنس والشنب (٤)

عقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى؟ قال : خطأ : باعدت فى القول ، ما الأنس من الشنب ؟ — يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما —

(١) الحزن : ماغلظ من الأرض . الجثجاث : نبات العرار ، بهار البر .
(٢) الأردان جمع ردن كقفل وهو الكم . الموهن : من أول الليل إلى نحو نصفه . المندل : العود .
(٣) قيل لكثير : مالك لاتقول الشعر أجبلت ، قال : والله ما كان ذلك ، ولكن فقدت الشباب فما أطرب ، ورزئت عزة فما أنسب ، ومات ابن ليلى فما أرغب ، يعنى عبد العزيز بن مروان (١ : ٣٠ الأمالى ، ٣ : ١٣٤ العقد) .
(٤) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

٤ — واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبي ربيعة فأقبل كثير على عمر ينقد قوله :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد فى أثرى (١)

وقال : إن الحرة إنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لا طالبة.

٥ — ويروى أن الكميت عارض بائية ذى الرمة التى مطلعها :

« ما بال عينيك منها الماء ينسكب »

فقال :

هل أنت فى طلب الإيقاع منقلب
أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولا ما يقتدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً عنه .

وامتدح ذوالرمة قصيدة للكميت بأنه أحسن فى ترقيص قوافيها .

٦ — ومن صور النقد قولهم فى ابن أبى ربيعة : إن لشعره موقعاً من القلب وعلوقا بالنفس ، وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا : إن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول فى عمر بن أبى ربيعة : إنه يجيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ما خاطبهن به عمر ، وجرير يعترف للأخطل بأنه أشعرهم فى وصف الخمر ومدح الملوك وهكذا .

٧ — وقدمت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

(١) اسبطرت : أسرعت .

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ولكن قولى همام .

٨ — وأنشد كثير عزة قوله :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى فى خلاء ونعزب
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب(١)
إذ ماوردنا منهلا هاج أهله إلينا فلا تنفك نرمى ونضرب

فقالت له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٩ — وأنشد عبد الملك قول نصيب :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فقال بعض الحاضرين : أساء القول أيحزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال عبد الملك لو كنت قائلا فماذا تقول ؟ قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولا ، ثم قال الوجه أن يقال :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلاصلحت دعد لذى خلة بعدى

١٠ — أنشد ذو الرمة بلال بن أبى بردة يمدحه :

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح : انتجعى بلالا(٢)

---

(١) العر : الجرب .

(٢) أى سمعت هذه العبارة ، الناس ينتجعون غيثا ، قال المبرد : المعنى سمعت هذا اللفظ أى قائلا ينطق به . . وصيدح اسم الناقة .

فلما سمع بلال : فقلت اصيدح ، قال : ياغلام مر لها بقت و نوى[1] يريد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

ووقف ذو الرمة أمام عبد الملك ينشده :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب[2]

فقال عبد الملك : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وكان بعبد الملك رمش[3] فلا تزال عينه تدمع فتوهم أنه يعرض به .

١١ — واستأذن جرير على سكينة بنت الحسين فلم تأذن له ، وخرجت جاريتها فقالت : تقول لك سيدتى : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال : نعم،قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها مايقال لمثلها ، أنت عفيف . خذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك .

١٢ — وعاب رواة الشعر فى العصر الأموى على الشماخ بن ضرار قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقالوا : كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها ، فقد قال رسول الله للأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة لها ، حين قالت يارسول الله ، إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال لبئس ما جزيتها .

وعابوا على ذى الرمة متابعة الشماخ فى هذا إذ يقول :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين عينيك جازر

---

(١) ١٧٨ الموشح .

(٢) كلى جمع كلية أو كلوة بالضم وهى من المزادة رقعة مستديرة يخرز عليها تحت العروة .. مفرية مشقوقة . سرب الماء كفرح : سأل فهو سرب أى سائل .

(٣) الرمش : تفتل فى شعر الأهداب وحمرة فى الجفون مع ماء يسيل .

وفضلوا عليهما فى هذا المعنى قول عبد الله بن رواحة الأنصارى :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء (١)
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى (٢)

وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

عــلام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى (٣)

وجاء أبو نواس بعد ذلك فقال فى هذا المعنى وأبدع فيه .

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

١٣ — وأخذوا على الفرزدق قوله :

إذا التفت الأبطال أبصرت وجهه مضيئاً وأعناق الكماة خضوع

فقالوا أساء القسمة وأخطأ الترتيب ، وإنما كان الأجدر أن يقول أبصرته سامياً وأعناق الكماة خضوع . . وعابوا على الأخطل قوله فى عبد الملك :

وقد جعل الله الخلافة فيهم لأبيض لا عارى الخوان ولا جدب (٤)

---

(١) الحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة ان يغيض ومنعت الأرض السماء أن تنشفه . فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء .

(٢) لا أرجع مجزوم لأنه دعاء فلا هى الجازمة له ومعناه اللهم لا أرجع (ص ٦٨ الموشح) .

(٣) الأنساع جمع نسع بالكسر ، وهو سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال والقطعة نسعة . والدبرة بكسر الدال وفتح الباء قرحة الدابة والجمع دبر بفتح الدال والباء وأدبار .

(٤) الخوان : ما يؤكل عليه .

فقالوا لو مدح به حرسياً لعبد الملك لقصر به .

١٤ — وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان :

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم   مذق الحديث يقول مالا يفعل (١)

فقالوا : إن الملوك لاتمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة وإنما تمدح بالإغراق والتفضل بما لايتسع غيرهم لبذله .

١٥ — ووفد عمر بن أبي ربيعة على عبد الملك فقال له أنت القائل :

أأترك ليـــلى ليس بيني وبينها   سوى ليلة إنى إذاً لصبور

قال : نعم ، قال : فبئس المحب أنت ، تركتها وبينك وبينها غدوة .

١٦ — ولما أنشد عبد الملك قول كثير فى أخذه الخلافة :

فما تركوها عنوة عن مودة   ولكن بحد المشرفى استقالها

أعجب به أشد العجب ، وكان الأخطل حاضراً فقال : ماقلت والله ياأمير المؤمنين أحسن منه ، قال : وماقلت ؟ فأنشد :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا   موالى ملك لاطريف ولاغصب

ثم قال جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً ، قال صدقت ، إقراراً منه بصواب ماذهب إليه .

١٧ — ويروى أن الأخطل حين أنشده قوله :

فإذا تعاورت الأكف زجاجها   نفحت فشم رياحها المزكوم

أعجب به ، وقال للشعبي وكان حاضراً سمعت بمثل هذا يا شعبي ؟ فقال الشعبي : أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول :

من اللائى حملن على المطايا   كريح المسك تستل الزكاما

فقال : صدقت .

(١) مذق الحديث : مخلوط الحديث من مذق كنصر إذا خلطه .

١٨ — ويروى المرزبانى (١) أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر . ثم تراضوا بسكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

طارقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب كثير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

يقر بعينى ما يقر بعينها　　وأحسن شىء ما به العين قرت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت　　من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة　　فمن مل منها ذلك الوصل ملت
خليلى هذا ربع عزة فاعقلا　　قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

فليس شىء أحب إليهن ولا أقر لأعينهن من النكاح أفيحب صاحبك أن ينكح قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ماطلبتها　　ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فإن وجدت نعل بأرض مضلة　　من الأرض يوما فاعلمى أنها نعلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما　　قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ما أرى لصاحبك هوى . . إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

---

(١) الموشح ص ١٥٩

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنى من ذا يهيم بها بعدى ؟

كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

من عاشقين تواصلا وتواعدا ليـــلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم عيشة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال : تعانقا .

١٩ — ولسليمان بن عبد الملك حكم حكم به على الشعراء الثلاثة الفرزدق وجرير والأخطل (١) .

٢٠ — وأنشاد الفرزدق وجرير والأخطل وذى الرمة فى مجلس عبد الملك ابن مروان بمزاحم العقيلى وشعره (٢) .

٢١ — وسأل عبد الملك أعرابيا عن أمدح وأهجى وأفخر وأغزل وأحسن وأقبح بيت قيل ، فأجابه الأعرابى (٣) .

٢٢ — وجلس الشعراء فى مجلس عبد الملك بن مروان ، فأخذ كل منهم يقدم شاعرا من الجاهليين (٤) .

٢٣ — وقال مالك بن الأخطل عن جرير والفرزدق : وجدت جريرا

(١) ١٨٩ الشعر والشعراء .

(٢) ٢ : ١٥٥ ديوان المعانى، وراجع أخبار مزاحم فى الأغانى (١٧ : ١٥٠ ، ٣ : ٤٥ خزانة الأدب) .

(٣) ٧٦ و ٧٧ : ١ ديوان المعانى .

(٤) ١ : ١٥٢ المرجع .

يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، فقال له الأخطل : الذي يغرف من بحر أشعرهما (١) .

إلى غير ذلك من صور النقد في هذا العصر وهي كثيرة لاتحصى .

ومن مشهوري النقاد في هـذا العصر عبد الملك بن مروان ، وسكينة بنت الحسين . يروى أن الفرزدق الشاعر خرج حاجاً(٢) ، فلما قضى حجه عدل إلى المدينـــة ، فدخل إلى سكينة بنت الحسين ، فسلم ، فقالت له : يافرزدق(٣) ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذي يقول :

بنفسي من تجنبه عزيز ... على ومن زيارته لمـــام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ... ويطرقني إذا هجع النيام

فقال : أما والله لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه . قالت : أقيموه ، فأخرج . ثم عاد من الغد ، فدخل عليها ، فقالت يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ فقال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت إذا هجر الضجيع فراشها (٤) ... كتم الحديث وعفت الأسرار
لايلبث القرناء أن يتفرقوا ... ليل يكر عليهم ونهار

---

(١) ٢ : ١٧٣ البيان والتبيين .
(٢) الاغاني صـ ٢٨ ج ٨ ، مصارع العشاق صـ ٧٤ ، المحاسن والمساوىء صـ ١٣٣ طبع ليزج .
(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر فنظمه ونبغ فيه ، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم ، ثم رحل إلى خلفاء بني أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم ، مات سنة ١١٠ هـ .
(٤) الضجيع : الزوج ، وهجرها أن يغيب عنها ، يصفها بالعفاف .

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه ؛ فأمرت به فأخرج .

ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، و حولها مولدات لها كأنهن التماثيل ؛ فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، وبهت ينظر إليها . فقالت له سكينة : يا فرزدق ؛ من أشعر الناس ؟ قال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقال : لئن تركتنى لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه ، فالتفت إليها وقال : يابنت رسول الله ؛ إن لى عليك حقاً عظيما . قالت : وما هو ؟ قال : ضربت إليك آباط الإبل من مكة إرادة التسليم عليك ؛ فكان جزائى من ذلك تكذيبى وطردى ، وتفضيل جرير على ، ومنعك إياى أن أنشدك شيئا من شعرى ، وبى ما قد عيل منه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت ، فإذا أنامت فرى بى أن أدرج فى كفنى ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية (١) .

فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية ، فخرج بها آخذا بريطتها (٢) ، ثم قالت له يافرزدق ، احتفظ بها وأحسن صحبتها ؛ فإنى آثرتك بها على نفسى بارك الله لك فيها .

---

(١) يشير إلى الجارية التى أعجبته . (٢) الريطة : الملاءة .

فهرست الكتاب

القسم الأول من الكتاب